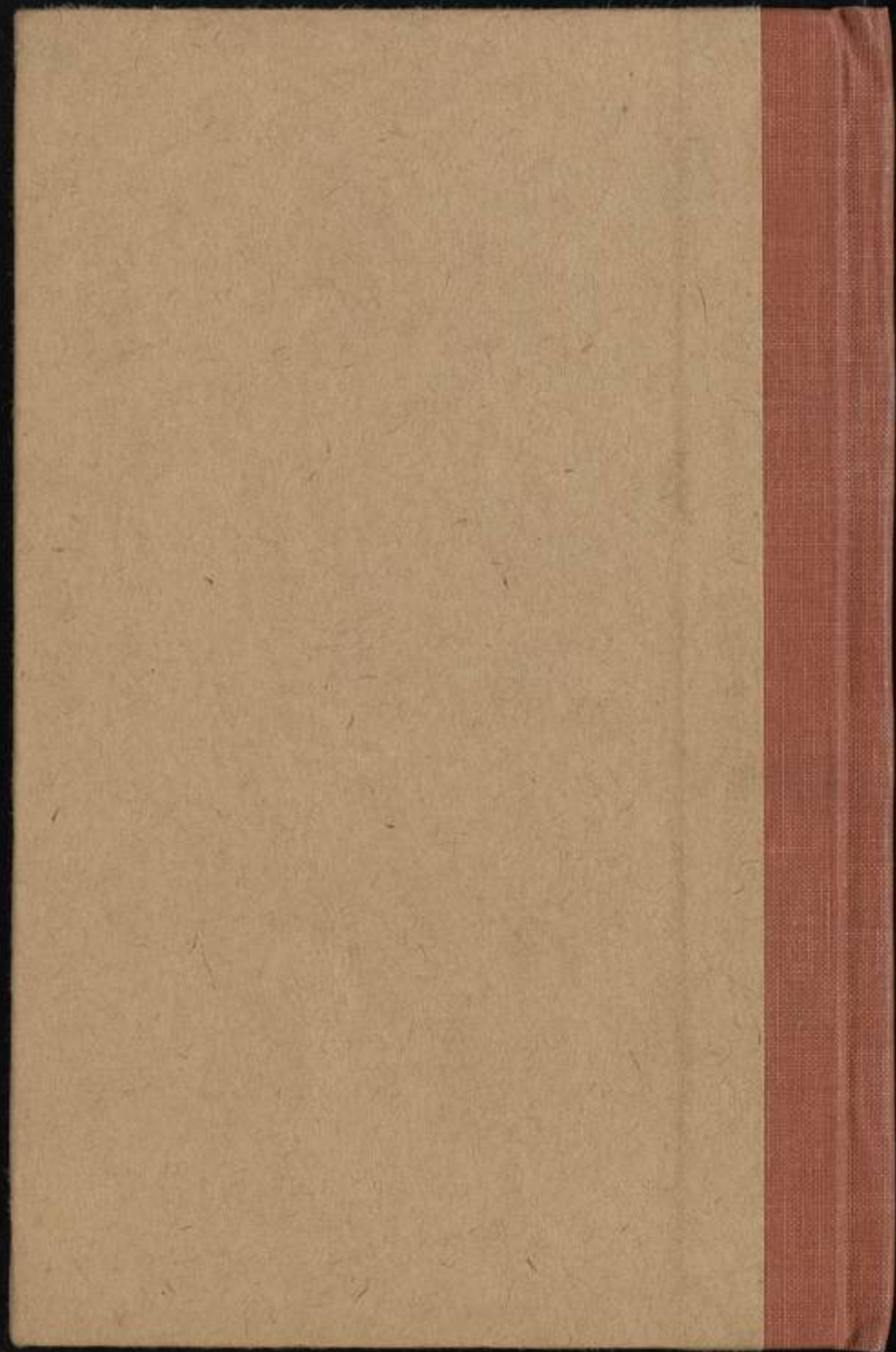
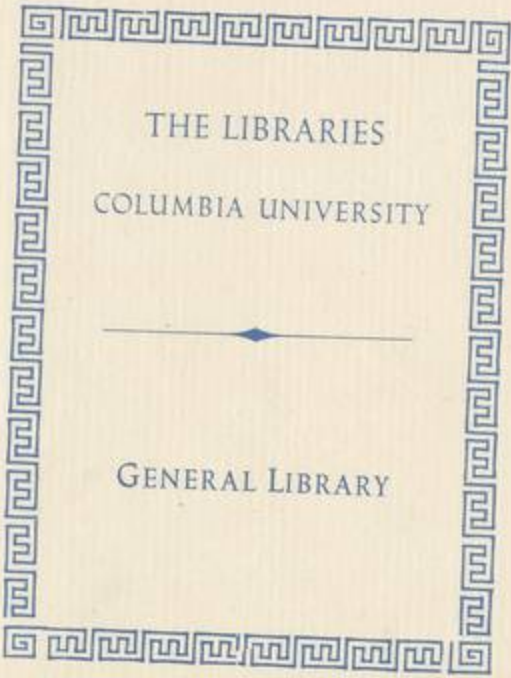
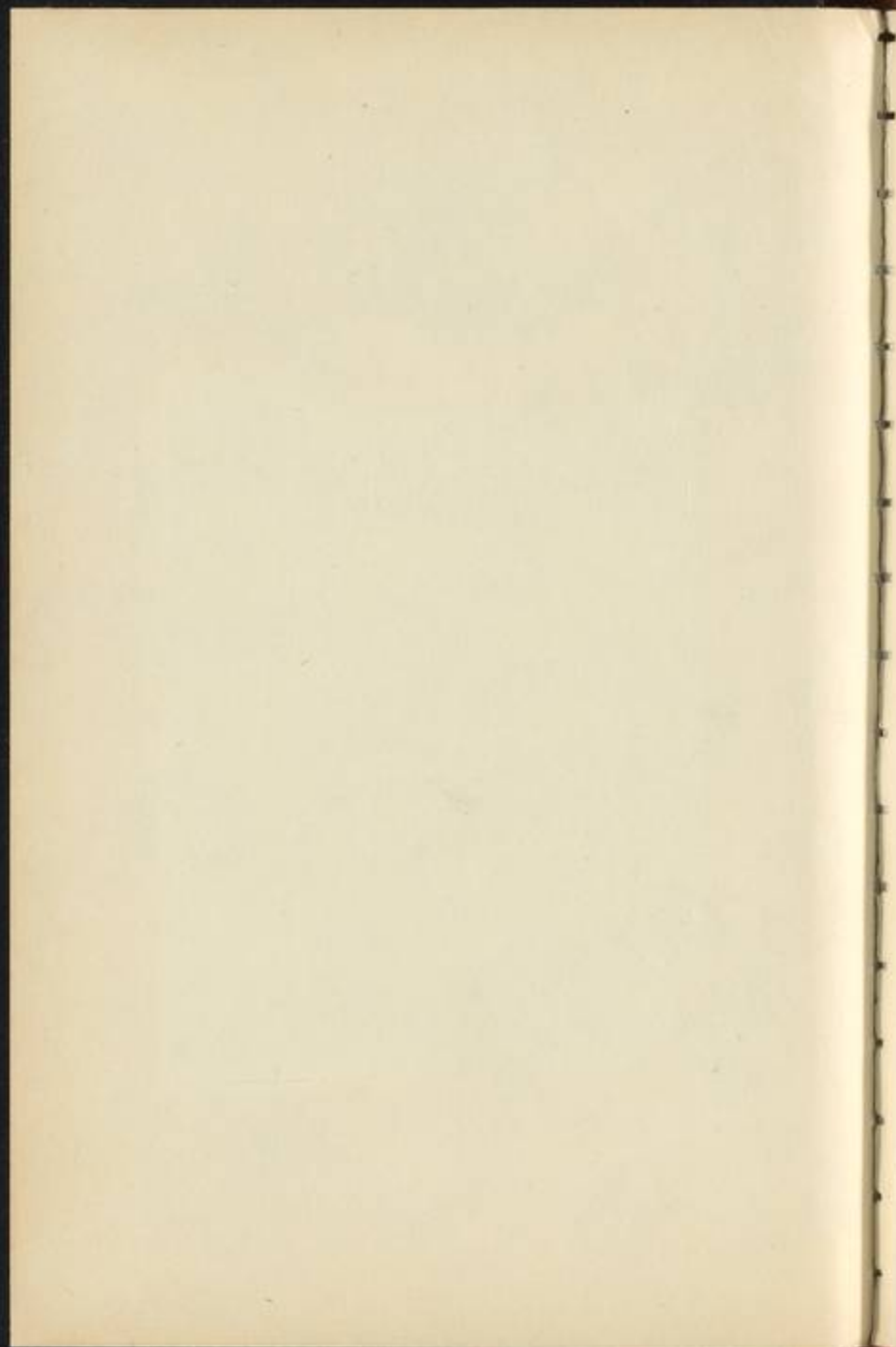


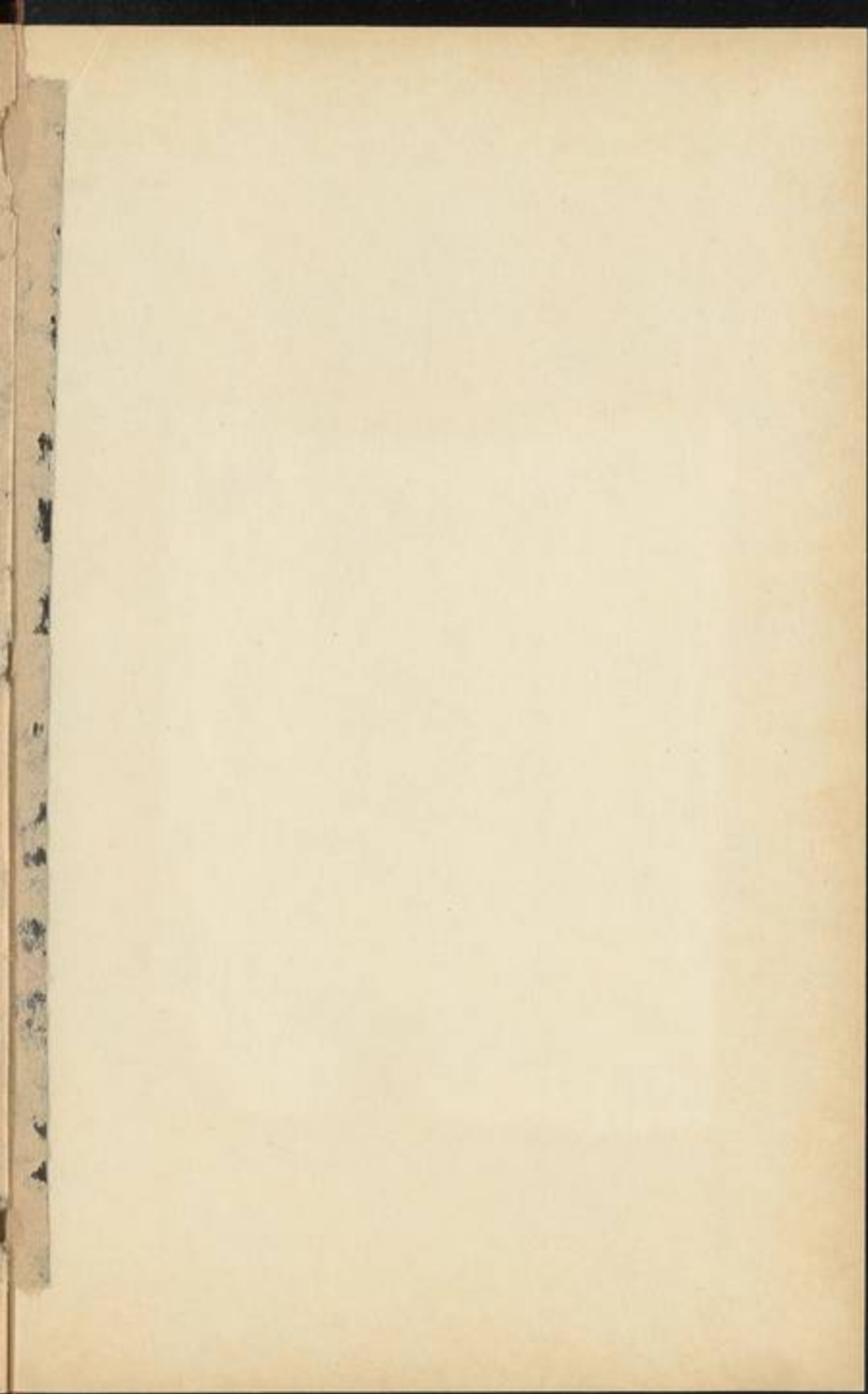




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





ناتج الإنديس

المسمى

(بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب)

تأليف

الشيخ الفقيه الحافظ المتقن الواعظ المتقن
محيي الدين أبي محمد عبد الواحد بن
علي التميمي المراكشي رحمه
الله وأرضي عنه آمين

(طبع على ذمة السيد محمد هاشم الكتيبي بدمشق الشام)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)
« لصاحبها محمد اسماعيل »



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفني الأثم • وباعث الرمم • وواهب الحكم ذي
البقاء والقدم • الذي لا مطعم في ادراكه لتواقب الازدهان • ونوافذ
الهمم • احده على ما علم وألهم وسوغ وأنعم • وصل الله على كاشف
الظلم • ورافع التهم • وموضح الطريق الأثم • المخصوص بجوامع
الكلم • والمبعوث الي كافة العرب والعجم وعلى آله وصحبه أهل الفضل
والكرم • وسلم عليه وعالمهم وشرف وعظم

(وبعد) أيها السيد الذي توالى على نعمه • وأخذ بضيعي من
حضيضى الفقر والخلول اعتناؤه وكرمه • وقفضى احسانه إلى ومحبتة
التي جبلت عليها بأن ألزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه • فانك
سألني بواك الله أعلى الرتب • كما عمر بك أندية الادب • ومنحك
من سعادتي الدنيا والآخرة أوفر القسم • كما جمع لك فضيلتي التدبير
والقلم • املاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيأته وحدود
أقطاره وشي من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن
من لدن ابتداء دولتهم الي وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وأن ينضاف الى

ذلك نبذة من ذكر من اقيته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه
 ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل فلم أرَ
 بدءاً من إسعافك والمسارة الى ما فيه رضاك إذ هي الغاية التي أجري
 اليها • والبقية التي أنابر أبدأ عليها • ولوجوب طاعتك على من وجوه
 يكثر تعدادها فاستخرت الله عز وجل فيما نذبتني اليه • واستعنته
 واعتمدت في كل ذلك عليه • فهو المواءم والمجاوئ وهو حسبنا ونعم الوكيل
 هذا مع اني أعتذر الى مولانا فصح الله في مدته من تقصير ان وقع بثلاثة
 أوجه من الاعذار فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العمي على طباعه
 فمهما وقع في هذا الاملاء من قصور لفظ أو اخلال بسرد فهو خلق
 بذلك والوجه الثاني انه لم يصحني من كتب هذا الشأن شيء اعتمد عليه
 واجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين وأما دولة المصامدة خصوصاً
 فلم يقع إلي لأحد فيها تأليف أصلاً خلا اني سمعت بعض أصحابنا
 جمع اخبارها واعتني بسيرها وهذا المجموع لا أعرفه الا سماعا والوجه
 الثالث ان محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت
 أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموم تستغرق الفكر فرغبة
 المملوك الأصغر اجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من
 التسامح والتغاضي لازال مجده العالي يرفع الهمم • ويعقد الذمم •
 ويوصل النعم • ويعمر ربوع الفضل والكرم • •

﴿ فصل في ذكر جزيرة الاندلس وحدودها ﴾

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الاندلس وتحديد
 والتعريف بمدنها ونبد من أخبارها وسير ملوكها من لدن فتحها الى
 وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ اذ هي كانت معتمد المغرب الاقصى والمعتبرة
 منه والمنظور اليها فيه وهي كانت كرسي المملكة ومقر التدبير وأم قري
 تلك البلاد لم يزل هذا معروفاً من أمرها الي أن تغلب عليها يوسف
 ابن تاشفين اللعوني فصارت اذ ذاك تبعاً لما كش من بلاد العدو
 ثم تغلب عليها المصامدة بعده فاستمر الامر على ذلك الي وقتنا هذا
 فأقول وبالله التوفيق

أما حدود جزيرة الاندلس فان حدها الجنوبي منتهي الخليج
 الرومي الخارج من بحر مانطس وهو البحر الرومي مما يقابل طنجة
 في موضع يعرف بالزقاق سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً وهذا
 الخليج هو ملتقى البحرين أعني بحر مانطس وبحر اقنايس وحدها
 الشمالي والمغربي البحر الاعظم وهو بحر اقنايس المعروف عندنا بحم
 الظامة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين
 البحرين بحر الروم وهو مانطس والبحر الاعظم ومسافة ما بين
 البحرين في هذا الجبل قريبة من ثلاث مراحل وهو الحد الاصغر
 من حدود الاندلس وحدها الاكبران الجنوبي والشمالي مسافة كل
 واحد منهما نحواً من ثلاثين مرحلة وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه
 هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الاندلس هو الحاجز ما بين
 بلاد الاندلس وبين بلاد أفرنسة من الارض الكبيرة ارض الروم التي

هي بلاد أفريقية العظمى والاندلس آخر المعمور في المغرب لانها كما
ذكرنا منتبهة الى بحر اقنايس الذي لا عمارة وراءه ومسافة ما بين
طليطلة التي هي قريبة من وسط الاندلس ومدينة رومية قاعدة الارض
الكبيرة قريبة من أربعين مرحلة ووسط الاندلس كما ذكرنا مدينة
طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوطا من قبائل الافرنج ثم ملكها
المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه وعرضها ثلث وثلاثون درجة
وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب فصارت بذلك
قريبة من وسط الاقليم الخامس وأقل بلاد الاندلس عرضا المدينة
المعروفة بالجزيرة الخضراء البحر الجنوبي منها وعرضها ست وثلاثون
درجة وأكثر مدنها عرضا بعض المدان التي على ساحلها الشمالي
تعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة فبين بما ذكرنا ان معظم
الاندلس في الاقليم الخامس أميل الى الشمال فذلك اشتد بردها وطالت
مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت
أذهانهم الى الغايظ ما هي فبت عن كثير من الحكمة وطائفة من
الاندلس في الاقليم الرابع كاشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية
ومرسية فهذه البلاد التي ذكرنا في الاقليم الرابع أعدل هواء وأطيب
أرضا وأعذب مياها من البلاد التي في الاقليم الخامس وأهلها أحسن ألوانا
وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك اذ كان للميول والسموت في اللغات
تأثير بين لمن استقر في ذلك وفهم عاتيه وجملة مدن الاندلس التي هي
أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الامر منها أولها
في الحد الشمالي مدينة شلب ثم مدينة اشبيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم
غرناطة ثم المرية ثم مرسية ثم بالنسية ثم مالقة وهي على البحر الرومي

فالذي على البحر الاعظم من هذه المدائن شلب واشيباية وبينهما قريب
من خمس مراحل والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة
الخضراء وهي من اعمال اشيباية ثم مالقة وهي مستقلة ثم المريية ثم دانية
هذه كلها على البحر الرومي ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على
ساحل ولما استقر أمر المسامين بالاندلس في غرة المائة الثانية تخيروا
مدينة قرطبة فجعلوها كرسي المملكة ومقر الامارة فلم تزل على ذلك
الي أن انقرضت دولة بني أمية بالاندلس فتغلب على كل جهة من
الجزيرة متغلب على ما سيأتي بيانه وهذه المدن التي ذكرت هي التي
يملكها المسامون اليوم وقد كانوا يملكون قبها مدنا كثيرة لم أذكرها
في هذا الموضع الا ان ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الاندلس
تعرف ذلك بقولي أعادها الله للمسامين فهذه جملة من أخبار الاندلس
وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسامين

❦ ذكر فتح جزيرة الاندلس ❦

❦ ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها ❦

ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود الى افتتاحها فتقول والله الموفق افتتح المسامون جزيرة
الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة وكان فتحها على يدي
طارق قيل بن زياد وقيل ابن عمرو وكان والياً على طنجة مدينة من
المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب بينها وبين الاندلس
الخليج المذكور المعروف بالزقاق والمجاز رتبة موسى بن نصير أمير

القبروان وقيل أن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على
 الغسائر وانصرف إلى أبيه لأمير عرض له فركب طارق البحر إلى
 الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء منتهاً للفرصة أمكنته وذلك
 أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خطب إلى
 الملك الأعظم ابنته فأنضب ذلك الملك ونال منه وتوعدوه فلما بلغه ذلك جمع
 جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك فبلغ طارقاً خلوتك الجهة فهذه
 الفرصة التي انتهزها وقيل أن العالج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره
 وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسم يوجه إليه أعيان
 قواده و..... بناتهم فيريهن عنده في قصوره ويؤدين بالآداب
 الملوكية حسبما كانوا يرونه..... فإذا بلغت الجارية منهن
 وحسن أدبها زوجها من قصره لمن يرى كفو أبيها فوجه إليه
 صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها ابنته على الرسم المذكور فكانت
 عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء فرآها يوماً فاعجبته فدعاها فأبت عليه وقالت
 لا والله حتى تحضر الملوك والتواد وأعيان البطارقة وتزوجني هذا
 بعد مشورة أبي فعلمته نفسه واغتصبها على نفسها فكتبت إلى أبيها
 تعلمه بذلك فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان
 الفتح فآله أعلم أي ذلك كان فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة
 المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزها قبيل الفجر فصلى بها الصبح بموضع
 منها وعقد الرايات لاصحابه فبني بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد
 الرايات وهو باق إلى وقتنا هذا أسأل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة
 ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها
 وكتب إلى موسى بن نصير موليه بخبر الفتح وغلبته على ماغلب عليه

من بلاد الاندلس وما حصل له من الغنائم فحسده موسى على الانفراد بذلك وكتب الى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه الى نفسه وكتب الى طارق يتوعده اذ دحهاها بغير اذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه الذي ينتهي اليه الكتاب فيه حتي يلحق به وخرج متوجها الى الاندلس واستخلف على القيروان ابنه عبد الله وذلك في رجب من سنة ٩٣ وخرج معه حبيب بن أبي عبدة النهري ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر في عسكر ضخم ووصل من جهة الحجاز الى الاندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لُذريق الملك لعنه الله بالاندلس فتلقاه طارق وترضاه ورام أن يستل ما في نفسه من الحسداء وقال له انما أنا مولاك ومن قبلك وهذا الفتح لك وبسبك وحمل طارق اليه ما كان غنم من الاموال فلذلك نسب الفتح الى موسى ابن نصير لان طارقا من قبله ولانه أتم من الفتح ما كان بقي على موسى وأقام موسى بالاندلس مجاهداً وجامعا للاموال ومرتباً للامور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرها من سنة خمس وقبض على طارق ثم استخلف على الاندلس ابنه عبدالعزيز بن موسى وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو ورجع الى القيروان ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعدّه من الهدايا الى الوليد بن عبد الملك وكان مما وجد بمدينة طابطة حين فتحها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فيقال انها طوق ذهب وطوق فضة مكللة بالؤلؤ والياقوت ومعه فيما يقال طارق فسات الوليد وقد وصل موسى الى طبرية في سنة ٩٦ فحمل ما كان معه الى سليمان بن عبد الملك ويقال انه وصل وأدرك الوليد حيا فآله أعلم وأقام عبدالعزيز بن موسى

ابن نصير أميراً على الاندلس الى أن ثار عليه من الجند جماعة فيهم
 حبيب بن أبي عبدة الفهرى وزياد بن النابغة التميمي فقتله بعضهم
 وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وذلك في صدر سنة ٩٨ بعد
 أن أمروا على الاندلس أيوب بن أخت موسى بن نصير ويقال أنهم
 كتبوا الى سليمان بما أنكروا من أمره فأمرهم بما فعلوه فالتة أعلم ثم
 اختلف الامر هنالك ومكث أهل الاندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم
 وال ثم ولي عليها السمع بن مالك الجولاني قبل المائة واجتمع عليه
 الناس ثم ولي عليها الغدر بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم وليها عنبسة
 ابن سحيم الكلبي ونزل الغدر بن عبد الرحمن ثم وليها عبد الرحمن بن
 عبد الله العكي نحواً من العشر ومائة وكان رجلاً صالحاً ثم وليها عبد الملك
 ابن قطن التهرى ثم عقبه بن الحجاج فهلك عقبه بالاندلس ورُد عبد
 الملك بن قطن ثم جاء راجع بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن
 عبد الملك وشهد له بعض ما كان معه ووقعت فتن من أجل ذلك وافترق
 أهل الاندلس فيها على أربعة أمراء حتى أرسلوا اليهم واليا أبو الخطار
 حسام بن ضرار الكلبي فحسم مواد الفتن وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة
 وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف الأت هؤلاء
 المذكورين كانوا أمراءها وولادة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب
 دولتهم من المشرق

﴿ ذكر من دخل الاندلس من التابعين ﴾

وأنا ذاكرها هنا من دخل الاندلس من التابعين للجهاد والرباط
 فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الانصاري يروى عن أبي هريرة ومنهم

حذش بن عبد الله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومنهم يزيد بن قاصط وقيل بن قسيط السكسي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ومنهم موسى بن نصير الذي ينسب الفتح اليه يروي عن تمام الداري

(فصل) وقد جاء في فضل المغرب غير حديث فمن ذلك ما حدثني الفقيه الامام المتقن المتين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشيباني سماعا عليه بمكة في شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال حدثني المؤيد بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال حدثنا الامام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوي قراءة عليه قال حدثنا بن عبد الغافر الفارسي حدثنا محمد بن عيسى بن عمرو بن الجلودي حدثنا أبو اسحق ابراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطي عن داود ابن ابي هند ابن ابي عثمان النهدي عن سعد بن ابي وقاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزال أهل المغرب ظامرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتي تقوم الساعة ومن فضل الاندلس انه لم يذكر قط أحد على منازعتها من السلف الا بحير وما زالت الولاة بالاندلس تاليها من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان او بمصر فلما اضطرب أمرهم في سنة ١٣٦ بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اشتغلوا عن مراعاة اقاصي البلاد ووقع الاضطراب بأفريقية والاختلاف بالاندلس أيضا بين القبائل ثم اتفقوا بالاندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن تستقر الامور بالشام ان يخاطب

ففعّلوا وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فسكنت به الامور
واتفقت عليه القلوب واتصلت امارته الى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة
بني أمية بست سنين

﴿ ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ﴾

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد
الملك بن مروان الاندلس الملقب بالداخل فقامت معه اليمانية وحارب
يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهرى الوالى على
الاندلس المذكور أنفا فهزمه واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار
الملك وكان دخوله اياها يوم الاضحى من السنة المذكورة فاتصلت ولايته
الى أن مات سنة ١٧٢ وكان مولده بالشام سنة ١١٣ أمه أم ولد اسمها
راح ويكنى أبا المطرف دخل الاندلس في ذي القعدة واستولى على
قرطبة دار ملكها في التاريخ المذكور وذلك أنه هرب من الشام لما
انتشرت دولة بني العباس فلم يزل مستترا ينتقل في بلاد المغرب حتي
دخل الاندلس ودخل حين دخلها طريدا وحيداً لا أهل له ولا مال
فلم يزل يصرف حيله ويسمو بهمة والقدر مع ذلك يوافقه الى أن
احتوى على ملكها وملك بعض بلاد العدو وكان أبو جعفر المنصور
إذا ذكر عنده قال ذلك صقر قريش وكان عبد الرحمن بن معاوية من
أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل ومن قضاة معاوية بن صالح
الحضرمي الحمصي وله أدب وشعر ومما أنشد وقاله يتشوق الى معاهده
بالشام قوله

أيها الراكب الميمم ارضي أقر من بعضي السلام لبعضي

أن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
 قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
 قد قضى الله بالفراق عنا فعسي باجتماعنا سوف يقضي
 وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم وكانت
 مدة ولايته منذ استولي على قرطبة دار الملك الى أن توفي اثنتين
 وثلاثين سنة

﴿ ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن ﴾

ثم ولى بعد عبد الرحمن ابنه هشام يكنى أبا الوليد وسنه حينئذ
 ثلاثون سنة واتصلت ولايته سبعة أعوام الى أن مات في صفر سنة ١٨٠
 وكان حسن السيرة متحررا للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق
 بالصدقات الكثيرة وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه
 صرر الدراهم يخري بها المساكين وذوي البيوتات من الضعفاء لم يزل هذه
 مشهوراً من أمره الى أن مات في التاريخ المذكور أمه أم ولد اسمها حوراء

﴿ ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضي ﴾

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكنى أبا العاص أمه
 أم ولد اسمها زخرف وكان طاعيا مسرفا وله آثار سوء قبيحة وهو الذي
 أوقع بأهل الربض الواقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم
 وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل
 بهم ذلك فسمي الحكم الربضي لذلك وفي أيامه أحدث الفقهاء انشاد
 اشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع اعني صوامع

فاطلقهم له عيسى جميعا لجار لا بيت بغير سكر
 فان أحببت قل لجوار جار وان أحببت قل لطلاب اجر
 فان أبا حنيفة لم يأت من تطالبه بخاصه بوزر
 وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عمر في شعره ان أبا حنيفة
 رحمه الله كان يجاوره رجل كمال فكان كل ليلة يأخذ سمكة ورغيفا
 وشيئا من التبيذ فاذا صلى العشاء الاخيرة اكل ثم شرب حتى اذا انتشى
 رفع عقيرته واندفع من هذا البيت

اضاعوني وأن فتى اضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
 فلا يزال يعيده حتى يغلبه النوم وكان أبو حنيفة على ما اشتهر
 عنه يحيي الليل كله صلاة فلما كان في بعض الليالي فقد صوت ذلك
 الرجل فقال لبعض من عنده ما فعل جارنا هذا الذي كان يغني كل ليلة
 أم هو مريض أم غائب فقالوا له انه مسجون فقال ومن سجنه فقالوا
 خرج في الليل لبعض حاجته فلقبه أصحاب عيسى بن موسى صاحب
 الشرطة فاتوا به فامر بسجنه فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب
 دابته وقصد عيسى بن موسى في بيته فلما أعلم عيسى بمكان أبي حنيفة
 خرج يتلقاه مسرعا وبالح في تكريمه وبره وسأله عن حاجته فقال لي في
 سجنك جار اسمه عمرو فقال عيسى يطلق كل من كان اسمه عمرو
 بسجني من أجل جار الفقيه فاطلقه وخلقا كثيرا معه فأتى الرجل أبا
 حنيفة يتشكر له فلما وقعت عينه عليه قال له أضعنك قال الرجل لا
 والله بل حفظت الجوار حفظك الله والبيت الذي نظمه أبو عمرو كان
 يغني به الرجل جار أبي حنيفة هو للعرجي رجل من ولد عثمان بن
 عفان سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة فلم يزل

يسجنه الى ان مات وخرجت جنازته من السجن ولا يبي عمر هذا
 شعر كثير جيد وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الاندلس
 فما على حظي له اول قصيدة يمدح بها أبا علي القالي وهي
 من حاكم بني وبين عدولي الشجوشجوى والعويل عويلي
 اقصر فما دين الهوى كفرولا اعتد لومك لي من التنزيل
 عجباً لقوم لم تكن اذهانهم لهوى ولا اجسادهم لنحول
 دقت معاني الحب عن افهامهم فتأولوه اقبح التأويل
 في أي جارحة أصون معذبي سلمت من التعذب والتكيد
 ان قلت في عيني فتم مدامعي أو قلت في قلبي فتم غايلي

هذا ما بقي في حظي منها وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء
 الحكم المستنصر وكان مختصاً بابي الحسن المصحفي منضوي اليه وهو الذي
 حمّله على هجو محمد بن ابي عامر فلما افضى الامر الى محمد قبض على
 المصحفي واستصفي أمواله ووضع في المطبق فلم يزل به حتي مات جوعاً
 وهزالاً واما ما كان من ابي عمر الشاعر فانه أوسع عقوبة ونكالا وأمر
 بتغريبه فشنع له عذبه في ان يتركه ببلده فاذن في ذلك غير انه خرج
 الامر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة أمر مناديه
 ان ينادي في جميع جهات قرطبة فاقام أبو عمر هذا كالكأيت الى ان مات
 مؤثماً الوفاة في آخر أيام ابي عامر وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو
 الروم ومن خالفه من المحاربين فاتصلت ولايته الى أن مات في صفر
 سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بوبيع له الى أن مات ست عشر سنة
 واشهرأ وانقرض عقبه بعد موت ابنته هشام المؤيد لم يعيش له ولد غير

❦ ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ❦

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم يكنى أبا الوليد أمه أم ولد
 اسمها صبح وسنه اذ ولى عشرة أعوام وأشهر فلم يزل متغيبا لا يظهر
 ولا ينفذ له أمر وكان الذي تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ
 أموره وتدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني وكان أصل
 ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء من قرية من
 أعماها تسمى طرُش على نهر يسمى وادي آروا إلا أنه كان شريف
 البيت قديم التعين ورد شابا الى قرطبة فطلب العلم والادب وسمع
 الحديث وتميز في ذلك وكانت له همة يحدث بها نفسه بأدراك معالي الأمور
 وتريد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك وله في
 ذلك أخبار عجبية قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن
 أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي طرفا في كتابه المترجم بالاماني
 الصادقة فمن جملتها قال الحميدي حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم
 قال أخبرني أبو عبد الله محمد بن اسحق التميمي قال كان محمد بن أبي
 عامر نازلا عندي في حجرة فوق بيتي فدخلت عليه في بعض الليالي
 في آخر الليل فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل
 حين فصلت عنه فقلت له ما أراك نمت الليلة قال لا قلت فما أسهرك قال
 فكرة عجبية قلت فيما ذا كنت تفكر قال فكرت اذا أفضي الي الأمر
 ومات محمد بن بشير القاضي بمن استبدله ومن الذي يقوم مقامه فجات
 الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلا واحداً قلت لعله محمد بن

السليم قال هو والله هو لشذ ما تفق خاطري وخاطر لك قال الحميدي
وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال كان ابن أبي عامر يوماً جالساً
مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم ليختر كل واحد منكم
خطة أوليه إياها إذا أفضي إلي الأمر فقال أحدهم توليني قضاء كورة رية
وهي مالقة وأعمالها فانه يعجبني هذا التين الذي يحيي منها وقال الآخر
توليني حاسبة السوق فاني أحب هذا الاسفنج وقال الثالث إذا أفضي إليك
الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا
مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل وافترقوا على هذا فلما أفضي
الأمر إليه كما تنفي بلغ كل واحد منهم أمنية على نحو ما طاب ولم تزل حاله
تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد بن
الحكم والنظر في أموالها وضياعها فزاد أمره في الترقى معها إلى أن مات
الحكم المستنصر وكان هشام صغيراً كما ذكرنا وخيف الاضطراب
فضمن أصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لانها وكان
قوى النفس وساعده المقادير وأمدته المرأة بالأموال فاستمال العساكر
إليه وجرت أحوال عات قدومه فيها حتى صار صاحب التدبير والمتغلب
على الأمور وحجب هشام المؤيد وتلقب هو بالمتصور فأقام الهيبة فدانت
له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته
لعظم هيئته وفطر سياسته واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن
جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفي ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد
الملك بن ادريس الجزيري ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن
الزبيدي الذي اختصر كتاب العين وقد تقدم ذكره وكان قد ولام
شرطته وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي البغدادي وله معه أخبار مستطرفة ولعلی سأورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في أكرام من ينسب إلى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه ورد عليه الأندلس في أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي المذكور آنفاً فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً جمة وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ أظن أصله من بلاد الموصل دخل بغداد فقراً بها وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً كرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والافضال عليه وكان مع ذلك محسناً لطريقة السؤال حاذقاً في استخراج الأموال طباً بلطائف الشكر أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً في مجلس أنسه وقد كان تقدم له أن اتخذ قيصاً من زقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه فلبسه تحت ثيابه فها خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد تجرد وبقي في القميص المتخذ من الخرائط فقال له ما هذا يا أبا العلاء فقال هذه الخرائط التي وصلت إلي فيها صلات مولانا اتخذها شعاراً وبكى واتبع ذلك من الشكر فضلاً كان رواء فأعجب ذلك المنصور وقال له لك عندي مزيد وكان كما قال وألف له أبو العلاء هذا كتباً فيها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل للغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر نهر قرطبة فغاث الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب فقال في ذلك بعض الشعراء

وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف بيتاً مطبوعاً
بحضرة المنصور وهو

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقیل يغوص
فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً ولا هاله وقال
مرتجلاً بحياء لابن العريف

* عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص
وكتاب آخر على نحو كتاب الخزر جي أبي السري سهل بن أبي غالب
سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخزومة
ابن أنيف وكتاب آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قطعل المذحجي
مع ابنة عمه عفراء وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس
ففقصت منه أوراق لم توجد بعد وكان المنصور كثير الشغف بهذا
الكتاب أعني الجواس حتي رتب له من يخرج له امامه كل ليلة ويقال
ان أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولى
الأمر بعده من ولده وادعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه
على عصي ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة الى أن ذهبت
دولتهم وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد
الملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وهو الذي ولى بعد أبيه وأولها

إليك حدود ناجية الركاب محيلة أمانى كالهضاب
وبعت ملوك أهل الشرق طراً بواحد لها وسيدها الباب
وفيها يقول

الى الله الشكية من شكاة رمت ساقى فخل بها مصابي
وأقصتني عن الملك المرحي وكنت أرم حالي باقترابي

ومما استحسّن له قوله

حسبت المنعمين على البرايا فالتفت اسمه صدر الحساب

وما قدمته إلا ككأنني أقدم نالياً أم الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدي أخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد ابن سعيد بن حزم أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر في عيد الفطر سنة ٣٩٦ قال أبو محمد وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر ولما رأيته أبا العلاء استحسّنها وأصني إليها كتبها لي بخطه وأنفذها إليّ انتهى كلام الحميدي وكان أبو العلاء كثيراً ما تستغرب له الألفاظ ويسأل عنها فيجيب بأسرع جواب على نحو ما يحكي عن أبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لجل على التصديق في كل ما يأتي به من ذلك وقد ظهر صدقه في بعض ما قال فما يحكي عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوماً وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه القلب والتزبيل وهذه عندهم أسماء لمعاينة الأرض قبل الزرع فقال له أبا العلاء قال لبيك مولانا قال هل رأيت فيما وقع اليك من الكتب كتاب القوالب والدوالب لميدمان بن يزيد قال أي والله يا مولانا رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كركع النخعي في جوانبها علامات الوضائع هكذا هكذا فقال له أما تستحي أبا العلاء هذا كتاب عاملي ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا (الذي تقدم ذكره) وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ونسبته إلى عاملي لا تخبرك فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمر وافق فقال له المنصور مرة أخرى وقد قدم طبق فيه تمر يا أبا العلاء

ما التمر كل في كلام العرب قال يقال تمر كل الرجل تمر كلّا اذا انف في كسائه وله من هذا كثير ولكنه مع هذا كان عالماً قال أبو عبد الله الحميدي حدثني أبو محمد علي بن أحمد قال حدثني الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبي عبدة عن أبي عبد الله العاصمي النحوي قال لما قدم صاعد بن الحسن اللغوي على المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها فلما رآه ابن أبي عامر كذلك قال دعوه هو من طبقتي في النحو أنا أناظره قال ثم سألنا صاعد فقال مامعني قول امرئ القيس

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

فقنا هذا واضح واتما وصف فرساً أشهب عقدت عليه الوحش فقطاير دمها على صدره فجاء هكذا فقال صاعد سبحانه الله أنسيتم قوله قبل هذا كمت يزل البلد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

قال فهبتنا كأننا لم نقرأ هذا البيت قط واضطررنا الى سؤاله عنه فقال إنما عني أحد وجهين إما أنه يغشى صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض فجاء مع الدم كالشيب وإما شيء كانت العرب تصنعه وهو أنها كانت تسم باللبن الحار في صدور الخيل فيتمعظ ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض فأما عني من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم قال أبو عبد الله وحدثنا أبو محمد علي بن أحمد قال حدثني أبو الخيار مسعود ابن سليمان بن مفلت الفقيه إن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشماخ بن ضرار

دار الفتاة التي كنا نقول لها يانظية عطلا حسانة الجيد

يدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا هي الحمامة تنزل على غصن الاراكه أو الكرمة فتفله فتتمكن
الظبية منه فترعاه فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال ان الحمامة في هذا
البيت هي المرأة وهي اسم من أسماؤها فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية
إذا نظرت في المرأة أدت المرأة منها في المنظر شعرها الذي هو كفتوان
العناقيد من يافع الكرم أو المرد فرأته ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد
يتفق مثلها ان صاعد بن الحسن اللغوي هذا أهدى الى المتصور أبي
عامر ايللا وكتب معه بهذه الابيات

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مدلل	
جدواك إن تخصص به فلا هاله	وتعم بالاحسان كل مؤمل
كالغيث طبق فاستوى في وباله	شعت البلاد مع المراد المقبل
الله عونك ما أبرك بالهدى	وأشد وقعك بالضلال المشعل
ما إن رأته عيني وعلمك شاهد	شروي علائك في مع محول
أندى بمقربة كسر حان الغضا	ركضاً وأوغل في منار القسطل
مولاي مؤنس غربي متخطفي	من ظفر أيامي ممنع معلى
عبد نشأت بضبعه وغرسته	في نعمة أهدى اليك بأيل
سميته غرسية وبعثته	في حبله ليتاح فيه تقاوى
فلئن قبلت فلك أسنى نعمة	أسدى بها ذو منحة وتطول
سحبك غادية السرور وجلت	ارجاء ربك بالسحاب المنخل

حققني الله في سابق علمه ان غرسية بن شامجه من ملوك الروم
وكان امنع من التجم أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد
بالايل وسماه غرسية متفائلاً بأسره وهكذا فليكن الجسد للصاحب
والمصحوب وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ خرج

أبو العلاء صاعد هذا من الاندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات بها في قريب من سنة ٤١٠ هـ فم بالغي عن سن عالية ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرتة ما كان مقياً بقرطبة وبلغ من افراط حبه للغزو انه ربما خرج للمصلي يوم العيد فحدث له نية في ذلك فلا يرجع الى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلي كما هو من فوره الى الجهاد فتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً فلا يصل الى أوائل بلاد الروم الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر غزاً في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه (بالمآثر العامرية) واستقصاها كلها باوقاتها وذكر آثاره فيها وفتح فتوحاً كثيرة ووصل الى معاقل قد كانت امتعت على من كان قبله وملاً الاندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم وفي أيامه تعالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور وذلك لرخص اثمان بنات الروم فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة بالغي انه نودي على ابنته عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساوأ أكثر من عشرين ديناراً عامرية وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة وكان كلما انصرف من قتال العدو الى سرادقه فيأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال وان يجمع ويحفظ به فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك ان ينثر على كفته اذا وضع في قبره وكانت وفاته بأقصي تغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة

سلم مبطونا فصحت له الشهادة وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ فكانت مدة
امارته نحواً من سبع وعشرين سنة وكان معافري النسب وأمه تيمية
اسمها برهية بنت يحيى ابن زكريا التيمي كان يعرف بابن برطل
ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف
بالقسطي من قصيدة له

تلاقت عليه من تيم ويعرب شمس تلالا في العلا وبدور
من الجحريين الذين أكفهم سحائبهم بالندي وبحور
أبو عمر هذا من خول شعراء الاندلس والحجيد من منهم ذكره أبو
منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة وقال فيه القسطل عندهم كابي الطيب
بصقع الشام هذا قول أبي منصور أو معناه وكنت أنا في أيام شيبتي
مولعا بشعره كثير الدراسة له فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلا
خلا بيتين هاهنا ارتجل في بعض مجالسه وهما

أجد الكلام اذا نطقت قائما عقل النقي في لفظه المسموع
كلماء يختبر الاناء بصوته فيرى الصحيح به من المصدوع
ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبي عامر هذا ابنه أبو مروان عبد
الملك بن أبي عامر وتلقب بالمظفر فيجري في الغزو والسياسة عن هشام
المؤيد على سنن أبيه وكانت أيامه أعيادا في الخصب والامان دامت سبع
سنين الى ان مات وسارت الفتن بعده ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده
أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر فحافظ وتسمى ولي العهد ولم يزل
مضطرب الامور مدة أربعة أشهر الى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد
الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خات من جمادي الآخر
سنة ٣٩٩ نخلع هشاما المؤيد وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن

أبي عامر فقتل وصلب وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار المقدم ذكره لما قام تلقب بالمهدي وبقي الامر كذلك الى أن قتل * محمد بن هشام ابن عبد الجبار ورد هشام المؤيد الى الامر وذلك يوم الاحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان واتصل ذلك الى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ فدخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها حاشي المدينة وبعض الرض الشرقي وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وكان كما ذكرنا في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له أمر وغلب عليه في هذا الحصار أعني حصار البربر واحد بعد واحد من العبيد بعد محمد ابن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر

﴿ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي﴾

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على هشام بن الحكم في جمادي الآخرة كما تقدم نخلعه وتسمي بالمهدي وكان يكني أبا الوليد أمه أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبيد الله وكان مولد المهدي في سنة ٣٦٦ وقتل وله من العمر سبع وثلاثون سنة ولم يزل والياً الى أن قام عليه يوم الخميس لحس خلون من شوال سنة ٣٩٩ هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر فخاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدي فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان فأتي به الى المهدي فضرب عنقه واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وهو ابن أخي هشام القائم المذكور فنهض بالبربر

الى الثغر واستجاش النصاري وأتى بهم الى باب قرطبة فبرز اليه جماعة
 أهل قرطبة فلم تكن الاساعة حتي قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون
 ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش وهي الوقعة المشهورة
 ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير واستتر
 محمد بن هشام المهدي أياماً ثم لحق بطايطة وكانت الثغور كلها من
 طرطوشة الى الاشبونة باقية على طاعته ودعوته واستجاش بالأفريج
 وأتى بهم الى قرطبة فبرز اليه سليمان بن الحكم مع البربر الي موضع
 يقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعي دار البقر فانهزم سليمان
 والبربر واستولي المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام الى قتال جمهور
 البربر وكانوا قد عاثوا بالجزيرة فالتقوا بموضع يعرف بوادي أره فكانت
 الهزيمة على محمد بن هشام المهدي وانصرف الى قرطبة فوثب عليه العبيد
 مع واضح الصقاي فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد كما تقدم قبل فكانت مدة
 ولاية المهدي منذ قام الى أن قتل * عشرة أشهر من جملتها الستة أشهر
 التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر وانقرض عقبه فلا عقب له

﴿ ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن

الناصر المتلقب بالمستعين بالله ﴾

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة است خلون من شوال سنة ٣٩٩
 وتلقب بالمستعين بالله ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة ٤٠٠
 فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله مضافاً الي المستعين بالله ثم خرج عنها
 في شوال من السنة بعينها فلم يزل يحول بعساكر البربر معه في بلاد

الاندلس يفسد وينهب ويقفر المدائن والقري بالسيف والغارة لا يبقى
البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة الى أن دخل قرطبة في صدر
شوال سنة ٤٠٣ وكان من جملة جنده رجالان من ولد الحسن بن علي
ابن أبي طالب يسميان القاسم وعاليا ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن
علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعلهم قائدین على المغاربة ثم ولي
أحدهما بنة وطنجة وهو علي الاصغر منهما وولي القاسم الجزيرة
الخصراء وبين الموضعين الحجاز المعروف بالزقاق وسعة البحر هنالك
اثنا عشر ميلا وقد ذكر فيما قبل وافترق العبيد اذ دخل البربر مع
سليمان قرطبة فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها فراسلهم علي بن حمود
المذكور وقد حدث له طمع في ولاية الاندلس فكتب اليهم يذكر لهم
أن هشام بن الحكم اذ كان محاصرا بقرطبة كتب اليه يوليه عهده فاستجابوا
له وبابيعوه فزحف من سبتة الي مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائق مولى
فائق مولى الحكم المستنصر فاستجاب له وأدخله مالقة فتملكها على
ابن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر
وجهور العبيد الي قرطبة فخرج اليه محمد بن سليمان في عساكر البربر
فانهزم محمد بن سليمان ودخل قرطبة على ابن حمود وقتل سليمان بن
الحكم صبرا ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧
وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضا في ذلك اليوم وهو شيخ
كبير له اثنتان وسبعون سنة وكانت مدة ولاية سليمان منذ دخل قرطبة
الى ان قتل ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياما وكان قد ملكها قبل ذلك ستة
أشهر على ما تقدم وكانت مدته منذ قام مع البربر الى ان قتل سبعة

أعوام وثلاثة أشهر وأياماً وانقطعت دولة بني أمية في هذا الوقت وذكرهم
على المنابر في جميع أقطار الاندلس الى ان عادت بعد ذلك في الوقت
الذي نذكره ان شاء الله تعالى وكانت ام سليمان هذا أم ولد اسمها
ظبية ومولده سنة ٣٥٤ ترك من الولد ولي عهده محمد أم يعقوب والوليد
ومسلمة وكان سليمان أديباً شاعراً قال الحميدى أنشدني أبو محمد على
ابن أحمد قال أنشدني فتي من ولد اسمعيل ابن اسحاق المنادي الشاعر
كان يكتب لابني جعفر أحمد بن سعيد بن الدب قال أنشدني
أبو جعفر قال أنشدني أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه قال أبو محمد
وأنشدنيها قاسم بن محمد المرواني قال أنشدنيها وليد ابن محمد الكاتب
السليمان الظافر أمير المؤمنين

عجبا يهاب الليث حد سناني	وأهاب لحظ فواتر الاجفان
وأقارع الاهوال لا متهيباً	منها سوي الاعراض والهجران
وتملك نفسي ثلاث كالدماء	زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلام، لحن لناظر	من فوق أغصان على كنبان
هذي الهلال وتلك بذت المشتري	حسنأ وهذي أخت غصن البان
حأكت فيهن السلوى الصبي	فقضي بساطان على ساطان
فأبجن من قلبي الحمى وثنيني	في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى	ذل الهوى عز وملك ثان
ماضر اتي عيدهن صباية	وبنو الزمان وهن من عبداني
ان لم أطع فيهن ساطان الهوى	كلقا بهن فلست من مروان
واذا الكريم أحب أمن الفه	خطب القلي وحوادث السلوان
واذا تجارى في الهوى أهل الهوى	عاش الهوى في غبطة وأمان

وانما قصد المستعين بهذه الابيات معارضة الابيات التي عملها العباس بن
الاحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت اليه وهي

ملك الثلاث الآ نسات عناني وحللن من قاي بكل مكان

مالي تطاو عنى البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني

ماذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من ساطاني

أبو محمد الذي يحدث عنه الحميدى هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد

ابن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد

الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن

عبد مناف القرشي قرئ على نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من

تصانيفه أصل أبائه الادين من قرية من اقليم لبلة من غرب الاندلس

سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر

ووزراء ابنه المظفر بعده وكان هو المدبر لدولتهما وكان ابنه ابو محمد

الفقيه وزيرا لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب

بالمستظهر بالله أخى المهدي المذكور أنفا ثم انه نبذ الوزارة واضطرحها

اختيارا وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فقال من ذلك

ما لم ينل أحد قبله بالاندلس وكان على مذهب الامام أبي عبد الله

الشافعي رحمه الله أقام على ذلك زمانا ثم انتقل الى القول بالظاهر

وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من

أهل الظاهر وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول

الفقه وفروعه على مذهب الهوى الذى يسلكه ومذهبه الذى يتقلده وهو

مذهب داود بن علي بن خلف الاصباني الظاهري ومن قال بقوله من

أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل بلغني عن غير واحد من علماء

الاندلس ان مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والتحل والمثل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب والرد على المخالفين له نحو من أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لاحد ممن كان في مدة الاسلام قبله الا لابي جعفر محمد ابن جرير الطبري فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفا فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير ان قوما من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم الي أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة وهذا لا يتبهاً لمخلوق الا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له ولا أبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرص الشعر وصناعة الخطابة فن شعره

هل الدهر الاماعرفنا وأدركنا	فجائعه تبقي ولذته تفنا
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة	تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
الي تبعات في المعاد وموقف	نود لديه انسا لم نكن كنا
حصاننا على هم واثم وحسرة	وفات الذي كنا نقر به عينا
حينئذ لما ولى وشغل بما أتى	وغم لما يرجي فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه	إذا حققت النفس لفظ بلا معنا

وله من قصيدة طويلة

انا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عيسى أن مطالعي الغرب
ولوا نبي من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرى الهب
ولي نحو كفاف العراق صبابة	ولا غروا ان يستوحش الكلف الصب

فان ينزل الرحمن رحلى بينهم
فكم قائل أغفاته وهو حاضر
فحينئذ يبدو التأسف والكره
هناك يدري ان للبعد قصة
وامنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه

ولكن لي في يوسف خير اسوة
يقول وقال الحق والصدق اني
وليس على من بالني اتسي ذنب
حفيظ عليهم ماعلى صادق عتب
ومن المختار له قوله

لا يشمتن حاسدي ان نكبة عرضت
ذوالفضل كالنير طوراً تحت ميقعة
فالدهر ليس على حال بمترك
وتارة في ذري تاج على ملك
ومن ذلك قوله

لئن أصبحت مرتحلاً بشخص
واكن للعيان لطيف معنى
فروحي عندكم أبداً مقيم
له سأل المعاينة الكليم

ومن أجود ما احفظ له بيتان قالهما في رجل تمام

انتم من المرأة في كل مادري
كان انسايا والزمان تعلمنا
واقطع بين الناس من قضب الهند
نحياله في التقطع بين ذوي الود

وجد بخطه انه ولد يوم الاربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع
الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفي رحمه الله في سانح شعبان
من سنة ٤٥٦ وانما اوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وان
كانت قاطعة للنسق مزينة عن بعض الغرض لانه أشهر علماء الاندلس
اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك
لخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله
عندنا أحد ممن علمت وقد كثراهل مذهبهم واتباعه عندنا بالاندلس اليوم

❦ ولاية علي بن حمود الناصر ❦

ثم ولي علي بن حمود على ما تقدم وتسمي بالخلافة وتلقب بالناصر
ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا يابغونه وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن
عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى وزحفوا به الى
أغرة ناطة وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر ثم ندموا على تقديمه لما رأوا
من صرامته وحدة نفسه وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته فانهمزوا
عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفي أمره وبقي علي بن حمود بقرطبة
مستمر الامر عامين غير شهرين الى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة
٤٠٨ وكان له من الولد يحيى وادريس

❦ ولاية القاسم بن حمود المأمون ❦

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة أعوام
وكان وادعاً أمن الناس معه وكان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر
ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا وكذلك سائر من ولي منهم
بالاندلس فبقي القاسم كذلك الى شهر ربيع الاول سنة ٤١٢ فقام عليه
ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلاقتال
وصار بأشبيلية وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل
قرطبة بلاقتال وتسمي بالخلافة وتلقب بالمعتلى فبقي كذلك الى أن اجتمع
للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم الى قرطبة فدخلها سنة ٤١٣
وهرب يحيى بن علي الى مالقة فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره
وغلب بن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي كانت
معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره وغلب ابن أخيه الثاني ادريس

ابن علي صاحب سبقة على طنجة وهي كانت عدة القاسم يلجأوا اليها ان رأوا ما يخافه بالاندلس وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة وغلقوا أبوابها دونهم وحاصروهم نيفا وخمسين يوما وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة يعرف بمسجد بن ابي عثمان أثره باق الى اليوم ثم ان أهل قرطبة زحفوا الى البربر فأنهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الارباض كلها في شعبان سنة ٤١٤ ولحق كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه وقصد القاسم أشبيلية وبها كان ابنه محمد والحسن فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة وبجيشه اليهم طردوا ابنه ومن كان معهما من البربر وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل ابن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الالهاني ومحمد بن الحسن الزبيدي ومكنوا كذلك أياما مشتركين في سياسة البلد وتديره ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد بالامر والتدبير وصار الآخرون من جملة الناس ولحق القاسم بشرش واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى فزحفوا الى القاسم فتحصروه حتى صار في قبضه ابن أخيه وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر وبقي القاسم أسيراً عنده وعند أخيه ادريس بعده الى ان مات ادريس فقتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ وحمل الى ابنه محمد ابن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك فكانت ولاية القاسم منذ تسمي بالخلافة بقرطبة الى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابني أخيه يحيى وادريس الى أن قتل كما ذكرنا في أول سنة ٤٣١ ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن أمهما أميرة بنت الحسن بن قتون بن ابراهيم بن محمد ابن القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن

❦ ولاية يحيى بن علي المعتلى ❦

اختلف في كنيته ف قيل أبو القاسم وقيل أبو محمد وأمه لبونة بنت محمد ابن الحسن ابن القاسم المعروف بكنون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان الحسن بن كنون من كبار ملوك الحسينيين وشجعانهم ومردتهم وطفاتهم المشهورين ف قسمني يحيى بالخلافه بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ثم هرب عنها الى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ثم سعي قوم من المفسدين في رد دعوته الى قرطبة في سنة ١٦ قتم لهم الامل الا انه تأخر عن دخولها باختياره واستخلف عليها عبد الرحمن ابن عطف اليفرني فبقى الامر كذلك الى سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر وسلموا اليه الحصون والقللاع والمدن وعظم أمره بقرمونة فصار محاصرا لاشبيلية طامعاً في أخذها فخرج يوماً وهو سكران الى خيل ظهرت من أشبيلية بقرمونة فلقبها وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من ان قتلوه وذلك يوم الاحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ وكان له من الولد الحسن وادريس لامي ولد

❦ ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر ❦

ولما انهزم البرابر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا اتفق رأي أهل قرطبة على رد الامر الي بني أمية فاختاروا منهم ثلاثة وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن التاصر أخو المهدي المذكور أنفأً وسليمان بن المرتضى المذكور أنفأً ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام

ابن سليمان القائم على المهدي بن الناصر ثم استقر الامر لعبد الرحمن
ابن هشام بن عبد الجبار فبويغ بالخلافة ثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان
سنة ٤١٤ وله اثنان وعشرون سنة وتلقب بالمستظهر وكان مولده سنة
٣٩٢ في ذي القعدة يكنى أبا المطرف وأمه أم ولد اسمها غاية ثم قام عليه
أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر
مع طائفة من أراذل العوام فقتل عبد الرحمن ابن هشام وذلك لثلاث بقين
من ذي القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ولا عقب له وكان في غاية الادب والبلاغة
والفهم ورقة النفس كذا قال أبو محمد علي بن أحمد وكان خبيراً به لانه
وزر له وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد كان المستظهر
شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد وهو القائل في ابنة عمه

حماة بيت العيشمين رفرفت فطرت اليها من سراتهم صقراً
نقل الزيا أن تكون لها يداً ويرجو الصباح أن يكون لها نحرأ
واني لطعان اذا الخيل أقبلت جوانبها حتي تري جونها شقراً
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفري عند سائله وفراً
وهي طويلة قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين
قال أبو عامر وكان متهماً في أشعاره ورسائله حتي كتب أبياتاً ليعلي بن
أبي زيد حين وفد عليه ارنجبالا فعجب أهل التمييز منه وأما أنا فقد كنت
بلوته وكان ورود يعلي ثجاة ولم يبرح من مجلسه حتي ارنجبالا الامان وانا
والله اخاف ان يزل فأجاد وزاد هذا آخر كلام أبي عامر

﴿ ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكني بالله ﴾

ولي محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر

لأن مولده في سنة ٣٦٦ وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها حوراء وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر في أول دولة هشام المؤيد السعبي في القيام وطالبه للأمر وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ووزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته فقل في دولة يديرها حائك ولم يزل كذلك إلى أن خلع وقتل وزيره المذكور في داره دخل عليه عوام أهل قرطبة نهائراً فتولوه بالحديد إلى أن برد وخلصوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ثم نفوه كما ذكرنا فلحق بالثغور ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الفاطمي وانتهى المستكفي المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بسمت بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قواده وهو عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر فكره هذا القائد التماذي معه فاستدعى المستكفي غداه فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعصارة نبت يقال له البيش وهو كثير بيلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة فلما أكلها المستكفي مات مكانه فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه فقبه هناك ولا عقب له ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر إلا أنه لم يدخل قرطبة وإنما كان مقبلاً بمونة كما قدمنا إلى أن قتل في التاريخ الذي تقدم ذكره

﴿ولاية هشام المعتد بالله﴾

ولما انقطعت دعوة يحيى بن علي الفاطمي عن قرطبة في التاريخ

الذي ذكرنا أجمع رأي أهل قرطبة على رد الامر الى بني أمية وكان
عميدهم في ذلك والذي تولى معظمه وسعي في تمامه الوزير أبو الحزم
جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن العنبر بن يحيى بن
عبد الغافر بن أبي عبدة وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة
ويحب في الفتنة بقرطبة فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل
الثغور والمتغلبين هنالك على الامور وداخلهم في هذا الامر فاتفقوا
بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن
عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً وكان هشام هذا
مقيماً بحصن يدعي البنت من الثغور عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله
بن قاسم القائد المتغلب بها فبايعوه في شهر ربيع الاول سنة ٤١٨
وتلقب بالعتد بالله وكان مولده في سنة ٣٦٤ وكان أسن من أخيه
المرتضى بأربعة أعوام وسنه يوم بويع له أربع وخمسون سنة أمه أم
ولد اسمها عاتب فبقى ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع
ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد
الى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على ان يسير الى قرطبة فصبه الملك
فسار اليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠ فلم يبق بها الا
يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلع وجرت أمور يطول
شرحها من جماتها اخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء
حاسرات عن أوجهن حافية أقدامهن الى أن أدخلوا الجامع الاعظم
على هيئة السبايا فاقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم بالطعام والشراب الى
ان أخرجوا عن قرطبة ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقال
بقرطبة فلم يزل يجول في الثغور الى ان لحق بابن هود المتغلب على

مدينة لاردة وسرقسطة وإفراغة وطرطوشة وما إلى تلك الجهات فقام عنده هشام إلى أن مات في سنة ٤٢٧ ولا عقب له فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالاندلس نسبه هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الاندلس والدعوة إلى الآن فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالاندلس على شرط التناخيص

﴿ ذكر أخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة الاموية عنها ﴾

ومن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالاندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للامارة ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ويكنى أبا الحزم وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان أباه وزراء الدولة الحكيمة والعامة وهو موصوف بالدهاء وبعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك كان يتصاون عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادي من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولي أمرها واضطلع بحمايتها ولم ينتقل إلى رتبة الامارة ظاهراً جرياً على ما قدمنا من اظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء

من يتفق الناس على امارته فيسلم اليه ذلك ورتب البوايين والحشم على
 تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره لها وجعل
 ما يرتفع من الاموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف
 عليهم وصير أهل الاسواق جندا له وجعل ارزاقهم رؤس أموال تكون
 بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤس الاموال باقية محفوظة
 يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح
 عليهم وأمرهم بتفرقه في الدكاكين والبيوت حتى اذا دهمهم أمر في ليل
 أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه وكان أبو
 الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين وهو
 مع ذلك يدبر الامور تدبير الملوك المتغلبين وكان آمنا وادعا وقرطبة في
 أيامه حراما يأمن فيه كل خائف واستمر امره على ذلك الى أن مات
 في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى الى أن مات
 أربع عشرة سنة وأشهر أتم ولي ما كان يتولي من أمر قرطبة بعده
 ابنه أبو الوليد محمد بن جمهور خفي في السياسة وحسن التدبير على
 سنين أبيه غير محل بشيء من ذلك الى ان مات أبو الوليد المذكور في
 سلخ شوال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت الامير الملقب
 بالمأمون ابن ذي النون صاحب طابطة فدبرها مدة بسيرة الى أن
 مات وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة اظن اسمه
 موسى فكان بها الى ان غلبه عليها وأخرجه منها الامير الظافر بجول
 الله أبو القسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى فهذا
 آخر اخبار قرطبة وكونها داراً للملك وبعد غلبة المعتمد عليها
 صارت تبعاً لاشيانية

فصل وأما أحوال الحسين فانه لما قتل يحيى بن علي كما ذكرنا
السبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ رجع أبو جعفر أحمد بن موسى
المعروف بابن بقتة ونجا الخادم الصفائي وهما مدبرا دولة الحسين فأتيا
مالقة وهي دار مملكتهم فخطبا أخاه ادريس بن علي وكان بسبته وكان
يملك معها طنجة واستدعياه فأتى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل
حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبته ولم يبايعا واحداً من أبنى يحيى وهما
ادريس وحسن لصغرهما فأجابهما الى ذلك ونهض نجاع حسن هذا
الى سبته وطنجة وكان حسن أصغر ابني يحيى ولكنه اسدّهما رأيا
وتلقب ادريس بالمتأيد فبقي كذلك الى سنة ٣٠ أو ٣١ فتحرّكت فتنة
وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد صاحب اشبيلية
أمل في التغلب على تلك البلاد فأخرج ابنه اسمعيل في عسكر مع من أجاهه
من قبائل البربر ونهض الي قرمونة فحاصرها ثم نهض الي حصن يدعي اشونة
وحصن آخر يدعي استجة فاخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله رجل
من قواد البربر من بني برزال فاستصرخ محمد بن عبد الله ادريس بن
علي الحسيني وقبائل صنهاجة فامده صاحب صنهاجة بنفسه وأمدّه ادريس
بعسكر يقوده ابن بقتة أحمد بن موسى مدبر دولته فاجتمعوا مع محمد بن
عبد الله ثم غلبت عليهم هبة اسمعيل بن محمد بن اسمعيل بن عباد قائد
عسكر أبيه القاضي أبي القاسم فافترقوا وانصرف كل واحد منهم الي
بلده فبلغ ذلك اسمعيل بن محمد فقوى أمله ونهض بعسكره قاصداً طريق
صاحب صنهاجة وقدر صاحب صنهاجة انه سيأخذه فوجه الي ابن بقتة
يسترّجه وانما كان فارقه قبل ذلك بساعة فرجع اليه والتقت
العهساكر فما كان الا ان تراءى الجمعان فولي عسكر ابن عباد منهزما

واسمعوا اسمعيل فكان اول مقتول وحمل راسه الي ادريس بن علي
الحسنى وقد كان ادريس استشعر بالهلاك فنزل عن ماله الي جبل ياشتر وهو
الذي قام فيه ابن حفصون المتقدم المذكور فتحصن به وهو مريض مدتف فلم
يعش الا يومين ومات وترك من الولد يحيى قتل بعده ومحمداً الملقب بالمهدى
وحسناً الملقب بالسامي وكان له ابن هو أكبر بنه اسمه علي مات في حياة أبيه
وترك ابناً اسمه عبد الله أخرجه عمه ونقام لما ولي وقد كان يحيى بن علي
المذكور قبل قد اعتقل ابني عمه محمداً والحسن ابني القاسم بن حمود
بالجزيرة وكان الموكل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبي الحجاج فحين
وصل اليه خبر قتل يحيى جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان
وأخرج محمداً والحسن وقال هذان سيداكم فسارع أجمعهم الي الطاعة
لهما لشدة ميل أبيهما الي السودان قديماً وإيثاره لهم وانفرد محمد بالامر
دون الحسن وملك الجزيرة الا أنه لم يتسم بالخلافة وبقي معه أخوه
الحسن مدة الي أن حدث له رأي في النّسك فلبس الصوف وتبرأ عن
الدنيا وخرج الي الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم زوجة يحيى بن علي
المعتل فلما مات ادريس كما تقدم رام ابن بقة احمد بن موسى ضبط
الأمر لولده يحيى بن ادريس المعروف بجيين ثم لم يجسر على ذلك الجسر
الثام وتخبر وتردد ولما وصل خبر قتل اسمعيل بن عباد وموت ادريس
ابن علي الي نجا الخادم الصقابي وكان بسبته استخلف عايبها من وثق
به من الصقابة وركب البحر هو وحسن بن يحيى الي مالقة ليرتب الامر
له فلما وصل الي مرسي مالقة خارت قوي ابن بقة وهرب الي حصن
كارش على ثمانية عشر ميلاً من مالقة ودخل حسن ونجا مالقة واجتمع
اليهما من بها من البربر فبايعوا حسن بن يحيى بالخلافة وأسمى المستعلى

ثم خاطب ابن بقة وآمنه فلما رجع اليه قبض عليه وقتله وقتل ابن عمه
يحيى بن ادريس ورجع نجبا الى سبتة وطنجة وترك مع الحسن رجلا
كان من التجار يعرف بالسطيني كان نجبا كثير الثقة به فبقى الأمر كذلك
نحو من عامين وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة عمه ادريس ف قيل انها
سمته أسفا على أخيها فلما مات احتاط الصطيني على الأمر واعتقل
ادريس بن يحيى وكتب الى نجبا بالخبر وكان حسن بن صغير عند نجبا
فقيل انه اغتاله أيضا فقتله والله أعلم ولم يعقب حسن بن يحيى فاستخلف
نجبا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر اليه
وركب البحر الى مالقة فلما وصل اليها زاد في الاحتياط على ادريس بن يحيى
وأكد اعتقاله وعزم على محو أمر الحسينيين جملة وأن يضبط تلك
البلاد لنفسه فدعا البربر الذين كانوا جند البلد وكشف الأمر اليهم
علانية ووعدهم بالاحسان فلم يجدوا مساعده بدأ فوافقوه في الظاهر
وعظم ذلك في أنفسهم باطناً ثم جمع عسكره ونهض الى الجزيرة ليستأصل
محمد بن القاسم فخاربه أياماً ثم أحس بفتور نيات الذين معه فرأى أن
يرجع الى مالقة فاذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصاح
سائرهم واستدعى الصقالبة من حيث ما أمكنه ليقوي بهم على غيرهم
وأحسن البربر بهذا منه فاعتالوه في الطريق من قبل أن يصل الى مالقة
فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه وقد تقدمه اليه الذي أراد
الفتك به وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ثم تقدم فارسان من
الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة فدخلا وهما يقولان للبشري
البشري فلما وصلا الى السطيني وضع سيفيهما عليه فقتلاه ثم وافي العسكر
فاستخرجوا ادريس بن يحيى من محبسه فقدموه وباعوه بالخلافة وتسمي

بالعالي فظهرت منه أمور متناقضة منها أنه كان أرحم الناس قلباً كثير
 الصدقات يتصدق كل يوم بخمسة مائة ورد كل مطرود عن وطنه إليه ورد
 عليهم ضياعهم وأملاهم ولم يسمع بغياً في أحد من الرعية وكان أديب
 اللقاء حسن المجلس يقول من الشعر الأبيات الحسان ومع هذا فكان
 لا يصحب ولا يؤثر إلا كل ساقط رذل ولا يحجب حرمة عنهم وكل من
 طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن
 أعطاه إياه وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب
 أبيه وجده موسى بن عفان السبتي فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه
 يطالبه منه وأنه لا بد من تسليمه إليه قال له موسى بن عفان أفعلم ما تؤمر
 ستجدني إن شاء الله من الصابرين فبعث به إلى الصنهاجي فقتله وكان قد
 اعتقل ابنه عمه محمداً وحسناً ابني ادريس بن علي في حسن إرش فلما
 رأى ثقته الذي في الحصن اضطراب أراه خالف عليه وقدم ابن عمه
 محمد بن ادريس فلما بلغ ذلك السودان المرتين في قبضة ماله نادوا بدعوة
 ابن عمه محمد بن ادريس وراسلوه بالبحري اليهم وامتنعوا بالقصة واجتمعت
 العامة إلى ادريس بن يحيى واستأذنوه في حرب القصة والدفاع عنه ولو
 أذن لهم ما ثبت السودان فواق ناقة فأثنى فقال لهم الزموا منازلكم ودعوني
 ففرقوا عنه وجاء بن عمه فلم عليه وبويع بالخلافة وتسمي بالمهدي وولي
 أخاه عهده وسماه السامي واعتقل ابن عمه ادريس بن يحيى في الحصن
 الذي كان هو معتقلا فيه وظهرت من محمد بن ادريس هذا شهامة وجراءة
 شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وراسلوا المرتب في الحصن الذي
 فيه ادريس بن يحيى هذا واستألوهم فأجابهم وقام بدعوة ادريس وقد كان
 ادريس أول ولايته بعد قتل نجا كما تقدم قد ولي سبته وطنجة رجلاين

من برغواطة قبيلة من قبائل البربر من عبيد أبيه اسم أحدها رزق الله
والآخر سكات فلما خلع ادريس كما تقدم بقيا حافظين لمكانيهما فلما
قام كما ذكرنا بدعوته صاحب حصن أيرش لم يظهر محمد بمبالاة بذلك
بل ثبت نباتاً شديداً وكانت والدته تشجعه وتقوي منته وتشرى على
الحرب بنفسها فتحسن الى من أبلى فلما رأي البربر شدة عزمه ونباته
فت ذلك في أعضادهم ونخلوا عن ادريس بن يحيى ورأوا أن يبعثوا به
الى سبتة وطنجة الى البرغواطيين اللذين ذكرنا وقد كان ادريس جعل
ابنه عندهما في حضانتهم فلما وصل اليهما أظهرتا عظيمه ومخاطبته بالخلافة
الا أنهما حجباه حجاباً شديداً ولم يدع أحداً من الناس يصل اليه فتلقف
قوم من أكابر البربر حتى وصلوا اليه وقالوا له ان هذين العبدین قد
غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك فأذن لنا نكشفكهما فأبى ثم أخبرهما
بذلك فنفيا أولئك القوم وأخرجوا ادريس بن يحيى وبعثاه الى الاندلس
وتسكا بولده لصغره الا أنهما في كل ذلك يخطبان لادريس بالخلافة ثم
ان محمد بن ادريس أنكر من أخيه الملقب بالسامي أمرا فنفاه الى العدو
فصار في جبال غمارة وهي بلاد تنقاد لهؤلاء الحسينيين وأهلها يعظمونهم
تعظيما مفرطاً ثم ان البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم الكائن بالجزيرة الخضراء
واجتمعوا اليه ووعده بالنصر فاستفزه الطمع وخرج اليهم فبايعوه بالخلافة
وتسمي بالمهدى وصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة أربعة كلهم
يتسمي بأمر المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسجاً في
مثلها فأقاموا معه أياماً ثم افرقوا عنه الى بلادهم ورجع محمد خاسئاً الى
الجزيرة ومات لايام قليل أنه مات غموراً ترك نحواً من ثمانية ذكور فتولى
أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه لم يتسم بالخلافة وبقي

محمد بن ادريس بمالقة الي أن مات سنة ٤٤٥ وكان ادريس بن يحيى المعروف بالعالى عند بنى يفرن بتا كرونه فلما توفي محمد بن ادريس بن يحيى ردت العامة ادريس العالى الى مالقة واستولي عليها وهو آخر من ملكها من الحسينيين فلما مات أجمع البربر رأيهم على نفي الحسينيين عن الأندلس الي العدو والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ففعلوا ذلك وتم لهم ما أرادوا منه فكانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى الي تا كرونه ومالقة وما والاها أيضاً الي حصن منكب واغرناطة وأعمالها في ملك البربر وملكوا مع ذلك بعض أعمال اشبيلية كحصن اشونة وقرمونة وشلبير ولم يزلوا كذلك الي أن خرج من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال اشبيلية المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد ابن اسمعيل بن عباد اللخمي ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك وهذا آخر أخبار الحسينيين وما يتعلق بها حسب ما أورده أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدى عليه عولت في أكثر ذلك ومن كتابه نقلت خلا مواضع تبينت غاطه فيها أصلحتها جهده ما أقدر وعلى الله قصد السبيل وهو المسؤول في الهداية قولاً وعملاً

﴿فصل يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع

الدعوة الاموية أعنيها على الاجمال لا على التفصيل﴾

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية فإن أهلها تفرقوا ورقاً وتغلب في كل جهة منها تغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه تقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون

وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل الي غير
 ذلك من الالقاب الخلافية وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق
 بما يزهدي في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
 القاب مملكة في غير موضعها كاهري يحيى انتفاخا صولة الاسد
 وأنا ذاكر ان شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا عليها
 على نحو ما شرطت من الاجمال اذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت
 القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص الي حيز الاسهاب وأيضا
 فالذي منعي عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما صحبني من
 الكتب واختلال معظم محفوظاتي فأولهم في الريع الجنوبي رجل اسمه
 سليمان بن هود تلقب بالموثمن وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابن ابنه
 بالمستعين كانوا بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الجنوبية طرطوشة
 وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفرغة ولاردة وقلعة أيوب هذه اليوم كلها
 بأيدي الافرنج يملكها صاحب برشونة لعنه الله وهي البلاد التي تسمى أرغن
 حد هذا الاسم آخر مملكة البرشونوني مما يلي بلاد أفرنسة وتجاور بني
 هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان
 قديم الرياسة هو أحق ملوك الاندلس بالتقدم لشرف بيته لأعلم له لقباً
 كان يملك بالنسبة وأعمالها وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان
 ابن رزين كان يملك الي أول أعمال طليطلة وكان الذي يملك طليطلة
 وأعمالها الأمير أبو الحسن يحيى بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن اسمعيل
 ابن عامر بن مطرف بن موسي بن ذي النون وأبو الحسن هذا أقدم
 ملوك الاندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم تلقب بالمأمون كان
 أبوه اسمعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول

الفتنة ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا إلى أن
 أخرجها عنها الادقش لعنه الله واستولى عليها النصاري في شهر سنة ٣٧٦
 فهي قاعدة ملك النصاري إلى وقتنا هذا وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى
 أول الثغر جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه إلى أن غلبه
 عليها صاحب طليطلة اسمعيل ابن ذي النون والد أبي الحسن المذكور
 آنفاً وكان يملك أشبيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن
 عباد اللخمي تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمد
 والحسن على ماسيا في الأيماء إليه إن شاء الله عز وجل وكان يملك مالقة
 والجزيرة وأغرناطة وما إلى ذلك البربر بنو برزال الصنهاجيون على
 ما قدمناه وتغلب على المرية وأعمالها زهير العامري الخادم ثم ملكها
 بعده خيران العامري أيضاً الخادم ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد
 ابن معن بن صبادح المتلقب بالمعتصم فلم يزل فيها إلى أن أخرجها عنها
 يوسف بن تاشفين الممتوني في شهر سنة ٤٨٤ وكان يملك دانية وأعمالها
 مجاهد العامري أصله رومي مولى لابي عامر محمد بن أبي عامر ثم ملكها
 بعده ابنه علي بن مجاهد وتلقب بالموفق لأعلم في المتغلبين على جهات
 الاندلس أصول من نفسا ولا أظهر عرضا ولا أبقى ساحة كان لا يشرب
 الخمر ولا يقرب من يشربها وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها
 توفي قبل فتنة المرابطين يسير لا تحقق تاريخ وفاته وكان يملك الثغر
 الذي من الجهة الشمالية من الاندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم
 ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ذهب عنى اسمه ثم كان له ابن اسمه عمر
 يكنى أبا محمد تلقب بالمتوكل على الله كان يملك بطايوس وأعمالها وبابرة
 وشترين والأشبونة كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب

خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ
 انخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات
 للروحي وعيون الاخبار لابني محمد بن قتيبة جاء هذا الكتاب في نحو
 من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ترجمته المظفرى وكان لابنه
 المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية
 تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء واتصلت مملكته الى أن
 قتله المرباطون أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه الفضل والعباس
 صبراً ضربوا أعناقهم في غرة سنة ٤٨٥ وكانت أيام بني المظفر بتغرب
 الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم
 قصائد شادت ما زهرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم وفيهم يقول
 الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون
 من أهل مدينة يابرة قصيدته الغراء لابل عقباته العذراء ، التي أذرت
 على الشعر وزادت على السحر ، وفعلت في الألباب فعل الحمر . فجلت
 عن أن تساما . وأنفت من أن تضاهها . فقل لها النظير . وكثر اليها
 المشير . وتساوي في تفضيها وتقديمها بأقل وجري . فقلله هي من عقيلة
 خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت . وبعدت حتى عزت فامتنعت .
 أوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي
 رسمته . مخجل بالتأخيص الذي شرطته لصحة مبانيها . ورشاقة ألفاظها
 وجودة معانيها . سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق اليها .
 وورد شريعة لم ير احم عاينها . فلذلك قل مثاها لابل عدم . وعز نظيرها
 ما توهم ولا علم . وهي

الدهر ينفج بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

أهناك أنهارك لا آلودك موعظة
فالدهر حرب وأن أبدي مسالمة
ولا هوادة بين الرأس تأخذه
فلا تغرنك من دنياك نومتها
ما للبالى أقال الله عثرتها
في كل حين لها في كل جارية
تسر بالشيء لكن كي تغربه
كم دولة وليت بالنصر خدمتها
هوت بداراً وقات غرب قاتله
واسترجعت من بني ساسان ما وديت
وألحقت أختها طسما وعاد على
وما أقالت ذوي الهيات من يمن
ومزقت سباً في كل قاصية
وأفدت في كليب حكمها ورمت
ولم ترد على الضاييل صحته
ودوخت آل ذبيان وأخوتهم
وألحقت بعدي بالعراق على
وأهلك أبرويزا بابنه ورمت
وبلغت يزدرجدا الصين واخترلت
ولم ترد مواضي رسمة وقتنا
يوم القايب بنو بدر فنوا وهي
ومزقت جعفرأ بالبيض واختلاست

عن نومة بين ناب الليث والظفر
والبيض والسود مثل البيض والسمر
يد الضراب وبين الصارم الذكر
فما صناعة عينها سوي السهر
من الليالي وخاتها يد الغير
منا جراح وان زاعت عن النظر
كالأيم نار إلى الجاني من الزهر
لم تبق منها و سل ذكر الك من خبر
وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
ولم تدع لبني يونان من أثر
عاد وجرحهم منها ناقص المزار
رلاً أجارت ذوي الغايات من مضر
فما التقى رائح منهم بمبتكر
مهلهلابين سمع الأرض والبصر
ولانت أسداً عن ربها حجر
عبساً وغضت بني بدر على النهر
يد ابنه أحمر العينين والشعر
يزدجرد إلى مرو فلم يحجر
عنه سوي الفرس جمع الترك والخزر
ذي حاجب شمسعداً في أبنه الغير
قايب بدر بمن فيه إلى سقر
من غيلة حمزة الظلام للجزر

وأشرفت بخبيب فوق فارعة
وخصبت شيب عثان دما وخطت
ولا رعت لأبي اليقظان صحبته
وأجزرت سيف أشقاها بأحسن
وليها اذ فسدت عمراً بخارجة
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن
فبعضنا قائل ما غتاله أحد
وأردت ابن زياد بالحسين فلم
وعمت بالظلي فودي أبي أنس
وأزلت مصعباً من رأس شاهقة
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا
وأعمت في لطيم الجن حيلتها
ولم تدع لأبي الذبان قاضيه
وأحرق شلو زيد بعد ما احترقت
وأظفرت بالوايد بن يزيد ولم
حباية حب رمان أتيح لها
ولم تعد قطب السفاح نائبة
وأسهلت دمة الروح الأمين على
وأشرقت جعفر أو الفضل ينظره
وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت
وما وفيت بعهود المتسمين ولا
وأوقفت في عراها كل معتمد

وأصقت طلحة الفياض بالعفر
إلى الزبير ولم تستحي من عمر
ولم تزوده إلا الضيغ في الغمر
وأمكنك من حسين راحتي شمر
فدت علياً بمن شاءت من البشر
أنت بمعضلة الألباب والفكر
وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
يبؤ بشع له قد طاح أو ظفر
ولم ترد الردى عنه قنا زفر
كانت بها مهجة المختار في وزر
راعت عيادته بالبيت والحجر
واستوسقت لأبي الذبان ذي البخر
ليس اللعيم لها عمرو بمنصر
عليه وجداً قلوب الآي والسور
تبقى الخلافة بين الكأس والوتر
وأحمد قطرته نفحة القطر
عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
دم بفتح لآل المصطفى هدر
والشيخ يحيى ريق الصارم الذكر
لجعفر بابنه والاعبد الغدر
بماتاً كد للمعز من مرر
وأشرقت بقذاها كل مقتدر

وروعت كل مأمون ومؤمن
وأعترت آل عباد لعا لهم
بني المظفر والأيام لانزلت
سحقا يومكم يوما ولا حملت
من الأسيرة أو من الأئنة أو
من اللطبي وعو إلى الخط قد عقدت
وطرقت بالندايا السود بيضهم
من للبراعة أو من للبراعة أو
أو دفع كارثة أو ردع رادفة
وب السباح ووب البأس لو ساعا
سقت تري الفضل والعباس هامية
ثلاثة ما رأي السعدان مثاهم
ثلاثة ما ارتقي النسران حيث رقوا
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا
ومر من كل شيء فيه أطيبه
أين الجلال الذي غضت مهابته
أين الآباء الذي أرسوا قواعده
أين الوفاء الذي أصفو شرائعه
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا
كانوا مصابيحها قد خبوا عثرت
كانوا شجي الدهر فاستهوتهم خدع
ويل امه من طلوب الثار مدركه

وأسلمت كل منصور ومنتصر
بدليل زباء لم تنفر من الذعر
مراحل والوري منها على سفر
بمسه ليلة في غابر العمر
من للأئنة يهديها إلى الثغر
أطراف ألسنها بالحي والحصر
فأنجب بذاك وما منها سوى الذكر
من للسماحة أو للنفع والضرر
أو وقع حادثة تعي على القدر
وحسرة الدين والدنيا على عمر
تعزى اليهم سماحا لا إلى المطر
وأخبر ولو عزز في الحوت بالقمر
وكل ماطر من نسر ولم يطر
عنى مضى الدهر لم يربع ولم يحجر
حتى التمتع بالأصال والبكر
قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
على دعائم من عز ومن ظفر
فلم يرد أحد منها على كدر
عنها استطارت بمن فيها ولم تفر
هذى الخليفة يا الله في صدر
منه بأحلام عاد في خطي الحضر
منهم بأسد سراق في الوغي صبر

من لي ولا من بهم ان أطاعت نوب
 من لي ولا من بهم ان عطالت سنن
 من لي ولا من بهم ان طبقت محن
 على الفضائل الا الصبر بعدهم
 يرجو عسي وله في أحبتها أمل
 قرطت آذان من فيها بفاضحة
 سيارة في أقاصي الارض قاطعة
 مطاعة الأمر في الالباب قاضية
 وكان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه وهو أحد
 كتاب المغرب ومن جمع منهم فضيات الكتابة والشعر على انه مقلد
 من النظم لم يثبت له منه الا يسير بالنسبة الى غزارة آدابه ونباهة قدره
 وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما
 وصفناه به حكى عن نفسه رحمه الله انه كان بين يدي مؤدبه وسنه اذ ذاك
 ثلاث عشرة سنة فعن المؤدب ان قال

* الشعر خبطة خسف * وجعل يردد هذا القول قال الوزير أبو محمد
 رحمه الله فكتبت في لوجي مجيزاً له * لكل طالب عرف *
 ثم خطر لي بيت ثان وهو

للشيخ عيبة عيب وللفتي ظرف ظرف

قال فنظر الى المؤدب وقال يا عبد المجيد ما الذي تكتب فاريتك اللوح فلما
 رآه لطفتني وعرك أذني وقال لا تشتغل بهذا وكتب اليتيم عنده
 ومن غزارة حفظه رحمه الله ما حدث الوزير الاجل أبو بكر محمد بن
 وزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر

وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية نيف على الثمانين قال بينا أنا
 قاعد في دهايز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب
 الاغانى خفاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له أين الاصل الذى
 كتبت منه لأقابل معك به قال ما أتيت به معى فيينا أنا معه فى ذلك
 أن دخل الدهايز علينا رجل بذهاب عايشه نيا ب غليظة أكرها
 صوف وعلى رأسه عمامة قد لانها من غير اتقان لها خسيته لما رأيته
 من بعض أهل البادية فلم وقعد وقال لي يابنى استاذن لى على الوزير
 أبى مروان فقلت له هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف
 حانى على ذلك نزوة الصبي وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ثم
 سكت عنى ساعة وقال ما هذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له ما سؤلك
 عنه فقال أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف أسماء الكتب فقلت
 هو كتاب الاغانى فقال الى أين باع الكاتب منه قلت باع موضع كذا
 وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قلبه فقال
 وما لكاتبك لا يكتب قلت طلبت منه الاصل الذى يكتب منه لا عارض
 به هذه الاوراق فقال لم أحجى به معى فقال يابنى خذ كراريسك وعارض
 قلت بما ذا وأين الاصل قال كنت احفظ هذا الكتاب فى مدة صباهي
 قال فتبسعت من قوله فلما رأى تسمى قال يا بنى أمسك على قال فأمسكت
 عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واوآ ولا فاء قرأ هكذا نحواً من
 كراسين ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك
 كله سواء فاشتد عجبى وقت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر
 ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفاً برداء ليس عليه
 قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وانا بين

يديه وهو يوسعي لوما حتي ترامي على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يا مولاي أعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف الا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول ما عرفني وأبي يقول هبه ما عرفك فما عذره في حسن الادب ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلا ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافيا حتي بلغ الباب وأمر بدابته التي ركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لأبي من هذا الرجل الذي عظمت هذا التعظيم قال لي اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الاغانى وما حفظه في ذكاه خاطره وجودة قريحته سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد عن مرا كشر لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة ٥٩٥ وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه بعد أن سألني عن اسمي وعن نسي فتسميت وانتسبت وتسمى لي هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء تواضعا منه وشرف نفس وتهذيب خلق قدس الله روحه وسامحه

لاح المشيب على رأسي فقلت له الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا
يا ساقى الكاس لا تعدل الي بها فقد هجرت الحميا والحميم معا
وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني

اني نظرت الي المرأة اذ جلبت فأنكرت مقلتاى كلما رأنا
رأيت فيها شيخا لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذلك فتأ
هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه رحمه الله وله شعر كثير أجاد في أكثره

وأما الموشحات خاصة فهو الامام المتقدم فيها وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها هو آخر المجيدين في صناعتها ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الاندلس فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الاندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر فلم يذكر خائفة أموي ولا دهاشي بقطر من أقطار الاندلس خلا أيام سيرة دعي فيها لهشام المؤيد ابن الحكم المستنصر بمدينة اشبيلية وأعمالها حسب ما اقتضته الحياة واضطر اليه التدبير ثم انقطع ذلك حسب ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى فاشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا ولم يزلوا كذلك وأحوال الاندلس تضعف وتغورها تحتل ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم إلى أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل وحسم الخلاف وأعز الدين وأعلى كلمة الاسلام وقطع طمع العدو بين نقيصة أمير المؤمنين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللهم توفني رحمه الله ثم استمر على ذلك ابنه علي وأعاد إلى الاندلس معهود أمنها وسالف تضارة عيشها فكانت الاندلس في أيامهما حرماً آمناً وأول دعاء دعي للخلافة العباسية أبقاها الله على منابر الاندلس في أيامهما ولم تزل الدعوة العباسية وذكري خلفائها على منابر الاندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس على ما يأتي بيانه ان شاء الله عز وجل

(فصل) واذا ذكرنا أحوال ملوك الاندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الاجمال فلنرجع الى ذكر مملكة اشبيلية خصوصا من جزيرة الاندلس وذكر من ملكها فبذلك يتصل نسق الاخبار عما يريد ويتطرق لنا القول فيما نقصده لان ملك اشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الاندلس على ما سيذكر ان شاء الله تعالى فنقول أما أحوال اشبيلية فانها كانت في طاعة الفاطميين أعني على بن حمود والقاسم بن حمود ويحيى بن علي بن حمود أيام كان الأمر داراً بينهم على ما تقدم ذكره فلما زحف يحيى بن علي بالبرابر الى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها وقصد اشبيلية وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل اشبيلية واتفق رأيهم على اخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فاخرجوهما وجاء القاسم فتمعه دخول البلد أيضاً واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع اليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم فتوارداختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حضاقة عقابه وسعة صدره وشكوهته وحسن تدبيره فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك فتهيب الاستبداد وخاف عاقبة الانفراد أولاً وأبى ذلك الا على أن يختاروا له من انفسهم رجالاً ساهم لهم يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء لا يقطع أمر أدونهم ولا يتحدث حدثاً الا بمشورتهم وهؤلاء المسمون هم الوزير ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن يريم الالهاني وأبو الاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني في رجال آخرين ذهبت عن أسمائهم الا أني أعرف قبائهم وبيوتهم ففعلوا ذلك وأجابوه الى ما أراد ولم يزل يدبر أمر اشبيلية وهؤلاء

المذكورون وزراؤه وكان له من الولد اسمعيل وهو الأكبر يكنى أبا
الوليد وعباد يكنى أبا عمرو فأما اسمعيل فخرج الى لقاء البربر بعد أن حدث
لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من
أشبيلية يعسكر من جند اشبيلية فالتقى هو وصاحب منهاجة فأساءت
اسمعيل عساكره وكان أول قتيل وقطع راسه وسير به الى مالقة الى
ادريس بن علي الفاطمي كما تقدم وبقي الأمر كذلك والقاضي ابو القاسم
يدبر الأمور أحسن تدبير وكان صالحاً مصلحاً الى أن مات في شهر سنة ٤٣٩

ولاية المعتضد بالله العبادي

ثم ولي ما كان يايه بعده من أمور اشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد
ابن محمد بن اسمعيل بن عباد فجري على سنن أبيه في إيتار الإصلاح وحسن
التدبير وبسط العدل مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده
وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواته
مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم
من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً
الى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمور وتلقب بالمعتضد بالله وقيل
انه ادعى أنه وقع اليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله وكان
الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل اشبيلية وخاف
قيام العامة عليه لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة
كالمنظهر والمستكنفي والمعتد فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة وبلغه
انهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه فادعى ما ادعاه من ذلك
وذكر أن هشاماً عنده بقصره وشهد له خواص من حشمه وأنه في

صورة الحاجب له والمتخذ لأمره وأمر بالدعاء له على المنابر فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة ٢٥٥هـ واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جلالها برؤس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول في مثل هذا البستان فليتنزه وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس كان قد استوي في مخائمه ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً وكان سبب ذلك أن ولده المذكور وكان اسمه اسمعيل كن يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمني وفاته فيتفاذي المعتضد ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن بكر اسمعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه في عبيد وأراذل معه ورام الفتك بابيه فأتته البوابون والحرس فهرب أصحاب اسمعيل وأخذ بعضهم فاقرو وأخبر بالكائنة على وجهها وقيل أن اسمعيل لم يكن معهم وإنما بعضهم على ذلك وجعل ابن قتل أباه المعتضد جعلاً سينا قاله أن لم يقبض المعتضد على ابنه اسمعيل هذا واستعفى أمواله وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حيثئذ وبلغني أنه قتل رجلاً أسمى بمكة كان يدعو عليه بها كان هذا الرجل من بادية أشبيلية كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى وذهب باقي ماله حتى افتقر ورحل إلى مكة فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه شئ

ذلك فاستدعى بعض من يريد الحج وناولوه حقا فيه دنانير مطاية بالسم
 وقال لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الاعمي بمكة وسلم عليه عنا فتفق
 أن سلم الرجل ومعه الحق فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع اليه الحق
 وقال هذا من عند المعتضد فأنكر ذلك الأعمى وقال كيف يظهرني
 بأشيبالية ويتصدق على بالحجاز فلم يزل الرجل يخنضه الى أن سكن
 وأخذ الحق فكان أول شيء فعله ان فتح الحق وعمد الى دينار من
 تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب ساورها بيده الى أن تمكن منه
 السم فحاجه الليل حتى مات فاعجب لرجل بقاصمة المغرب يعنى بقتل
 رجل بالحجاز وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل
 أشيبالية فرمته الى طايطة فكان يدعو عليه بها في الأسفار مقدرًا أنه
 قد أمن غائته اذ صار في مملكة غيره فلم يزل يعمل فيه الحيلة الى أن
 بعث من قتله وجاءه برأسه وكان أكبر من ينأويه من المتغلبين المجاورين
 له وأشدهم عليه البربر صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها
 من نواحي أشيبالية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجوز الجيوش أخرى
 الى أن استنزلهم ففرق كلتهم وشتت منتظم أمرهم ونفادهم عن جميع
 تلك البلاد وصفت له أموره كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر
 بلغ من لطيف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب الى ذلك الرجل الذي
 جعله عينًا له بقرمونة كتابا في بعض أمره ان استدعي رجلا من بادية
 أشيبالية شديد البله كثير الغفلة وقال له اخلع ثيابك وألبسه جبة جعل
 في جيبيها كتابا وخاط غايه وقال له اخرج الى قرمونة فاذا وصلت بقرمها
 فاجع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف اصحاب الخطب
 ولا تبعها الا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم وكان قد قرر هذا كله مع

صاحبه الذي بقرمونة فخرج البدوي كما أمره المعتضد فلما قرب من
قرمونة جمع حزمة من الحطب ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع
حزمة صغيرة ودخل بها البلد ودخل ووقف في موقف الخطابين فجعل
الناس يثرون عليه ويسومون منه حزمة فاذا قال لا أبيعها الا بخمسة
دراهم فحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه فلم يزل كذلك الى
أن اجته الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول هذا أبنوس ويقول
الآخر لا بل هو عود هندي وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد
فقال له بكم تبيع حزمتك هذه فقال بخمسة دراهم فقال قد اشتريتها
فأحملها الى البيت فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع
الحزمة ودفع اليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهم بالانصراف قال له
ابن تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي فاذا
اصبحت رجعت الى منزلك فأجابه فأدخله الى بيت وقدم له طعاماً
وسأله كأنه لا يعرفه من أين أنت فقال أنا من بادية أشيلية قال يا أخى
مالذى جاء بك الى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان
الدماء عليهم فقال حمايتي على هذا الحاجة ولم يظهر له أن المعتضد أرسله
فلم يزل الرجل يحادثه الى أن أخذه النوم فلما رأى غلبة النوم عاياه قال
له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنا لنومك وأروح لجسمك ففجرد الرجل
ونام وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيها واستخرج الكتاب
فقرأه وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة وخاط عاياه كما كان فلما
أصبح الرجل لبس جبته ورجع الى أشيلية وقصد باب دار الامارة
واستأذن فأدخل على المعتضد فقال له اخلع تلك الجبة وكساه ثيابا
حسانا فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحاً يري أنه قد خلع عاياه

ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاء وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة
فقرأه وتم ما اراد من امره وله في تدبير مملكه واحكام امره حيل وآراء
عجيبة لم يسبق الى اكثرها بطول تعدادها ويخرج عن حد التايخيص
بسطها ولما قتل ابنه اسمعيل كما تقدم وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده الى
ابنه ابي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل بن عباد ولقبه بالمعتضد
على الله حسنت سيرة ابي القاسم هذا في حياة ابيه وبعده وفاته وفي اماره
المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة قبيلتان عظيمتان من البربر رحبة
مراکش فتخبروها دار ملكهم لتوسطها البلاد وكانت اذ نزلوها غيضة
لا عمران بها وانما سميت بعبد اسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه
مراکش فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدموا عليهم رجلا منهم اسمه
تاشفين بن يوسف وكان المعتضد في كل وقت يستطاع اخبار العدو
هل نزل البربر رحبة مراکش وذلك لما كان يراه في ماحمة كانت عنده
ان هؤلاء القوم خالعوه او خالعو ولدوه ومخرجوه من مملكه فلما بلغه
نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم مضعداً ومضوباً ويقول ياليت شعري
من تناله معرة هؤلاء القوم أنا او انتم فقال له ابو القاسم من ينهم
جعاني الله فذاك وانزل بي كل مكروه يريد ان ينزله بك فكانت دعوة
وافقت القدر وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة
مراکش في صدر سنة ٤٦٣ وانفصلهم عنها جملة واحدة في وسط
سنة ٥٤٠ فكانت مدة اقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراکش الى ان
انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة نحواً من ست وسبعين سنة ثم توفي
المعتضد بالله في شهر رجب من سنة ٤٦٤ واختلف في سبب وفاته فقيل ان
ملك الروم سمع في ثياب أرسل بها اليه وقيل أنه مات حتف أنفه فالله أعلم

ولاية ابي القاسم بن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل ابن عباد وزاد الى المعتمد على الله الظافر بحول الله وكان المعتمد هذا يشبه بهرون الوائق بالله من ملوك بني العباس ذكاء نفس وغزارة أدب وكان شعره كأنه الحلل المنشرة واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس وكان مقتصرأ من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والزاهة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة وفي الجملة فلا أعلم خصلة محمد في رجل الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها ولى أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعها واخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في اضعافها ما أثر اعيان على غيره جمعها في مائة سنة او أكثر منها كانت له رحمه الله همه في تحايد النناء وابقاء الحمد كان من جملة شعرائه رجل من اهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعاني انشد يوماً بين يدي المعتمد رحمه الله بعد الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله الى المعتمد وهما

قل الوفاء فما تلقاه في احد ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال
فأعجب المعتمد بهما وقال لمن هذان البيتان فقالوا هما لعبد الجليل بن
وهيون أحد خدم مولانا فقال المعتمد عند ذلك هذا والله اليوم البحت
رجل من خدامنا والمنة طعين الينا يقول أو مثل ما حدثوا عن ألف
مثقال وهل يحدث أحد عنا بأسوء من هذه الأحدثونة وأمر له بألف
مثقال فلما دخل عليه يتشكر له قل له يا أبا محمد هل عاد الخبر عياناً قل
أي والله يا مولاي ودعاه بطول البقاء فاهم بالانصراف قال له يا عبد الجليل
الآن حدث بها لا عنها يعني ألف مثقال وله رحمه الله شعر كثير برز
في أكثره وأجاد ما أراد وسيمر منه في أضعاف أخباره ما يشهد له
بالتبريز عند ذوى التميز فما اختاره من شعره قوله

على فؤادك قد ابل عليل	واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو ان عمرك ألف عام كامل	ما كان حقاً ان يقال طويل
اكذبا يقود بك الاسبى نحو الردى	والعود عود والشمول شمول
لا يستبيك الهم نفسك عنوة	والكأس سيف في يدك صقيل
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا	فالعقل عندى ان تزول عقول

ومن شعره السيار لا بل الطيار قوله فى مملوك له صغير كان يتصرف
بين يديه أهده له صاحب طابطة اسم المملوك سيف

سموه سيفاً وفي عينيه سيفان	هذا لقتلى مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة	حتى أصبح من الأجفان ثنتان
أسرته وثناني شبح مقاته	أسيره فكلانا أسر عانى
يا سيف امسك بمعروف أسير هوى	لا يبتغي منك أسر يحاً باحسان

ومن شعره الرشيق المايح الخفيف الروح الذي حكى لئام سلاسه





وبني ميت الاعضاء حي دلالة
 جعلت قوادي جئن صارم جئن
 أذل له في حجره وهو ينحى
 وما أبت جبل منه أذ كان في يدي
 غرامي به حي وصبري ميت
 فياحر ما يصلى به حين يصلت
 وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
 لريحان ريعان الشيبية منبت

ومن جيد ماله من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها

راق الربيع ورق طبع هواه
 واجعل قرين الورد فيه رلاقة
 لولا ذبول الورد قلت بانه
 هيات أين الورد من خد الذي
 الورد ليس صفاته كصفاته
 يتنفس الاصباح والريحان من
 ويجول في الارواح روح ماسرت
 صرف الهوى جسمي شبيه خياله
 فانظر انضارة أرضه وسماه
 يحكي مشعشعها مصعد مائه
 خد الحبيب عليه صبغ حياته
 لا يستحيل عليك عهد وفاته
 والغير ليس غناؤها كغناها
 حركات معطفه وحسن روائه
 رياه من تنقائه بلقائه
 من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما على خاطري له يثنان يصف بها خلاوها

بدا على خده خال يزينه
 كأن حبة قلبي عند رؤيته
 ولا بن اللبنة هذا احسان كثير
 وأيضاً فلان هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب . وانما يأتي منه
 فيه ما تدعوا اليه ضرورة سياق الحديث ثم رجع بنا القول الى أخبار
 المعتمد على الله وبلغني ان رجلاً رأى في منامه قبل الكئنة العظمى
 على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة كان رجلاً أنى حتى صعد
 المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعاً صوتاً

رب ركب قد أناخوا عيسهم في ذرى مجدهم حين يسبق
 سكت الدهر زمانا عنهم ثم أبكاهم دما حين نطق
 فما كان الا أشهراً يسيرة حتى وقع بهم ما وقع وأبكاهم الدهر كما قال وبانغ
 من حال المعتمد على الله باغمات ان آخر حظياته وأكرم بناته أجمت الي
 ان تستدعي غزلا من الناس تسد باجرته بعض حالها . وتصح به
 مظهر من اختلالها . فادخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف
 شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروفه لم يكن يراه الا ذلك
 اليوم واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء
 زهر بن عبد الملك ابن زهر بمراكش قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه
 فكتب اليه المعتمد راعباً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه
 فكتب اليه الوزير مؤدياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومسعفاً له في
 طلبته واتفق ان دعاه في أثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك

دعالي بالبقاء وكيف يهوي	أسير ان يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة	يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب	فان هواي من حنفي اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي	عوارى قد أضربها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى	مراتبه اذا أبدوا النداء
وطرد الناس بين يدي ممري	وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال	لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه امام أو وراه	اذا اخفل الامام أو الورا
ولكن الدعاء اذا دعاه	ضمير خالص تقع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر	نوي برأ وصاحبك العلاء

يسبلى النفس عن مافات علمي بان الكل يدركه الفناء
 وورد عليه اغمات أبو بكر بن اللبانة المتقدم الذكر ملتزماً عهد الوفاء
 قاضياً بما يجب عليه من شكر النعمي فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن
 اللبانة على السفر استنفذ المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالاً
 وثوبين وكتب اليه معها

اليك التذر من كف الاثير	فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء	وان عذرت حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه	أليس الخسف ملتزم الدور
ورج لجبره عقبي نداء	فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت علاه من حضيض	وكم حطت ظباه من أمير
وكم من منبر حنت اليه	أعالي مرتقاء ومن سرير
زمان تراحفت عن جانبيه	جواد الخيل بالموت المير
فقد نظرت اليه عيون نحس	مضت منه بمعدوم النظير
نحوس كن في عقبي سعود	كذلك تدور أقدار القدير
وكم أحظي رضاه من حظي	وكم شهرت علاه من شهير
زمان تنافست في الحظ منه	ملوك قد تنجور على الدهور
بحيث يطير بالابطال ذعر	ويلقى نم أرجح من نسير
فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه	• وصرفه بجماته اليه • وكتب
بحياء له عن شعره	

سقطت من الوفاء على خبير	فذرني والذي لك في ضميري
تركت هوالك وهو شقيق ديني	لئن شقت برودي عن غدوري
ولا كنت الطاليق من الرزايا	لئن أصبحت أجحف بالاسير

معاذ الله من سوء المصير
على نعمي فما فضل الشكور
وما أنا من يقصر عن قصور
لبست الظل منه في الحرور
على كفيك حالات الفقير
فتسمح من قليل بالكثير
تفتح عن جنى زهر نصير
وترفع للعفاة منار نور
إذا عاد ارتقاؤك للسرير
عداة تحل في تلك القصور
بها وانيف ثم على جرير
فليس الخسف ملتزم البدور

وجفا فاستحق لوما وشكراً
فاستحق الجفاء ان حاط نزرأ
عادلومي في البعض سرأ وجهراً
لاعدمنالك في المغارب ذخراً
مت ضراً فكيف أرهب ضراً

صر في البر انما كان برأ
يتشكي فقراً وكم سد فقراً
غدر الدهر بي لئن رمت غدراً

أسير ولا أصير الي اغتنام
إذا ما الشكر كان وان تناهي
جذيمة أنت والايام خانت
أنا أدري بفضلك منك اني
غنى النفس أنت وان ألت
تصرف في الندي حيل المعالي
أحدث منك عن نبع غريب
وأعجب منك أنك في ظلام
رويدك سوف توسعني سروراً
وسوف تحلني رتب المعالي
تزيد على ابن مروان عطاء
تأهب أن تعود الى طلوع
فراجع المعتمد بهذه الابيات
رد بري بغيا على وبرا
حاط نذري اذخاف تا كيد ضري
فاذا ما طويت في البعض حمداً
ياأبا بكر الغريب وفاة
أى نفع يجدي احتياط شفيق
فاجابه ابن اللبابة رحمه الله

أيها الماجد السعيد عذراً
حاش لله ان أجيج كريماً
لأزيد الجفاء فيه شقوقاً

ليت لي قوة أو آوي لركن
 أنت علمتني السيادة حتي
 ويحت صفقة أزيل بروداً
 وكفلني كلامك الرطب نيلاً
 لم تمت إنما المكارم ماتت
 وبما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره
 قبر الغريب سقاء الرايح الغادي
 بالحلم بالعلم بالتمعي اذا اتصلت
 بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
 بالدمر في نغم بالبحر في نعم
 نعم هو الحق حابني به قدر
 ولم أكن قبل ذلك النعش أعلمه
 كفاك فارقي بما استودعت من كرم
 يبكي أخاه الذي غيبت وابسه
 حتي يجودك دمع الطل منهمر
 ولا تزل صلوات الله دائماً
 وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من
 بعده • وجعله ولي عهده • ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن
 مراده • وحالت الاقدار بينه وبين اصداره وإيراده • فما برح بفخر
 الدولة هذا تغير الايام بعد الفتنة الى ان أسلم نفسه في السوق وتعلم من
 الصنائع صنعة الصواغ فرب به محمد بن اللبابة المتقدم الذكر شاعر
 أبيه فقال في ذلك

فترى للسوفاء منى سرّاً
 ناهضت همتي الكواكب قدراً
 عن أديمي بهاء والبس بخرّاً
 كيف ألقي دراً وأطلب تبرّاً
 لاسقي الله بعدك الارض قطراً

حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
 بالخصب ان أجذبوا بالرى للصادي
 بالموت احمر بالضرغامه العادي
 بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
 من السماء فوافني لميعاد
 ان الجبال تهادي فوق أعواد
 روك كل قطوب البرق رعاد
 تحت الصفيح بدمع رايح غادي
 من أعين الزهر لم تجل باسعاد
 على دفينك لا تحصي بتعداد

اذكي القلوب أسي أبكي العيون دما
 أفرا د عقد المني منا قد انتثرت
 شكائنا فيك يا فخر الهدي عظمت
 طوقت من ناثبات الدهر مخنقة
 وعاد كونك في دكان قارعة
 حيرت في آلة الصواع أنملة
 يد عهدتك للتقيل تبسطها
 يا صائغاً كانت العاليا تصاغ له
 للنفخ في الصور هول ما حكامه سوي
 وددت اذ نظرت عيني اليك به
 ما حطك الدهر لما حط من شرف
 حج في العلى كوكباً ان لم تلح قرا
 واصبر قريباً أحمدت عاقبة
 والله لو أنصفك الشهب لانكسفت
 بكى حديثك حتى الدر حين غدا
 وروضة الحسن من أزهارها عريت
 بعد النعيم ذوي الريحان حين رأي
 لم يرحم الدهر فضلا انت حامله
 شقيقك الصبح ان اضحي بشارقه

خطب وجدناك فيه يشبه العدم
 وعقد عروستا الوثني قد انفصا
 والرزء يعظم فيمن قدره عظما
 ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
 من بعد ما كان في قصر حكي إرما
 لم تدرا الندي والسيف والقاما
 فتستقل الثريا ان تكون فما
 حلياً وكان عليه الحلى منتظماً
 هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
 لو ان عيني تشكو قبل ذلك عما
 ولا تخيف من اخلاقك الكرما
 وقم بها ربوة ان لم تقم علما
 من يلزم الصبر بمحمد غب ما لزما
 ولو وفي لك دمع المزن لانسجما
 يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
 حزنا عليك لان أشبهتها شيا
 ريحانك الغض يزوي بعد ما نعما
 من ليس يرحم ذلك الفضل لارحما
 وانت في ظامة فالصبح قد ظاما

فصل

ووردنا هذه النبذة اليسيرة من اخبار المعتمد على الله معها تعلق بها

وان كانت مخرجة عن الغرض لتدل بها على ما قدمنا من ذكر فضله
وغزارة أدبه وإنبائه لذلك وأيضاً فليتصل نسق الأخبار عن المملكة
أعنى مملكة الأندلس الى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ولوجه
نالك وهو ان ما آلت اليه حال المعتمد هذا من الحمول بعد النباهة
والضعة بعد الرفعة والقبض بعد البسط من جملة العبر التي أرستها
الأيام والمواعظ التي تصغر الدنيا في عيون أولي الأفهام ثم ان يوسف
ابن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد اذ كان
هو كبش كتيبته وعين أعيانها وواسطة نظمها فلم يزل أصحاب يوسف
ابن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة الى ان دانت لهم الجزيرة
بأجمعها فأظهروا في أول أمرهم من النكاية في العدو والدفاع عن
المسلمين وحماية الثغور ماصدق بهم الظنون وأتاج الصدور وأقر العيون
فزاد حب أهل الأندلس لهم واشتد خوف ملوك الروم منهم ويوسف
ابن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش
والخيل أثر الخيل ويقول في كل مجلس من مجالسه انما كان غرضنا في
ملك هذه الجزيرة أن يستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم
على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإنبائهم
الراحة وانما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه وهو يقطع به أيامه
ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة
الى المسلمين ولأملأنها عليهم يعني الروم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة
ولا علم عندهم برضاء العيش انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرجه
أو سلاح يستجيده أو صرخ يباي دعوته في أمثال لهذا القول فبلغ ذلك
ملوك النصارى فزداد فرقم ويقوى مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم

بأسهم وحين ملك يوسف أمير المساميين جزيرة الأندلس وأطاعته
 بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها عد من يومئذ في جملة الملوك واستحق
 اسم السلطنة وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين وصار هو وابنه معدودين
 في أكابر الملوك لان جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى وأم
 قراء ومعدن الفضائل منه فعمامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون
 اليها ومعدودين منها فهي مطلع شمس العلوم وأقارها ومركز الفضائل
 وقطب مدارها أعدل الأقاليم هواء وأصفاها جواً وأعذبها ماء وأعطرها
 نباتاً وأنداءها طلالاً وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالاً

أرض بطير فؤادى من قرارته شوقاً لها ولان فيها من الناس
 قوم جئيت جنى ورد بذكرهم فهل بلقياهم أجنى جنى آس
 فانقطع الى أمير المساميين من الجزيرة من أهل كل علم شغله حتى
 أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه
 من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من
 الا عصار فمن كتب لأمر المساميين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر
 المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والخط فصب السبق في
 البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إثارة جزل الألفاظ وصحيح
 المعاني من غير التفات الى الأسجاع التي أخذتها متأخرو الكتاب اللهم
 الا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد
 رسائل تدل على ما وصفته به ليس على خاطري منها شيء ثم كتب له
 أبو لابنه بعد أبي بكر هذا الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون
 قد تقدم من نعمته ما أغنانا عن تكراره ههنا وكان يكتب قبل من كتب
 له لهما للأمر سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو الذي دخل على المعتمد

على الله اشبائية فلم يزل يكتب له الى ان اتصل بأمر المسلمين باستدعائه
منه له فمن رسائله عنه الى أمير المسلمين رسالة يخبر فيها بفتح مدينة
شترين أعادها الله وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها فكتب عنه
أبو محمد كتاباً أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن عليّ
ابن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه نافذة في السبعة
الاقليم أقلامه من داخل مدينة شترين وقد فتحها الله تعالى بحسن
سيرتك وبين تقبيلك على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمداً يستغرق
الالفاظ الشارحة معناه ويسبق الاحاظ الطامحة أدناه لا يزد وجهه
نكوص • ولا يحد كنهه تخصيص • ولا يحزره بقبض ولا ببسط مثال
ولا تخمين • ولا تحصره بخطط ولا بعقد شمال ولا يمين • ولا يسعه
أمد يحويه • ولا يقطعه أبد يستوفيه • ولا يجمعه عدد يحصيه • اذا
سبقت هواديه • لحقت تواليه • وعلى محمد عبده وأمين وحيه •
مصادع بأمره ونهيه • نظام الامه • وامام الأئمة • سر ادم من بنيه •
ونخر العالم ومن فيه • صلاة تامة نقضها • وتحية عامة تؤديها • ترفض
ارفضاض الزهر من كمامه • وتنفض انفضاض المسك من ختامه • فلقد
صدع بتوحيده • وجمع على وعده ووعيده • وأوضح الحق وجلاله •
ونصح الخلق وهداه • الامن حقت عليه كلمة العذاب • وسبقت له الشقوة
في أم الكتاب • وأظهر العزيز عزت أسماؤه • وجلت كبرياؤه • دينه
على جميع الاديان • على رغم من الصليان • ووقم من الاوثان • وانجز
لنا تعالى وعده • ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده • وجمع في هذه
الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانباته • وقطع ميل الاشرار
بعد انتصابه وثباته • وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بايدينا من

صياصيههم • نأخذ بأقدامهم ونواصيههم • وكانت قلعة شترين • أدام الله أمر
 أمير المسلمين • من أحصن المعقل للمشركين • وأثبت المعاهد على المسلمين
 فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه • وهديك الذي اكتفيناه • نخضد شوكتها
 ونحت أثلتها • ونتناولها عللا بعد نهل • ونطاولها عجلا في مهل • ونجرف
 الحين بعد الحين سراة رجالها • ونستطرف المرة بعد المرة حماة أبطالها •
 ونخوض غمار كفاحهم • وبحار صفاحهم • إلى بسط أشباحهم • وقبض
 أرواحهم • ونهدي للقنا وصدورها رؤسهم • وإلى لظى وسعيرها
 نفوسهم • ونقلهم من الشفار اليمانية • إلى النار الحامية • ونرفع بالجد
 والتشمير حجاب كيدهم الغامض • ونضعع باستخارة القديم القدير
 هضاب أيدهم الهاض • ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع
 المنيفة المناصب على البقاع • قد استتري داؤها • وأعيا دواؤها • استخرنا
 الله تعالى على صمدها • وضرعنا إليه في تسهيل قصدها • وسألناه أن
 لا يكلنا إلى نفوسنا • وإن كانت في صيانة ديانتنا • مبدولة • وعلى المكروه
 والمحبوب في ذاته محموله • فقصدنا إليها • وهجمنا هجوم الردى عليها • في
 وقت انسدت فيه أبواب السبل • وأعيت أهلها بحول الله وجوه الخيل •
 والدمر قد كثر عن أنيابه العصل • وقام من الوحول والسيول على
 أثبت رجل • فترلنا بساحة القوم • فساء صباحهم ذلك اليوم • فلم نزل
 نصا ولها مصاولة المحتسب المؤنجر • ونطاولها مطاولة المرتقب لأمر الله
 المنتظر • ونشن الغارات • على جميع الجهات • فترد جيوشنا عليهم خفافا
 وتصدر الينا ثقالا • فتملا صدور الأعداء أوجالا • وأيدى الأولياء
 أموالا • وأمرنا بأقامة سوق سبيهم وأموالهم • على مرأى ومسمع من
 نسايتهم ورجالهم • فازدادت ربحهم بذلك ركوداً • ونارهم خوداً • ولما

ضمهم لضيق ولاجه الحصار . وغشيم بتفريق أمواجه البوار . وأحاط
 بهم البلاء . واستشاط عليهم بغضب الجبار القضا . ولم يكن لليل بأسائهم
 سحر يتأمل . ولا لورد ضرائهم صدر يؤمل . اختاروا الدنيا على المنية .
 ورضوا بالاستسلام للعبودية . واسلام الاهل والذرية . والسلامة من
 مدارج الكفن . ومواج الجن . ولو بجريعة الذقن . وكان القتل كما
 قدمنا قد أتى على صيد أعيانهم . وصناديد فرسانهم . فلم تبق الا شزيمة
 قليلة . وعصبة ذليلة . لا تضر حياتهم موحداً . ولا تسر نجاتهم ملجداً .
 نقلناهم من يمين المنون الى شمال الهون . ومن أليم الحصار الى لئيم
 الاسار . وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم . بعد ان قدموا من
 الخضوع صدقة بين يدي نجواهم . ووهبنا أولاهم لآخراهم . وجعلنا
 العفو عنهم تطريقاً لسواهم . ممن يتقبل صنيعهم اذا نحن غداً بأذن الله
 حاصرناهم . وهذه القلعة التي اتينا الى قرارها . واستولينا على اقطارها
 أرحب المدن أمدا للعيون . وأخصبها بلدا في السنين . لا يرعها الخصب
 ولا يخطاها . ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها . فروعها فوق الثريا
 شامخه . وعروقها تحت الثري راسخه . تباهي بازهارها نجوم السما .
 وتناجي بأسرارها أذن الجوزا . مواقع القطار في سواها مغبرة مبردة
 وهي زاهرة ترف انداؤها . ومطالع الانوار في حشاها مقشعة مسودة
 وهي ناضرة . تشف أضواؤها . وكانت في الزمن الغابر . أعيت على
 عظيم القياصر . فنازلها بأكثر من القطر عددا . وحاولها بأوفر من
 البحر مددا . فأبت على طاعته كل الأبا . واستعصت على استطاعته أشد
 استعصا . ومردت مرود مارد على الزبا . فامكننا الله تعالى من ذروتها
 وأنزل ركبها لنا عن صهوتها

ومن رسائله الاخوانيات رسالة كتب بها الى أبي عبد الله محمد بن
أبي الخصال بخط مودته • ويستدعي من اخائه جدته • أنا مع عمادي
الاعظم أدام الله علوه كعزيب طواه الجهد • واواه من تهامة وهدي
وماله بريحتها العقيم ولا يجرها المعقد المقيم عهد • فرفضت به من سرايها
المغرق وشرايها المحرق في حمام • فاشرف من ذلك الجحيم وضرمه لولا
تنفيس الرحيم عنه بكرمه على الحمام • فوال الى ربوة من رباها • وسأل
جبال فاران عن مهيب صباها • ليلتقط من أنفاسها بواسطة نجد • يردها
يهديه الى حر الوجد • خيته ببابل • من نسيمها العليل • فاحيته بعد
التعليل • وأنا ما قصدت فيما خطبت به اليك لاخذ عليك بفضل الابتدا
وانما سلكت سبيل الاقتدا • واتبعت دليل الاهتدا • وأردت ان أستشير
باضوائك • واستشير من سائلك • نجوم تهديني في غسق الظلام • أو
رجوما تعديني على مسترق سمع الكلام • فان سمح عمادي بالجواب
ورجعه • غالطت بما حصل منه لدي • ووصل الى الحمام في سجعه •
والانصار في حسنها • والاعصار في نيسانها • ووطيئاً في وليدها وحبيها •
وسعداً في خالدها وشيبتها • وخرقت بما أعار من مراح وأنار من ارياح
جيب مخارق طربا • ولم أدع لابي العتاهية في ثقبه المغرب وخفيفه
المطرب اربا • ووطويت كشحا عن اغاريد عبيد • واضربت صفحا عن
انا شيد ليد • وطلبت بلغاء العصر • بامثل المضروب في حمل مضر •
وقات هذه القارة فراموها وانصفوا • وهذه الغاية فراموها وانصفوا
وان كانت تؤمه البواهر ما انحلت في درجي • ونجومه الزواهر ما حلت في
برجي • وأن كفي من جنا ثماره لصفري • وان طرفي من سنا اثماره لقفري
والنهي بضنه على بدرة من بحره • او نفثة من سحره • لبين طنين • لم

أحصل من تحقيقهما على أثر ولا عين . أحدهما قلت أنه أجرى اسمي
على خلدته . فلم يجديني في انداده ولا بلده . فقال وما أنا وفلان وهل
هو الا من الغرب . وان كان بزعمه في الصميم من العرب . وهل الغرب
في الاقطار . الا كاللحق بين الاسطار . والاخر ربما يقول . مالا تقبله
العقول . اني لا انظر من فلان باحد من نظر الزرقا . الى أجل من خطر
العنقا . وينشد قول أبي العلاء بن سليمان . شاعر معزة النعمان
* أرى العنقاء تكبران تصادا *

وأنا أقسم بالربيع الممطر واثنا لاف أوانه . والبقيع المزهري واختلاف
ألوانه . والشباب ودولته . والمضرب وصولته . والمثنائي اذا نسقت .
والقناني وما وسقت . وان أقسمت من بعضها بيمين . لا أنلقى رايها بشمال
ولا بيمين . ان اسمي في البلغاء والفهما . كاسم العنقاء في الاسما . اسم
ما وقع على مسمي . ولفظ مادل على معنى . فاين أقع بما تريد . وكتابي
بين يدي حمدي أو عتابي يريد ينفض تهائم ظنوني . أو ينقض تمام
جنوني . وله الرأي العالي في الجواب . على خطأ كنت من ظني أو
صواب . ان شاء الله عز وجل ومن سلامي . على عمادي الاعظم
وامامي . احفله واحفده . واجزله واوفده . والسلام الاتم الاعم عليه
ورحة الله وبركاته فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يكتب مثلها في
بابها أبدع فيها غاية الابداع وان كان فيها بعض تكلف تسمي هذه
الرسالة الحولية منعني من ايرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول
ولابي محمد عبد المجيد المذكور احسان قد اشهر عندنا بتلك الاقطار
شهرة الامثال . وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال
واتصلت حال أمير المساهين يوسف كما ذكرنا في ايثار الغزو وقمع ملوك

الروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الاندلس الى ان
توفي في شهور سنة ٤٩٣ وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف
ابن تاشفين • وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين • وسمي أصحابه المرابطين
فجروا على سنن أبيه في إثارة الجهاد • وإخافة العدو وحماية البلاد •
وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم كان الى ان
يعد في الزهاد والمتبتلين • أقرب منه الى ان يعد في الملوك والمتغلبين •
واشدد إثارته لاهل الفقه والدين • وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته
دون مشاورة الفقهاء فكان اذا ولي أحداً من قضائه كان فيما يعهد اليه
ألا يقطع أمراً ولا يبت حكمه في صغير من الأمور ولا كبير الا بمحض
أربعة من الفقهاء فباع الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في
الصدر الاول من فتح الاندلس ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمر
المسلمين راجعة اليهم • وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم •
طول مدته فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس اليهم
فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول أبو
جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النبی من أهل مدينة جيان من
جزيرة الأندلس •

أهل الرياء ليستموا ثاموسكم كالذئب أدج في الظلام العاتم
فامكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الاموال بين القاسم
وركبتموا شهب الدواب باشهب وباصبح صبغت لكم في العالم
وانما عرض أبو جعفر هذا في هذه الابيات بالقاضي أبي عبد الله محمد
ابن حمد بن قاضي قرطبة وهو كان المقصود بهذه الابيات ثم هجاه بعد
هذا صريحاً بأبيات أولها

أدجال هذا أوان الخروج ويشمس لوجي من المغرب
يريد ابن حدين ان يعتق وجدواه أنأي من الكوكب
إذا سئل العرف حكاسته ليثبت دعواه في تغلب

في أمثال لهذه الآيات وكان القاضي أبو عبد الله بن حدين ينسب إلى تغلب ابنة وائل ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظي عنده إلا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبت ماسواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالثديد في نبت الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كابي القاسم ابن الجند المعروف بالاحدب أحد رجال البلاغة وأبي بكر محمد ابن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه

ابي مروان وابي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة
 يكثر ذكرهم وكان من انبيهم عنده واكبرهم مكانة لديه ابو عبد الله
 محمد بن ابي الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب واحد من
 انهي اليه علم الآداب وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما
 يتعلق بهذه العلوم الباع الارحب واليد الطولى فما اختار له رحمه الله
 فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض اخوانه عن رسالة وردت
 عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه وهذا الرجل صاحب الرسالة
 هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة وصل من السيد
 المسترق والمالك المستحق. وصل الله انعامه لديه. كما قصر الفضل عليه
 كتابه البليغ. واستدراجه المريبغ. فلولا ان يصلد زدت اقتداحه.
 ويرقد طرف افتتاحه. وتقبض يد انبساطه. وتغبين صفقة اغطباطه.
 لازمت معه مركز قدرى. وصنت سريرة صدري. ولكنه بنفثات
 سحره. يسمع الصم. ويستنزل العضم. ويقتاد الصعب فيصحب. ويستدر
 الصخور فتحلب. ولما فجأتى ابتداءؤه. وقرع سمعي نداؤه فرغمت الى
 الفكر. وخفق القلب بين الامن والحذر. فطاردت من الفقر أوابد
 قفر. وشوارد عفر. تغبر في وجه سائقها. ولا يتوجه للحاق لوجهها
 ولاحقها. فعلمت انها الالهابة والمهابه. والاصابة والاسترابه. حتى
 اياستنى الخواطر. وأخلفتنى المواطر. الازرجا يعقب جوادا. وبهرجا
 لا يَحتمل انتقادا. وأنى لمنلى والقرمحة مرعاة. والبضاعة مرعاة. وبراعة
 الخطاب. وبزاعة الكتاب. ولولا دروس معالم البيان. واستيلاء العفاء
 على هذا الشأن. لما فاز لمنلى فيه قدح. ولا تحصل لى في سوقه ربح.

والصخر ملاسه قوله في هذا المملوك وقد عذر

ثم له الحسن بالعدار واقترن الليل بالنهار

أخضر في أبيض تبدي ذلك آسي وذا بهاري

فقد حوى بي تمام ان كان من ريقه تقاري

وبينا هو يوما في قبة له يكتب شيئا أو يطالع وعنده بعض كرائمه

فدخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت دونه تستره

من الشمس فقال رحمه الله بديها

قامت لتحبب ضوء الشمس قامتها عن ناظري حجبته عن ناظر الغير

عاماً لعمر ك منها انها قمر هل تكشف الشمس الا صورة القمر

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها اذا لمع

البرق فارتاعت فقال رحمه الله بديها

ريعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لمساع

عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

وله مع هذا مقاطيع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه ولاستدعاء

خاصة جلسائه منعني من استيفائها قلعة ما على خاطري منها وسيمر من

شعره الذي قاله في أيام محنته ما يفجر الصم ويزعزع الشم

وكان لا يستوزر وزيراً الآن يكون أديباً شاعراً حسن الادوات فاجتمع

له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لاحد قبله فن جملة وزرائه الوزير

الأجل ذو الرياستين أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن زيدون

ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الاندلس المحيدين وخولها

المبرزين كان اذا نسب أنسلك كثيراً واذا مدح أزرى بزهر واذا نخر

اناف على أمرى القيس فن جملة مقاطعه التي تشهد له بمجودة الطبع

واتقان الصنعة قوله

بنى وبينك مالو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الاسرار لم يذع
 يابئاعا حظه مسنى ولو بذلت لى الحياة يحظى منه لم ابع
 بكفيك أنك ان حملت قلبي ما لاتستطيع قلوب الناس يستطع
 ته احتمل وأستطل أصبر وعزأهن وولي أقبل وقد أسمع ومرأطع
 وهو القائل رحمه الله يخاطب بنى جهور وكان قدوزر لهم قبل وزارته
 للمعتمد لان أصله من مدينة قرطبة فنائه منهم محنة تخرج عن قرطبة
 الى أشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده فكان يبلغه عن بنى
 جهور مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة فقال يخاطبهم
 بنى جهور أحرقتما بجفائكم فؤادى فما بال المدائح تعبق
 تعدوننى كالغبرالورد انما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق
 ومن نسيه الذى يخاطب بالروح رقة ويمتزج باجزاء الهواء لطافة قصيدته
 التى قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهى بقرطبة وهو بأشبيلية
 بنتم وبنا فما ابتات جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت ما قينا
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
 حالت لافقدكم أيامنا فعدت سودا وكانت بكم بيضاً لباينا
 اذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
 واذهصر ناغصون الاخر دانية قطوفها جنيينا منه ماشينا
 ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا الا رايحينا
 من مبالغ ما بسينا بانتراحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويباينا
 أن الزمان الذى مازال يضحكننا أنساً بقرهم قد عاد يبكينا
 غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا

فأنحل ما كان معقودا بانفسنا وأثبت ما كان موصولا بأيدينا
 وقد نكون وما يخشي تفرقتنا فاليوم نحن وما يرحي تلاقينا
 ياساري البرق غاد القصر فأسق به من كان صرف الهوي والود يسقينا
 وبنا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحينا
 لا تحسبوا نأيكُم عنا يغيرنا اذ طبال ماغير النأى المحينا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أماننا
 ياروضة طال ما أجنبت لواحظنا وردا جناء الصبا غصاً ونسرينا
 وبنا حياة تملأنا بزهرتها منى ضروبا ولذات أفانينا
 لسنا نسميك اجلالا وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذلك يغيننا
 اذا انفردت فما شوركت في صفة فحسبك الوصف ايضا حاوتيننا
 كأننا لم نبث والوصل ثالثنا والسعد قد غص من أجفان واشيننا
 سران في خاطر الظالماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا
 ياجنة الخلد أبدلنا بسلسها والكوفر العذب زقوما وغشينا
 انأقرنا الاسي يوم التوي سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تالقينا
 أوردتها على الاختيار لاعلى النسق ولعل في كثير مما تركت منها أحسن
 مما أوردت وانما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ومن شعره
 رحمه الله مما قاله في مدة صباه
 أخذت ثلث الهوى غصبا ولي ثلث ولله حبين فيما بينهم ثلث
 تالله لو حلف العشاق أنهم موتي من الوجد يوم الين ما حنوا
 قوم اذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا فان عاد من يهوونه بعنوا
 تري المحبين صرعي في عراصهم كفتية الكهف ما يدرون ما لبشوا
 ومما قال رحمه الله يتشوق ابنة المهدي المذكور دوما معاهده بقرطبة وضمنها

بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية

بما التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

قصيدة أولها

هل تذكرون غرباً عادته شجن من ذكر كم وجفاً جفانه الوسن
 يخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن
 يا ويلاته أيسقي في جوانحه فؤاده وهو بالأطلال مرتهن
 وأرق العين والظالماء عاكفة ورقاء قد شفاها أو شفى حزن
 فبت أشكو وتشكو فوق أيكنتها وبات يهغو ارتياحاً يشتا الغصن
 يا هل أجالس أقواماً أحبهم كنا وكانوا على عهد فقد طعنوا
 أو تحفظون عهداً لا أضيعها أن الكرام يحفظ العهد تمتحن

ومنها

ان كان عادكم عيد فرب فتى بالشوق قد عادته من ذكر كم حزن
 وأفردته الليالي من أحبته فبات ينشدها مما جفى الزمن
 بما التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

ومنهزم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العاصمية والآداب
 الأهمية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هاني
 الأندلسي وربما كان أحلاً منزعاً منه في كثير من شعره ولشعره ديوان
 يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم يلق أحداً ممن أدركته سني من أهل
 الآداب الذين أخذت عنهم الآرايته مقدماً له مؤثراً لشعره وربما تعالى
 بعضهم فشبهه بابي الطيب وهيئات فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما
 أراد قصيدته التي كتب بها من سر قصطة حين فرق المعتضد بالله بينه
 وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فتناه وهي

على والا ما بكاء الغمام
وعنى أبار الرعد مرخة طالب
وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله

أبى أن يراه الله الا مقلدا
ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله

جاه الهوى فاستشعر وده عاره
لا تطلبوا فى الحب عزاً انما
قالوا اضربك الهوى فاجبتهم
قلى هو اختار السقام لجسمه
غير تمونى بالنحول وانما
وشتم لفراق من آلفته
أحسبتم السلوان حب نسيمه
ان كان أعيا القلب من حرب الجوى
من قد قلى اذ تفتى قده
أم من طوى الصبح المنير نقابه
غصن ولكن النفوس رياضه
سخرت ببدر الهم غرته كما
ما زال ليل الوصل من فتكاته
ويجود روض الحسن من وجناته
حتى سقانى الدهر كأس فراقه
ووقفت فى مثل المحصب موقفاً

وفى والا ما نباح الحمام
لثار وهز البرق صفحة صارم
لغيرى ولا قامت له فى مآتم

خميلة سيف أو حمالة غارم

ونعيمه فاستعذبه أو ارده
عبد انه فى حكمه أحراره
يا حبيذا وحبذا اضراره
زبا نخلوه وما ينجثاره
شرف الهمد أن ترق شفاره
ولر بما حجب الهلال سراره
أو ان ذاك النوم عاد غراره
خذلته من دمعى اذ انصاره
وأقام عذرى اذ أطل عذاره
وأحاط بالليل البهيم خماره
رشا ولكن القلوب عماره
أزرت على أفافه أزراره
تبهرى الى بعرفه أسحاره
دمعى فيندي رنده وبهاره
فسكرت سكر الا يفيق خماره
للبين من حب القلوب جماره

حيران أعمى الطرف وهو سهاؤه وأذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو منواه فكم قد أحرقت عود العفارة ناره
أرن بهنه انى أضعت لحبه قلبي وذاعت عنده أسراراه
فأيهن قاي ان شكاه وشاحه لسواره فاقنص منه سواره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا ان حمصا داره
بلد رمتنى بالني أغصانه وتفجرت لي بالندى أنهاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس وأنا
ان شاء الله مورد منها مالا يخل بالشرط الذي التزمته ولا يخرج عن الحد
الذي رسمته حسب ما بقى على خاطرى من ذلك لأننى كنت فى حدائة
سنى قد صرفت عنايتى الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته
من الآداب وقد قشست خزائنه حفظى فلم ألق فيها الا نبذة يسيرة
وانا موردها ان شاء الله عز وجل فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى
أبا بكر أصله من شلب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس مولده
ومولده أباه بها كان خامل البيت ليس له ولا أسلافه فى الرياسة فى قديم
الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر منهم بها أحد ورد مدينة شلب طفلا
فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى
الأعلم ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومبر فى صناعة الشعر فكان
قصاراه التكب به فلم يزل يحوّل فى الأندلس مستقداً لا ينقص بهدحه
الملوك دون غيرهم بل لا يبالى بمن أخذ ولا من استعطف من ملك أو
سوقة وله فى ذلك خبر ظريف وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب
لا يملك الا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل
السوق فكان قدره عند ذلك الرجل ان ملأ له الخلاة شعيراً ووجه

بها اليه فرآها بن عمار من أجل الصلاة وأسنى الجوائز ثم اتفق ان علت
 حال ابن عمار وساعده الجدة ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاء
 المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضي الامر اليه فدخلها
 ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نحوه لم يظهرها
 المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتمد بالله فكان أول شيء سأل
 عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر فقال ما صنع فلان أهو حي قالوا نعم
 فأرسل اليه بمخلاته بعينها بعد أن مالاها دراهم وقال لرسوله قل له لو
 مالاتها برا ملاناها تبراً ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من
 التقلب في بلاد الاندلس للاستجداء والاستعطاف الى أن ورد على
 المعتمد بالله أنى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرا
 والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا
 وفيها يقول يمدح المعتمد

عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الاغبر
 قد احزند المجد لا ينمك من نار الوغي الا الى نار القرا
 يختار أن يهب الخريدة كاعباً والطرف أجرد والحسام مجورها

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتمد بالبربر
 شقيت بسيفك أمة لم تعتقد الا اليهود وان تسموا بربراً
 أثمرت رمحك من رؤوس كآتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمراً
 وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمر
 ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله
 السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها وأمره بمال وثياب ومركب
وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك ثم تعلق بالمعتمد على
الله وهو أذ ذاك شاب فلم يزل حاله معه تزيد وموات خدمته له تقوى
وتناكد إلى أن صار ابن عمار الزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى
إليه من جبل وريده كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار
ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار
هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة
شديدة وساءت السمعة عنهما فافقتني نظر المعتضد التفريق بينهما ولفي
ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الإيلاء إليه فلم يزل ابن عمار مغترباً
في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله فاستدعاه المعتمد وقربه
أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه وله
معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى
مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به إلا أنه في تلك الليلة زاد في
التحفي به والبر له على المعتاد فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه
لنضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك قال ابن عمار فهتف
بي هاتف في اليوم يقول لا تغتر أيها المسكين أنه سيقنتك ولو بعد حين
قال فانتبهت من نومي فزعا وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على
حالته الأولى فانتبهت ثم عدت فسمعته نائثاً فانتبهت فتجردت من أثوابي
والنفتت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به وقد
أزمنت على أي إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه
وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت فانتبه
المعتمد فافتقدني فلم يجيئني فأمر بطالبي فطلبت له في نواحي القصر

وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه فكان هو
 الذي وقع على ذلك انه أني دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف
 بازاء الحصار الذي كنت فيه فكانت منى حركة فأحسن بي وقال ماهذا
 يحرك في هذا الحصار ثم أمر به فنفض نخرجت عرياناً ليس على الا
 السراويل فلما رأي فاضت عيناه دموعاً وقال يا أبا بكر ما الذي حملك
 على هذا فلم أر بداً من ان صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها الي
 آخرها فضحك وقال يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الحمار ثم قال
 لي وكيف أقتلك أرايت أحداً يقتل نفسه وهل أنت عندي الا كنفي
 فتشكر له ابن عمار ودعاه بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه ومرت
 على ذلك الأيام والليالي الى ان كان من أمره ماسياً الي الإيلاء اليه فصدقت
 رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كقال ولما أفضى الأمر الي المعتمد كما
 ذكرنا سأل ابن عمار ولاية شاب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم
 فأجابه المعتمد الى ذلك وولاه إياها أنه ولاية جعل اليه جميع أمورها
 خارجها وداخلها فاستمرت ولاية ابن عمار عابها الى أن اشتد شوق
 المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستوزره
 فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد
 يعد له لكل أمر جليل ويؤهل لكل رتبة عالية وكان ابن عمار مع هذا
 لا يبتاط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة الحمأة واشتهر أمره ببلاد
 الأندلس حتي كان ملك الروم الادقثي اذا ذكر عنده ابن عمار قال
 هو رجل الجزيرة وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد اشيلية
 وقرطبة وأعمالهما وذلك انه خرج في جيش ضخمة بقصد بلاد المعتمد
 طامعا فيها نخافه الناس وامتلات صدور أهل تلك الجهات رعبا منه

وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأيسر تدبير وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب وجعل أرضها في غاية الاتقان نخرج من عند المعتمد رسولا إلى الادفنش فلقبه في أول بلاد المسلمين فأعظم الادفنش قدومه وبالغ في اكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمساعدة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الادفنش فنقل خبرها إليه وكان العلاج أعنى الادفنش مولعا بالشطرنج فلما لقي ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه فقال له بالغنى إن عندك سفرة في غاية الاتقان قال ابن عمار نعم فقال كيف السبيل إلى رؤيتها فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتك فلي حكمي فقال له الادفنش هلمها لننظر إليها فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلاج صلب وقال ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول فقال له الادفنش لألعب معك على حكم مجهول لأدري ماهو ولعله شيء لا يمكنني فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراد له لرجال وثق بهم من وجوه دولة الادفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازره على أمره ففعلوا فتعلقت نفس العلاج بالسفرة وشاور خاصته في مارسه ابن عمار فهو نوا عليه وقالوا له إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ويقبحوا عنده اظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه وقالوا له

ان طلب ابن عمار ما لا يمكن فتحه لك برده عن ذلك ولم يزالوا به حتى
 اجاب وأرسل الى ابن عمار فجاء ومعه السفارة فقال له قد قبلت مارسمة
 فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً سماهم له فأمر الادفش
 بهم فحضروا وافتتحا يلعبان وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة بالأندلس
 لا يقوم له أحد فيها فغلب الادفش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن
 للعاج فيها مطعن فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار هل صح ارلي حكمي
 قال نعم فما هو قال أن ترجع من ههنا الى بلادك فاسود وجه العاج
 وقام وقعد وقال خلواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هوّتموه على في
 أمثال لهذا القول وهم بانكث والتمادى لوجهه ففبحوا ذلك عليه وقالوا
 له كيف يجعل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصراري في وقتك فلم يزالوا
 به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة
 فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع وكف الله بأسه
 ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار الى انبيلية
 وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ثم ان المعتمد حدث له أمل في
 التغلب على مرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير وكانت بيد أبي عبد
 الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدير لأمرها شهز المعتمد
 جيوشاً عظيمة وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها
 فولاه ما تولى من ذلك وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية فأخذها
 وأخرج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني
 عبد العزيز ببليسية فكان بها الى ان مات رحمه الله ولما تغلب ابن عمار
 على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثه نفسه وسوّل له سوء
 رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه فلم يزل يصرف

الحيلة في ذلك الى ان تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع في ملك بالندسية الى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها وكان ابن عمار قد خرج ليعرض أمره فدعا ابن رشيق هذا الى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند فسمع ابن عمار بذلك فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها بمن معه أياماً فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها فبقى حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه وقد كان باغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته فلم ير الا الهروب ملجأً فهرب حتى لحق ببني هود بسر قسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته وبغضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشنأه الى أن وقع في حصن من حصون الاندلس في غاية المنعة يدعى شقورة كان المتغلب عليه رجل يقال له ابن مبارك فأكرم وقادته وأحسن نزله ثم بدا له بعد أيام فتبض عليه وقيده وجعله في سجنه فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب الى ملوك الاندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم فما منهم الا من يرغب في أن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي اليه ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الاندلس الا رغب فيه وكتب فيمن كتب الى المعتمد وفي ذلك يقول ابن عمار

أصبحت في السوق ينادي على رأسي بأنواع من المال

والله ما جاز على ماله من ضمني بالثمن الغالي

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأوتي بها فقال في ذلك

بوسا شقورة عندي أربي على كل بوسا

فقدت هرون فيها فظلت أطلب موسا

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك
بعد ان بعث اليه بمال وخيل وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن
يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ووافق
ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوءه على بغل
بين عدلي تبين وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس
خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال وقد كان قبل هذا اذا
دخل قرطبة اهتزت له وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم
فالسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام
وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركبته أو طرف ثوبه ومنهم من ينظر اليه
على بعد لا يستطيع الوصول اليه فسبحان محيل الاحوال ومديل الدول
فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء والملك الشائح
والرياسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيرا لا يملك الا ثوبه الذي عليه فسبحان
من سلبه ما وهبه ومنعه ما كان به أمتعته وأخبر بعض المؤكلين به ما اتفق
لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال لما قربنا من قرطبة بحيث
يرانا الناس خرج فارس من البالد يركض يقصدنا فلما رآه ابن عمار
وكان معهما أزال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر
الى ابن عمار ودخل معنا في الصف فثنى فساءلناه فيم جاء فقال الذي
جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل ان أصل اليه فعلمنا انه أرسل يزيد
عمامته فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في
قيوده فجعل المعتمد يعدد عليه أيديه ونعمه وابن عمار في ذلك كله

مطرق لا ينسب الى أن اتقضى كلام المعتمد فكان من جواب ابن عمار
ان قال ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ولو أنكرته لشهدت
على به الجمادات فضلاً عن ينطق ولكني عثرت فأقل وزلت فاصفح
فقال المعتمد هيئات انها عثرة لا تقال وأمر به فأحدر في النهر الى اشبيلية
فدخل به اشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة
على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق الى وقتنا هذا
فطال سجنه هناك كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توصل بها الى
الدهر لنزع عن جوره أو الى الفلك لكف عن دوره فكانت رقي لم
تنجع ودعوات لم تسمع وتماثم لم تنفع فمنها قوله

سجايك ان عافيت أندى وأرجح
وان كانت بين الخطتين مزية
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع
فان رجائي ان عندك غير ما
ولم لا وقد أسلفت ودأ وخدمة
وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد
أقاني بما بيني وبينك من رضى
وعف على آثار جرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
سيأتيك في أمرى حديث وقد أتى
وما ذاك الا ما علمت فأنني
كأنني بهم لا در لله درهم
وقالوا سيجزيه فلان بفعله

وعذر لك ان عاقبت أجلى وأوضح
فأتت الى الأدنى من الله تجرح
عداى ولو أننوا عليك وأفصحوا
ينحوض عدوي اليوم فيه ويمرح
يكران في ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال تمت تصلح
له نحو روح الله باب مفتوح
بهمة رحمي منك تمحو وتمصح
فكل اناء بالذى فيه يرشح
بذور بني عبد العزيز موشح
اذا ثبت لا نفسك أسو وأجرح
أشاروا تهاجى بالثلمات وصرحوا
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

إلا أن بطشا للمؤيد يرتقى
 وماذا عسي الواشون أن يزيدوا
 نعم لي ذنب غير أن لحامه
 عليه سلام كيف دار به الهوى
 ويهينه أن مت السلو فأنى
 وبين ضلوعي من هواء تيمة
 ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل
 من البغداديين فجعل يزري على هذا البيت وبين ضلوعي ويقول ما
 أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال أمالئن سابه
 الله المروءة والوفاء لما أعدمه القطنة والذكاء إنما نظر الى بيت الهزلي
 من طرف خفي وهو

وإذا المنية أنشبت أطفارها الفيت كل تيمة لاتنفع

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد الى أن قتله صبراً في شهر سنة ٤٧٩
 وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب اليه بالقصيدة التي تقدم انشادها
 فأدركت المعتمد بعض الرقة فوجه اليه ليلاً وهو في بعض مجالس انسه
 فأتى به يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله فلم
 يكن لابن عمار جواب ولا عزير غير أنه أخذ في البكاء وجعل يترقق
 للمعتمد ويمسح عطفه ويستجلب من الالفاظ كل ما يقدر أنه يزرع
 له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعد ما أراد من ذلك وعطفت المعتمد
 عليه سابقته وقديم حرمة فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً
 لاصريحاً وأمر برده الى محبسه فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع
 المعتمد الي ابنه الراضى بالله فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم

وبين ابن عمار أحسن قديمة فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم ما أرى
 ابن عمار الا سيتخلص فقالوا له ومن اين علم مولانا ذلك فقال هذا
 كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص فأظهر
 القوم الفرح وهم يبطنون غيره فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا
 حديث ابن عمار فأصبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب
 عن ذكرها فباع المعتمد ذلك فأرسل الي ابن عمار وقال له هل أخبرت
 أحدا بما كان بيني وبينك البارحة فانكر ابن عمار كل الإنكار فقال
 المعتمد للرسول قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في احدهما
 القصيدة فما فعلت الأخرى فادعى أنه بريض فيها القصيدة فقال المعتمد
 هلم المسودة فلم يجد جواباً فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى
 صعد العرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف
 وقيوده تنقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما واعتمد لايثنيه
 شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربه به حتى بردورجع
 المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك فهذا
 ما انتهى اليه من خبر ابن عمار ملخصا حسب ما بقي على خاطري
 ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته والايام تساعده والدهر على
 ما يريد يوازره ويعاضده الي أن انتظم له في ملكه من بلاد الاندلس ما
 لم ينتظم لملك قبله أعني من المتغلبين ودخلت في طاعته مدن من مدائها
 أعيت الملوك وأعجزتهم وامتدت مملكته الي أن بلغت مدينة مرسية
 وهي التي تعرف بتدمير بينها وبين اشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة
 وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة وكان تغلبه على قرطبة
 واخرجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١

ثم رجع الى اشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالأمون وهو أكبر ولده ولده في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً فكان المعتضد يضمه اليه ويقول يا عباد ياليت شعري من المقتول بقرطبة أنا أو أنت فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراکش الى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم فقيه يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرام زل وسأله عن حاجته فذكر انه يريد غزو الروم وانه يريد امداد أمير المسلمين اياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه فاسرع أمير المسلمين المذكور اجابته الى مادعاه اليه وقال له أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولي هذا الامر أحد الا أنا بنفسى فرجع المعتمد الى الاندلس مسروراً باعاف أمير المسلمين اياه في طلبته ولم يدر ان تدميره في تدميره وسئل سيفاً بحسبه له ولم يدر انه عليه فكان كما قال أبو فراس

إذا كان غير الله للمرء عدة أنته الرزايا من وجود الفوائد

كاجرت الخفاء حنف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

فاخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور الى جزيرة الاندلس وذلك في شهر جمادى الاولى من السنة المذكورة فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل فعب البحر بعسكر ضخم وكان عبوره من مدينة سبتة فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره واكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين وقدم اليه من الهدايا والتحف

والذخائر المملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك فكان هذا أول ما وقع
 في نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس ثم انه فصل عن
 الخضراء بجيوشه قاصداً شرقي الاندلس وسأله المعتمد دخول اشبيلية
 دار ملكه ليستريح فيها أياما حتي تزول عنه وعناء السفر ثم يقصد قصده
 فابى عليه وقال انما جئت ناويا جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت
 وجهه وكان الادفئش لعنه الله محاصراً لحصن من حصون المسلمين
 يعرف بحصن الليط فلما بلغه عبور البربر أفلح عن الحصن راجعاً
 الي بلاده مستغفراً عما كره ليلقي بهم البربر وتوجه يوسف المذكور
 الي شرقي الاندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر والاصلاح بين المعتمد
 على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم
 ذكره في أخبار ابن عمار فاصالح بينهما يوسف أمير المسلمين على ان
 يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك ما لا يجعله
 له ويؤليه في جهة اشبيلية أضخم ولاية فاجابه ابن رشيق الي ذلك وتسلم
 المعتمد مرسية وأعمالها ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الاندلس
 الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب
 المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ثم ان يوسف المذكور
 استعرض جنده على حصن لرقفة فرأى منهم ما يسره فقال للمعتمد على
 الله هلم ماجئاً له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من
 الاقامة بجزيرة الاندلس ويتشوق الي مراكن ويصغر قدر الاندلس
 ويقول في أكثر أوقاله كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل ان
 نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسواً
 في ارتقاء نخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد

أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر
الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل
ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتبة زهاء
عشرين ألفاً والتقواهم والعدو بأول بلاد الروم وكان الادفنش لعنه
الله قد استنفر الصغير والكبير ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على
النهوض إلا استنهضه وجاء يحرق الشوك والشجر وإنما كان مقصوده
الاعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم فاما
ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد الا يؤدي اليه الاتاة وهم كانوا
أحققر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم ولما تراءى الجمعان من المسلمين
والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد
وجودة سلاح وخيل وظهور قوة فقال للمعتمد ما كنت أظن هذا
اخذنير لعنه الله يباغ هذا الحد وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من
يعظمهم ويذكروهم فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال
الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون وكان تراءى يوم الخميس وهو الثاني
عشر من شهر رمضان فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف
ليستعد الفريقان فكان من قول الادفنش لعنه الله الجمعة لكم والسبت
للإهود وهم وزراؤنا وكتابتنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا
عنهم والاحد لنا فاذا كان يوم الاثنين كان ما يريد من الزحف وقصد
لعنه الله مخادعة المسلمين واعتياهم فلم يتم له ما قصد فاما كان يوم الجمعة
تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمانة عندهم للقتال ونفى يوسف بن
تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر بخروج هو وأصحابه في ثياب
الزينة للصلاة فاما المعتمد فانه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكياً

السلاح وقال لامير المسلمين صل في أصحابك فهذا يوم ماتطيب نفسي فيه وهأنا من وراءكم وما أظن هذا الخنزير الا قد أضمر الفتك بالمسلمين فآخذ يوسف وأصحابه في الصلاة فلما عقدوا الركعة الاولى نارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى وحمل الادفش لعنه الله في أصحابه يظن انه قد انتهر الفرصة واذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لاحد من قبله وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان فآظهر يوسف ابن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والنبات ما لم يكن يحسبه المعتمد وهزم الله العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ونجا الادفش لعنه الله في تسعة من أصحابه فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالاندلس أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته وقطع طمع الادفش لعنه الله عن الجزيرة بعد ان كان يقدر انها في ملكه وان رؤسها خدما له وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم فسر بهم أهل الاندلس وأظهروا التيمن بامير المسلمين والتبرك به وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر له من الثناء بجزيرة الاندلس ما زاده طمعاً فيها وذلك ان الاندلس كانت قبله بصدد التلافي من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها فاطبة فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين أظهر الناس اعظامه ونشأ له الود في الصدور ثم انه أحب ان يجول في الاندلس على طريق التفرج والتنزه وهو يريد غير

ذلك فحال فيها ونال من ذلك ما أحب وفي خلال ذلك كله يظهر اعظام
المعتمد واجلاله ويقول مصرحاً انما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت
أمره وواقفون عند ما يحده وكان ممن اختص بأمر المسلمين من ملوك
الجزيرة وحظي عنده واشتد تقرب أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن
معن بن صامح المعتمد صاحب المرية وكان المعتمد هذا قديم الحسد
للمعتمد كثير النقاسة عليه لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره
وربما كانت بينهما في بعض الاوقات مراسلات قبيحة وكان المعتمد
يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءة
ونزاهة نفسه وظهاره سريرة وشدة ملوكيته وقد كان المعتمد قبل عور
أمير المسلمين يسير توجه الى شرقي الاندلس يتطوف على مملكته
ويطالع أحوال عماله ورعيته فلما داني أول بلاد المعتمد خرج اليه في
وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبلا وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك
ثم اتفقا بعد طول مراودة على ان يجتمعا في أول حدود بلاد المعتمد وآخر
حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطالحا في الظاهر واحتفل المعتمد في
أكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس
الانس ما ظننه مكماً للمعتمد مثيراً لغمه وقد أعاد الله المعتمد من ذلك
وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه ثم افترقا بعد ان أقام المعتمد
عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد الى بلاده وبأثر ذلك عبر الى
مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتمد معموراً الى ان عبر أمير المسلمين
كما ذكرنا فلقبه المعتمد بهدايا فاخرة وتحف جلييلة وتلطف في خدمته
حتى قربه أمير المسلمين أشد تقرب وكان يقول لأصحابه هذان رجلا
هذه الجزيرة يعني المعتمد والمعتمد وكان أكبر أسباب تقرب أمير

المسلمين اياه تناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ووصفه اياه عنده بكل
 فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به ولما اشتد تمكن
 المعتصم من أمير المسلمين بداله ان يسعى في تغيير قلبه على المعتمد
 وافساد ما بينهما حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريره وضعف بصره
 بعواقب الامور وليقضى الله أمراً كان منفعولاً وليبلغ القدر ميقانه واذا
 أراد الله تمام أمره اياه له أسباباً فتسرعت المعتصم فيما اراده من ذلك ولم
 يدركه ساقط في البئر التي حفر وقتيل بالسلاح الذي شهر فكان من
 جملة ما ألقى الي أمير المسلمين ان جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه
 وفرط كبره وانه لا يرى أحداً كفوءاً له وزعم انه قال له في بعض
 الايام وقد قال له المعتصم طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة يعني أمير
 المسلمين لو عوجت له أصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه
 وكانك تخاف غائلته وأى شيء هذا المسكين وأصحابه انما هم قوم كانوا
 في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئناهم الي هذه
 البلاد نطعمهم حسبة واستجاراً فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الي بلادهم
 الي أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعانه على ذلك قوم من وجوه
 الاندلس الي ان باغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير المسلمين
 على المعتمد وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولاصحابه أجلاً وحده
 له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها وانما فعل ذلك تطييباً
 لقلب المعتمد وتسكيناً لحاظره فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر أمير
 المسلمين الي العدو وقد وغر صدره وتغيرت نفسه

وما النفس الا نطفة في قرارة اذ لم تكدر كان صفواً غديرها
 هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوُّفه الي مملكته وظهرت

للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها انه غير عليه ورجع أمير
 المسلمين الى مرا كش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد فبلغني
 انه قال لبعض ثقائه من وجوه أصحابه كنت أظن اني قد ملكت شيئاً
 فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحياة في تحصيلها
 خافق رأيه ورأى أصحابه على أن يرأسوا المعتمد يستأذنونهم في رجال من
 صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون
 ببعض الحصون المصاوبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد
 بذلك فأذن لهم بعد ان وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب
 النغور وانما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم
 مشهورين بالجزيرة في بلادها فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار
 لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً وقد كانت قلوب أهل الأندلس
 كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه فجهز يوسف من خيار
 أصحابه رجالاً تختبئهم وأمر عليهم رجالاً من قرابته يسمى بلجين وأسر
 اليه ما أراد من خيول الجيوش المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة
 فقال له أين تأمرني بالكون فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله
 ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه
 وأقاموا هناك إلى ان نارت الفتنة على المعتمد وكان مبدأها في شوال من
 سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقاومة لطنجة من العدو دون مقدمة
 ظاهرة توجب ذلك فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتزمة وانتشرت بلاده
 وقلوب أهلها على محبته منتظمة ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف
 ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الأندلس وزحف القوم
 الذين قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها

عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون وقد تقدم ذكره وهو من أكبر ولده
 فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً وأظهر في الدفاع
 عن نفسه جلدأً وصبراً وذلك في مستهل صفر الكاثر في سنة ٤٨٤
 فزادت الأحنة والمحنة واستمرت في غلوائها الفتنة وأجمعت على الثورة
 بحضرة اشبيلية طائفة فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف
 له عن مرادها وأثبت عنده سوء اعتقادها وأغرى بتمزيق أديتها وسفك
 دمها وحض على هتك حرمتها وكنف حرمتها فإني له ذلك مجده
 الأثيل ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل وما حياه الله به من حسن
 اليقين وصحة العقل والدين إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف
 رجب من السنة المذكورة فقاموا بحيش غير مستنصر واستنصروا بغنائاً
 غير مستنصر فبرز هو من قصره سيفه بيديه وغلالاته ترف على جسده
 لا درقة له ولا درع عليه فأتى على باب من أبواب المدينة يسعى باب
 الفرج فارساً من الداخين مشهور النجدة شاكي السلاح فرماه الفارس
 برمح قصير أناب القناة طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغللاته
 وخرج تحت إبطه وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه وصب هو سيفه
 على عاتق الفارس فشقّه إلى أضلاعه فخر صريعاً وانهمزمت تلك الجموع
 ونزل المتسعمون للأسوار عنها وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس
 فلما كان عصر ذلك اليوم : علو دهم القوم : فظهر على البلد من واديه :
 ويئس من سكني نادية : وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه : وشبت النار
 في شوانيه : فانقطع عندها العمل والقول : وذهبت القوة من أيدي
 أهلها والحول : وكان الذي ظهر عايتها من جهة البر رجل من أصحاب
 يوسف أمير المسلمين يعرف بمحدير بن واستوا ومن الوادي رجل

يعرف بالقائد أبي حماسة مولى بني سحوت والتوت الحلال اياماً يسيرة
الى ان ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير
المسلمين بعساكر متظاهرة : وحشود من الرعية وافرة : والناس في
خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع : وخالط قلوبهم الهلع : يقطعون
السبل سياحه : ويعبرون النهر سباحه : ويتولجون بحارى الأقدار :
ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد :
المقيمون على صريح الود : نابتون الى ان كان يوم الأحد لاحدى
وعشرين ليلة خات من رجب من السنة المذكورة وهذا يوم الكائنة
العظمى : والظامة الكبرى : فيه حم الأمر الواقع : واتسع الخرق على
الراقع : ودخل البلد من واديه : وأصيب حاضره وباده : بعد ان
جد الفريقان في القتال : واجتهدت الفئتان في النزال : وظهر من دفاع
المعتمد رحمه الله وباسه : وتراميه على الموت بنفسه : مالا مزيد عليه :
ولا تناه خلق اليه : وفي ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة
أسيراً حسيراً

لما تماكنت الدموع	وتنهت القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضو	ع على في السم النقيع
ان تستلب عني الدني	ملكي وتساهني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف العطا	ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصني الدروع
وبرزت ليس سوى القمية	ص عن الحشنى شئ دفعوع

وبذات نفسى كي تسيـل اذا يسيل بها النجيع
 أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخشوع
 ما سرت قط الى القنا لو كان من أملى الرجوع
 شيم الاولى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

فشننة الغارذ في البلد ولم يترك البربر لاحد من أهلها سبداً ولا لبدأ
 وانتهت قصور المعتمد بها قبيحاً وأخذ هو قبضاً باليد وجبر على
 مخاطبة ابنه المعتمد بالله والراضى بالله وكانا بمعقلين من معاقل الاندلس
 المشهورة لو شاء ان يمتنعا بهما لم يصل أحد اليهما أحد الحصنين يسمى
 رندة والاخر مارتاة فكتب رحمه الله وكتبته السيدة الكبرى أمهما
 مستعطفين مسترحمين معلمين ان دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فانفا
 من الذل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أيهما ثم عطفتهما
 عواطف الرحمة ونظرا في حقوق أبيهما المقترنة بحق الله عز وجل
 فتمسك كل منهما بدينه ونبتذ دنياه ونزلا عن الحصنين بعد عهود
 مبرمة وموانيق محكمة فاما المعتمد بالله فان القائد الواصل اليه قبض عند
 نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره
 قتل غيلة وأخفى جسده ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع
 أحواله ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد فرك السفين وحل بالعدوة
 محل الدفين فكان نزوله من العدو بطنجة فاقام بها أياما ولقيه بها
 الحصري الشاعر فخرى معه على سوء عاذته من قبح الكدية وإفراط
 الحلاف فرفع اليه اشعاراً قديمة قد كان مدحه بها وأضاف الى ذلك
 قصيدة استجدها عند وصوله اليه ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم
 مما زوده فيها باغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا فطبع عاها وكتب

معها بقطعة شعر يعتذر من قاتنها سقطت من حفظي ووجه بها اليه فلم
يجابوه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا
الرجل أعنى الحصري الأعمي أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه
كان قليل الجيد منه فخره المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها

قل لمن قد جمع العالم وما أحصى صوابه

كان في الصرة شعر فتنظرنا جوابه

قد أنبئك فهلا جلب الشعر نوابه

ولما اتصل بزعائفة الشعراء وملحق أهل الكدية ما صنع المعتمد
رحمه الله مع الحصري تعرضوا له بكل طريق • وقصدوه من كل فج
عميق • فقال في ذلك رحمه الله

شعراء طيحة كلهم والمغرب	ذهبوا من الاغراب بعدهم ذهب
سئلوا العسير من الاسير وانه	بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزرة خطمية	طمي الحشا ساواهم في المطلب
قد كان ان سئل الندي يجزل وان	نادى الصريح ببابه اركب يركب

وله في هذا المعنى رحمه الله

قببح الدهر فماذا صنعنا	كما أعطى نفيساً نزعاً
قد هوى ظاماً بمن عادته	ان ينادي كل من هوى لعا
من اذا الغيت همى منهمرا	اخجلتها كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته	عصفت ربح به فانتشعا
من اذا قيل الحنا صم وان	نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله	قد أزال اليأس ذاك الطامعا
راح لا يملك الا دعوة	جبر الله العفاة الضيعة

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ثم
انتقل الى مدينة مكناسة فأقام بها شهراً الى أن نفذ الامر بتسييرهم
الى مدينة أغمات فأقاموا بها الى أن توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها
فقبره معروف هناك وكانت وفاته في شهر سنة ٨٧٠ وقيل سنة ٨
فأله أعلم وسنه يوم توفي احدي وخمسون سنة فمن أحسن ما مر بي بما
رئى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر بن اللبابة أوها

لكل شئ من الاشياء ميقات	ولله في من منايهن غايات
والدمر في صبغة الحرباء منغمس	والوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده	وربما قمرت باليه ذق الشاة
فانفض يدك من الدنيا وساكنها	فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الارضى قد كتمت	سريرة العالم العلوى اغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها	من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس انفصله	هندية وعطايا هبيدات
انكسرت الانتواء للقيود به	وكيف تنكر في الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست	من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليناً يخافوا منه عادية	عذرتهم فلعذوى الليث عادات
وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أوها	

تبكى السماء بدمع راتج غادى	على البهايل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الارض منهم ذات أوتاد
والرايات عليها اليانعات ذوت	انوارها فغدت في خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على	أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها	فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

خطب الزمان ثقافا غير معتاد
أيدى الردى وننتها دون انعام
وكل شيء لميقات وميعاد
هناك من درر للمجد أفراد
ذوي وذلك خبي من بعد ايقاد
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
خف القطين وجف الزرع بالوادي
لغير قصد فما يهديك من هادي

في المنشئات كأموات بالحداد
من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
ومزقت أوجه تمزيق ابراد
أهلا بأهل واولادا باولاد
وصارخ من مفداة ومن فادى
كأنها ابل يحدو بها الحادي
تلك القطائع من قطعات اكباد
ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى

وهي طويلة جداً هذا ما اخترت له منها وابن اللبانة هذا هو ابو
بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية وهي على ساحل البحر الرومي
كان يملكها مجاهد العامري وابنه على الموفق على ما تقدم ولا ابن اللبانة
هذا أخ اسمه عبد العزيز وكان شاعرين الا ان عبد العزيز منهم المبرض
الشعر صناعة ولا آخذة مكسبا وانما كان من جملة التجار وأما ابو بكر

تلك الرماح رماح الحظ ثقفا
والبيض بيض الظبا فلت مضاربا
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة
كم من درارى سعد قد هوت ووهت
نور ونور فهذا بعد نعمته
يا ضيف افقر بيت المكرمات نخذ
ويا مؤمل وادبهم ليسكنهم
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر
وفيه يقول

نسيت إلا غداة النهر كونهم
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا
حط القناع فلم تستر مخدرة
تفرقوا جيرة من بعد ما نشوا
حان الوداع فضجت كل صارخة
سارت سفائنهم والنوح يتبعها
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
من لى بكم يا بنى ماء السماء اذا

فرضيه بضاعة وتخييره مكسباً وأكثرمه وقصده المملوك فأخذ جوارهم
ونال أسنى الرتب عندهم وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المبيع
جمع بين سهوله الالفاظ ورشاققتها • وجودة المعاني ولطافتها • كان
منقطعاً الى المعتمد معدوداً في جملة شعرائه لم يفد عليه الا آخر
مدته فلماذا قل شعره الذي يمدحه به وكان رحمه الله مع سهولة الشعر
عليه واكثره منه قليل المعرفة بعلمه لم يجرد الخوض في علومه وانما
كان يعتمد في أكثره على جودة طبيعه وقوة قريحته يدل على ذلك
قوله في قصيدة له سيرد ما اختاره منها في موضعه

من كان ينفق من سواد كتابه فانا الذي من نور قلبي أنفق
ولما خلع المعتمد على الله واخرج من اشبيلية لم يزل أبو بكر هذا بقلب
في البلاد الى ان لحق بجزيرة مريقة وبها مبشر العامري المتلقب بالناصر
خطي عنده وعلت حاله معه وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء فمنها قصيدة
ركب فيها طريقة لم أسمع بها لمقدم ولا متأخر وذلك انه جعلها من
أولها الى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح وهذا لم أسمع به لاحد
وأول القصيدة

وضحت وقد فضحت ضياء النير	فكأنما التحفت بيشر بيشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته	ماقلدته محامدى من جوهر
وتكلمت فكان طيب حديثها	متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنقمة لفظها نفسى كا	هزت بذكراه أعالي المنسبر
أذنبت واستغفرتها فحرت على	عاداته في المذنب المستغفر
جادت على بوصلها فكانه	جدوى يديه على القمل المقترى
ولممت فاهها فاعتقدت بأننى	من كفه سوغت لثم الخنصر

سمحت بتعنيقي فقلت صليعة
 نهدي كقسوة قلبه في معرك
 ومعاطف تحت الذوائب خلتها
 حسنت امامي في خمار مثل ما
 وتوشحت فكأنه في جوشن
 غمزت ببعض قسيه من حاجب
 أومت بمصقول الماحظ ثقلته
 وضعت حشاياها فوق أرائك
 من رامة أو رومة لأعلم لي
 بنت الملوك فقل لكسرى فارس
 عادت فيها غر قومي فاغتدوا
 وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
 طافت على بجمرة من خمرة
 فكان أنملها سيوف مبشر
 ملك أزرة برده ضمت علي
 هذا ما اخترت له منها ومن تسيبه
 ويمدح مبشر أهذا

هالاً نراك علي قلب مشفق
 قد ضرت كالرمق الذي لا يرتجي
 وغرقت في دمعي عليك وغمئي
 هل خدعة بحية مخفية
 أنت المنية والمني فيك استوي
 فترى فراشاً في فراش يحرق
 ورجعت كالنفس الذي لا يلحق
 طرقي فهل سبب به أنعاق
 في جنب موعذك الذي لا يصدق
 ظل الغمامة والهجير المحرق

لك قد ذابلة الوشيح ولونها
ويقال لك ايكة حتي اذا
يامن رشقت الي السلو فردني
لو في يدي سحر وعندي اخذة
لتذوق ماقد ذقت من ألم الجوي
جسدي من الاعداء فيك لانه
لم يدريطك موضع من مضجعي
جفت عليك منابتي ومنابعي
وكان أعلام الأمير مبشر
وفيها يقول يصف لعب الاسطول في يوم المهرجان

بشرى بيوم المهرجان فانه
طارت بنات الماء فيه وربشها
وعلى الخليج كتيبة جرارة
وبنوا الحروب على الجواري التي
ملا الكماة ظهورها وبطونها
خاضت غدير الماء سابحة به
عجياً لها ماخلت قبل عيانها
هزت مجاديفاً اليك كأنها
وكانها أقلام كاتب دولة

وله فيها احسان كثير وله من قصيدة يتغزل

فؤادي معنى بالاحسان معنت
ولي نفس يخنى ويخفت رقة
وكل موق في التصابي موقت
ولكن جسمي منه أخفى وأخفت

لكنه جوخال ومضمار جهال وهي حكمة الله في الخلق وقسمته للرزق
 وأنا أعزك الله أرباً بقدر الذخيرة عن هذه النفث الاخيرة وأرى انها
 قد بلغت مداها واستوفت حلالها وأنا أخشى القدح في اختيارك والاخلال
 بمختارك وعلى ذلك فوالله مامن عادتي ان أنبت ما أكتب في رسم ينقل
 ولا في وضع المراتب عندما مخاطب يحتفله ويحتفل وانما هو عفو فكرر
 ويسير ذكر وعذراً أعزك الله فاني خططت ماخططته والنوم مغازل
 والقرن منازل والريح تلعب بالسراج وتصول عليه صولة الحجاج فطوراً
 تسدده سناناً وتارة تخرّكه لساناً وآونة تطويه حباية وأخرى تنشره
 ذؤابة وتقيمه أبرة لهب وتعطفه برة ذهب أو حمة عقرب وتقوسه حاجب
 فتاة ذات غمزات وتسلمطه على سايطة وتزيله عن خايطة وتخلعه نجماً
 وتمده رجماً وتسل روحه من ذبالة وتعيده الى حاله وربما نصبته أذن
 جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروف برق بكف ودق ولتمت
 بسناه قنديلته وألقت على أعطافه منديلته فلا حظ منه للعين ولا هداية في
 الطرس لليدين والليل زنجي الاديم تبرى النجوم قد جللنا ساجه وأغرقتنا
 أمواجه فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء
 لا كنتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصت والكلب قد صافح خيشومه
 ذنبه وأنكر البيت وطنبه والنوى التواء الحجاب واستمدار استمدارة
 الحجاب وجلده الجليد وضعد أنفاسه الصعيد خماء مباح ولا همرير ولا
 نباح والنسار كل حريق أو كالصديق كلاهما غنقاء مغرب أو نجم مغرب
 استوي الفصل ولاك في الأغضاء الفضل والسلم ولا بى تبسّد الله هذا
 ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهلا الاندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه
 ونصبوه امامنا يقتفونه منعنى من ايراد ما اختارله من ذلك خوف الخروج

الى التطويل الممل والاكثر الخلل فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه
 كاتبين لأمير المسلمين الى ان آخر أمير بالمسلمين أبو مروان عن الكتابة
 لموجدة كانت منه عليه سببها انه أمره وأخاه أبو عبد الله أن يكتب عنه
 الى جند بلنسية حين تحاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذير لعنه
 الله هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب أبو عبد الله رسالته
 المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الاندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن
 فيها ما شاء منعى من ايرادها ما فيها من الطول وكتب أبو مروان رسالة
 في ذلك الغرض أحسن فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر
 من الحاجة فمن فصولها قوله أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة الام يزيقكم
 الناقد ويردكم الفارس الواحد فابت لكم بارتباط الخيول ضائلا حالب
 قاعد لقد أن أن نوسعكم عقابا وألا تلونوا على وجه نقابا وان نعيدكم الى
 صحرائكم ونطهر الجزيرة من رجضائكم في أمثال لهذا القول فاحقق
 ذلك أمير المسلمين وأخبره عن كتابته وقال لابي عبد الله أخيه كفا في
 شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى
 ذلك أبو عبد الله استعفا فأعفا ورجع الى قرطبة بعد مامات أخوه
 أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره رحمه
 الله أول الفتنة الكائنة على المرابطين

واختلف حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الحسمائة اختلا لا شديدا
 فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكبر المرابطين على
 البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك الى التصريح فصار كل منهم
 يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه واستولى النساء
 على الاحوال وأسندت اليهن الامور وصارت كل امرأة من أكبر

لمثونة ومسوفة مشتتة على كل مفسد وشريد وقاطع سبيل وصاحب
 خمر وماخور وأمير المسلمين في ذلك كله يزيد تغافله ويقوى ضعفه وقنع
 باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل
 فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية
 غاية الاهمال فاختلف لذلك عليه كثير من بلاد الاندلس وكادت تعود
 الى حالها الاول لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى ﴾

ولما كانت سنة ٥١٥ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في
 صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ومحمد هذا رجل من أهل سوس
 مولدها بضيعة منها تعرف بالبحلي أن وارغن وهو من قبيلة تسمى هرغة من
 قوم يعرفون بأسر غين وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت
 نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه
 وكان قد رحل الى المشرق في شهر سنة ٥٠١ في طلب العلم وانتهى
 الى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول
 الدين وسمع الحديث علي المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من الحديثين
 وقيل انه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فأنه أعلم وحكى انه ذكر
 للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت الى المغرب من احراقها
 وافسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك
 ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولدهوما أحسب المتولى لذلك الاحضراً
 بحاسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه وكرّ
 راجعاً الى الاسكندرية فأقام بها يختلف الى مجلس أبي بكر الطرطوشي

الفقيه وجرت له بها وقائع في معنى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
 أفضت الى أن نفاء متولى الاسكندرية عن البلاد فركب البحر فبلغني
 انه استمر على عادته في السفينة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
 الى أن ألقاه أهل السفينة في البحر فأقام أكثر من نصف يوم يجرى
 في ماء السفينة لم يصبه شيء فلما رأوا ذلك من أمره انزلوا اليه من
 أخذه من البحر وعظم في صدورهم ولم يزالوا مكرمين له الى أن
 نزل من بلاد المغرب بجاية فظهر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع
 عليه الناس ومالت اليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها
 حين خاف عاديته فخرج منها متوجها الى المغرب فنزل بضبعة يقال
 لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو إذذاك
 متوجه الى المشرق في طلب العلم فلما رآه محمد بن تومرت عرفه بالعلامات
 التي كانت عنده وكان ابن تومرت هذا أوحده عصره في علم خط الرمل
 مع انه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض
 خزائن خلفاء بني العباس أوصله الى ذلك كله فرط اعتناؤه بهذا الشأن
 وما كان يحدث به نفسه وبلغني من طنق صحاح انه لما نزل ملالة الضبعة
 التي تقدم ذكرها سمع وهو يقول ملالة ملالة يكررها على لسانه يتأمل
 أحرفها وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولا مان
 فكان كما ذكرنا اذا كررها يقول ليست هي وأقام بهذه الضبعة أشهراً
 وبها مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم لا أدري أبني على عهد أو
 بعده فاستدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه
 فتسمى له وانتسب وسأله عن مقصده فآخبره انه راحل في طلب العلم
 الى المشرق فقال له ابن تومرت أو خير من ذلك قال وما هو قال شرف

الدنيا والآخرة تصحبنى وتعيننى على ما أنا بصدد من أمانة المنكر وأحياء العلم واتخاذ البدع فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده وأقام ابن تومرت بملاحة أشهر أتم رحل عنها وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقي وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن وخرج متوجهاً الى المغرب وقيل انه انما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية انذ كورة فسأله ابن تومرت صحبته والقراءة عليه واعانته بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم وبهذه القرية له حكاية ظريفة وذلك انه رأى وهو بها في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف في صحفة واحدة قال ثم زاد أكلى على أكله وأحسست من نفسى شرها الى الطعام ولم يزل ذلك بي الى أن اختطفت الصحيفة من بين يديه وانفردت بها فلما نثبته قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير يكنى أبا محمد كان يقرأ عليه فلما أتى على آخرها قال يا بني يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك انما هي لرجل ناثر يشور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتهما وانفق له فيها أيضاً من العجائب التي تثبت في باب الكلام الموافقة للقدر ان رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصنهاجى صاحب بجاية والقاعة وجد عليه الملك العزيز فاشتد خوفه فهرب منه الى هذه الضيعة التي كان فيها عبد المؤمن فكان معه بها يعلم الصبيان وانتهت حال ذلك الرجل الى غاية الافلال ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه فبلغه ذلك فسار الى بجاية فدخل عليه فسأله أين كنت في هذه الايام فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يميونونه بالكسر فضحك وقال الضيعة لك وما والاها

وأمر له بمال ومركب وثياب فخرج الرجل الى الضيعة في خيل ورجل معه وخرج اليه أهلها يتلقونه فأتى الصبيان عبيد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد فقالوا له أتعرف من هذا الذي أهدرت له هذه الارض قال لا قالوا هو فلان صاحبك الذي كان يعاملنا معك فقال ان كانت حالة فلان انتهت الى هذا فلا بد أن أكون انا غداً أمير المؤمنين فكان الامر كما قال ووافقت كلمته القدر وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً الى المغرب حتى أتى مدينة تلمسان فأقام بمسجد يظاهرها يعرف بالعباد جارياً على عادته وكان قد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة فلا يراه أحد الا هابة وعظم أمره وكان شديد الصمت كثير الانقباض اذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العباد انه خرج عليهم ذات ليلة بعد ماضى العتمة فنظر اليهم وقال اين فلان لرجل كان يصحبهم فأخبروه انه مسجون فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه حتى أتى باب المدينة فدق على البواب دقاً عنيفاً واستفتح فأجابه البواب الى الفتح بسرعة من غير تسلي ولا ابطاء ولو استفتح أمير المؤمنين لتعذر ذلك عليه ودخل حتى أتى السجن فاستدري اليه السجناء والحرس يتسبحون به ونادي يا فلان باسم صاحبهم فأجابه فقال اخرج فخرج والسجناء ينظرون اليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد وكانت هذه عادته في كل ما يريد لا يتعذر عليه مراد ولا يتمتع عليه مطلوب قد سخرت له الرعية وذلت له الجبابة ولم يزل مقبلاً بتلمسان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور الي ان فصل عنها بعد ان استمال وجوه أهلها وملاك قلوبها فخرج قاصداً

مدينة فاس فلما وصل اليها اظهر ما كان يظهره وتحدث فيها كان يتحدث فيه من العلم وكان جل ما يدعو اليه علم الاعتقاد على طريق الاشعرية وكان أهل المغرب على ما ذكرنا يتنافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك فجمع والى المدينة الفقهاء وأحضره معهم فحرت له مناظرة كان له الشقوف فيها والظهور لانه وجد جواً خالياً وألقى قوماً صيماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والى البلد باخراجه لئلا يفسد عقول العوام فأمره والى البلد بالخروج فخرج متوجهاً الى مراكش وكتب بحبره الى أمير المسلمين على بن يوسف فلما دخلها أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا رجل من أهل الاندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم الا انه كان لا يظهر الا ما ينفق في ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم رأيت له كتاباً سماه قراضة الذهب في ذكر لثام العرب ضمنه لثام العرب في الجاهلية والاسلام وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيت في خزانه نبي عبد المؤمن ومالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطلميوس في الاحكام وكتاب المجسطي في علم الهيئة وعليه حواش بتقييده أيام قراءته اياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدة نفسه وذكاة خاطره واتساع عبارته فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال هذا رجل مفسد لا تؤمن غائته ولا يسمع كلامه أحد الا مال اليه وان وقع هذا في بلاد المصامدة نار علينا منه شر كثير فتوقف أمير المسلمين في قتله وأبى ذلك عليه دينه

وكان رجلاً صالحاً بحاج الدعوة يعد في قوام الليل وصوام النهار الا
 انه كان ضعيفاً مستضعفاً ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش
 شنيعة من استيلاء النساء على الاحوال واستبدادهن بالامور وكان كل
 شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب الى امرأة قد جعلها ملجأ له
 وزراً على ما تقدم فلما ينس مالك مما أراده من قتل ابن نومرت أشار
 عليه بسجنه حتى يموت فقال أمير المسلمين علام ناخذ رجلاً من المسلمين
 نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق وهل السجن الا أخو القتل ولكن
 نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء فخرج هو وأصحابه
 متوجهاً الى سوس فزل بموضع منها يعرف بتينمل من هذا الموضع
 قامت دعوته وبه قبره ولما نزل اجتمع اليه وجوه المصامدة فتمرع في
 تدريس العلم والدعاء الى الخير من غير أن يظهر أمره ولا طلبه ملك
 وألف لهم عقيدة بلسانهم وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان فلما
 فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشرقت قلوبهم بحبته
 وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولاً على صورة
 الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ونهاهم عن سفك الدماء ولم
 يأذن لهم فيها وأقاموا على ذلك مدة وأمر رجلاً منهم بمن استصلح
 عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي
 ويشوق اليه وجمع الاحاديث التي جاءت فيه من المصنفات فلما قرروا
 نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه وقال أنا محمد بن
 عبد الله ورفع نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى
 العصمة لنفسه وانه المهدي المعصوم وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى
 استقر عندهم انه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال أبايعكم على

ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله ثم صنف لهم
 تصنيف في العلم منها كتاب سماه أعز ما يطلب وعقائد في أصول الدين
 وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل الا في إثبات
 الصفات فانه وافق المعتزلة في نفها وفي مسائل قليلة غيرها وكان يبطن شيئاً
 من التشيع غير انه لم يظهر منه الى العامة شئ وصنف أصحابه طبقات
 فجعل منهم العشرة وهم المهاجرون الاولون الذين اسرعوا الى اجابته
 وهم المسمون بالجماعة وجعل منهم الخمسين وهم الطبقة الثانية وهذه
 الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى وكان يسميهم
 المؤمنين ويقول لهم ما على وجه الارض من يومن ايمانكم وأنتم العصابة
 المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين
 علي الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وأنتم الذين يفتح الله
 بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الامير الذي يصلي بعيسى بن
 مريم ولا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة هذا مع جزئيات كان يخبرهم
 بها وقع أكثرها وكان يقول لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة
 فزادت فتنة القوم به وأظهر واله شدة الطاعة وقد نظم هذا الذي وصفناه
 من قول ابن تومرت في تخليد هذا الامر رجل من أهل الجزائر مدينة
 من أعمال بجاية وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو يتنمل فقام
 علي قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأشد قصيدة أولها

سلام على قبر الامام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحبي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر اسرار الكتاب المسدد
أنتابه البشرى بأن يلا الدنيا	بقسط وعدل في الانام مخلد

ويفتح الامصار شرقا ومغربا
فمن وصفه أفتى وأجلى إوانه
زمان واسم والمكان ونسبة
ويلبث سبعا أو قسعا يعيشها
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا
وتبعه للنصر طائفة الهدي
هي النلة المذكور في الذكر أمرها
ويقدمها المنصور والناصر الذي
هو المنتقى من قيس عيلان مفخرا
خليفة مهدي الاله وسيفه
بهم يجمع الله الجبارة الاولى
ويقطع أيام الجبارة التي
فيغزون اعصاب الجزيرة عنوة
ويفتحون الروم فتح غنية
ويعدون للدجال يغزونه ضحاً
ويقتله في باب لد ونجلى
وينزل عيسى فيهم وأميرهم
يصلي بهم ذلك الامير صلاتهم
في مسح بالكفين منه وجوههم
وما إن زال الامر فيه وفيهم
فأبلاغ أمير المؤمنين تحية
عليه سلام الله مادر شارق

ويملك عربا من مغير ومنجد
علاماته خمس تبين لمهدي
وفعل له في عصمة وتأيد
كذا جاء في نص من النقل مسند
فدلكم المهدي بالله يهتدي
فأكرمهم اخوان ذي الصدق أحمد
وطائفة المهدي بالحق تهتدي
له النصر حزب اذ يروح ويقتدي
ومن مرة أهل الجلال الموطد
ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
يصدون عن حكم من الحق مرشد
أبادت من الاسلام كل مشيد
ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويقتسمون المال بلترس عن يد
يذيقونه حداً الحسام المهند
شكوك أملت قلب من لم يوحده
امام فيدعوهم لمحراب مسجد
بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
وينخبرهم حقاً بعز مجد
الى آخر الدهر الطويل المسرمد
على النأي في والوداد المأكد
وما صدر الورد عن ورد مورد

وقد قيل ان منشى هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم يشهدها
 بنفسه منعه عن ذلك الكبيرة وبعد الشقة وانما أرسل بها فأنشدت على
 قبر الامام وكان عمله اياها وعبد المؤمن حي قاله أعلم وهي طويلة هذا
 ما اخترت له منها ولم أوردتها في هذا الموضع لانها من مختار الشعر ولكن
 لموافقها الفصل الذي قبلها ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر
 وفتنهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد الى أن بلغوا في ذلك الى حد لو
 أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير ابطاء
 وأعانهم على ذلك وهونه عليهم مافي طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم
 وهذا أمر جبات عليه فطرمهم واقتضاه ميل اقليمهم حكى أبو عبيد
 البكري الاندلسي ثم القرطبي في كتابه المرسوم بالملك والممالك عن
 رجال له قال أهديت الى الاسكندر فرس ببعض بلاد الغرب لم تلد
 الخيل أسبق منها لم يكن فيها عيب الا أنها لم يسمع لها صهيل قط فلما حل
 الاسكندر في تطوافه بجبال درن وهي بلاد المصامدة وشربت تلك
 الفرس من مياهها صهلت صهالة اصطكت منها الجبال فكتب الاسكندر
 الى الحكيم يخبره بذلك فكتب اليه أنها بالادشر وقسوة فعجل الخروج
 منها فهذه حال بلاد القوم وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شاهدت أنا
 منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز
 جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل مع من انضاف اليهم من
 أهل سوس وقال لهم اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا
 بالمرابطين فادعوهم الى امانة المنكر وأحياء المعروف وازالة البدع والافرار
 بالامام المهدي المعصوم فان أجابوكم فهم اخوانكم لكم ما لهم وعليهم
 ما عليكم وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم وأمر على

الجيش عبد المؤمن بن علي وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق
عبد المؤمن من يومئذ اسم امرة المؤمنين وخرجوا قاصدين مدينة
مراكش فلقبهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة بجيش ضخم
من مبراة لمنونة أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين فلما تراءى
الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم الى ما أمرهم به ابن تومرت
فردوا عليهم أسوأ رد وكنت عبد المؤمن الى أمير المسلمين علي بن
يوسف بما عهد اليه محمد بن تومرت فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة
مفارقة الجماعة ويدكره الله في سفك الدماء وانارة الفتنة فلم يردع ذلك
عبد المؤمن بل زاده طمعاً في المرابطين وحقق عنده ضعفهم فالتقت
الفتتان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ونجا عبد المؤمن في نفر
من أصحابه فلما جاء الخبر لابن تومرت قال أليس قد نجا عبد المؤمن
قالوا نعم قال لم يفقد أحد ولما رجع القوم الى ابن تومرت جعل يهون
عليهم أمر الهزيمة وتقرر عندهم ان قتلاهم شهداء لانهم ذابون عن دين
الله مظهرون للسنة فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم وحرصاً على لقاء
عدوهم ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش
ويقطعون عنها موائع المعاش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون ولا
يبقون على أحد ممن قدروا عليه وكثر لداخلون في طاعتهم والمنحاشون
اليهم وابن تومرت في ذلك كله يكثر التزهّد والتقليل ويظهر التشبه
بالصالحين والتشدد في اقامة الحدود جارياً في ذلك على السنة الاولى
أخبرني من رآه ممن أثق اليه يضرب الناس على الحجر بالأكام والنعال
وعسب النخل متشبهاً في ذلك بالصحابية ولقد أخبرني بعض من شهدته وقد
أني برجل سكران فأمر بحده فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى

يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها فاعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فاعرض عنه فلما كان في الثالثة قال له أ رأيت لو قال لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان مانحن صانعون فاستحيا الرجل وسكت ثم كشف على الأمر فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه فسكر هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيما إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر ولم يزل كذلك وأحواله صالحة وأصحائه ظاهرون وأحوال المرابطين المذكورين تختل وانتقاض دولهم يتزايد إلى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهر ربيع سنة ٥٣٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه

﴿ ذكر ولاية عبد المؤمن ﴾

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة وانفقت على تقديمه الجماعة وكان الذين سعوا في تقديمه وهيثوا ذلك له ثلاثة وهم من أهل الجماعة عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر ازناج وعمر بن ومزال الذي كان اسمه قبل هذا فضكة فسماه ابن تومرت عمر يعرفونه بعمر إينتي وعبد الله بن سليمان من أهل تنممل من قبيلة يقال لها مسكالة ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسلمين بالجماعة وأهل خمسين وهم كما ذكرنا من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ما كانوا

عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم وإن أحدهم كان لا تأخذه
في الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه في الحر وتصميمه
على الحق في أشباه هذه الفصول ثم قال فانقرضت هذه العصابة نصر
الله وجوهرها وشكرها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيا وخبطت الناس
فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم متجاهل مدهاناً فلم ينتفع العلماء بعلمهم
بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس اليهم في
أشياء لهذا القول الى هلم جرا ثم ان الله سبحانه وله الحمد من عليكم
أيها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيد
وقيض لكم من الفاكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون لا تغرفون
معروفا ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل
وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها وأربأ
بلفظي عن ذكرها فهذاكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم
بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين
وسورنكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضرته قلوبهم وما
ربك بظلام للعبيد فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروهم الشكر
قولا وفعلا ما يركى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا
الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم
فإنكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر اتباعكم
وأظهر الله الحق على أيديكم والا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار
واحقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة وعليكم في جميع أموركم بمنزج
الرافة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه لا يصلح أمر آخر
هذه الامة الاعلى الذى صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلا

منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد ان بلوانه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرة وعلايته فرأيناه في ذلك كله نبأ في دينه متبصراً في أمره وانى لارجو أن لا يخلف الظن فيه وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله بقلده من شاء من عباده فباع القوم عبد المؤمن ودعاهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً فهذا سبب امرة عبد المؤمن رحمه الله ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن

(فصل) وعبد المؤمن وهذا هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي أمه حرة كومية أيضاً من قوم يقال لهم بنوا مجبر مولده بضیعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا وقيل انه كان يقول اذا ذكر كنية است منهم وانما نحن لقيس عيلان بن مضر بن زرار بن معد بن عدنان ولكنية علينا حق الولادة بينهم والمنشا فيهم وهم الاخوال وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر وبهذا استجار الخطباء أن يقولوا اذا ذكروه بعدا بن تومرت قسيمة رضى الله عنه في النسب الكريم كان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جادى الآخرة سنة ٥٥٨ ومدة ولايته من حين استوثق له الامر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين في سنة ٣٧ على التحقيق احدى وعشرين سنة الى أن توفي في التاريخ المذكور وكان أبيض ذا جسم عظم تعلوه حمرة شديدة سواد الشعر معتدل القامة وضى الوجه جهورى الصوت فصيح الالفاظ جزل المنطق وكان محببا

الى النفوس لا يراه أحد الا أحبه بديهة وبالفهي أن ابن تومرت كان
ينشد كلما رآه

تكملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة والصدر منشرح والوجه منبسط
أولاده كان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر
ولده وولى عهده وهو الذي خلع وعلى وعمر ويسف وغثمان وسليمان
ويحيى واسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى
وموسي واراھيم ويقوب ووزراؤه وزر له في أول الامر أبو حفص
عمر أرنج الى أن استمر الامر واستقل عبد المؤمن فأجل أبا حنص
هذا عن الوزارة وربما بقدره عنها اذ كان عندهم فوق ذلك واستوزر
أبا جعفر أحمد بن عطية فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود في
الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له الى أن افتتحوا بجاية
فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نهاء الكتاب يقال له أبو
القاسم القالمى وسيأتي ذكره في كتابه واستمرت وزارة أبي جعفر الى
أن قتله عبد المؤمن في شهر سنة ٥٣ واستصفي أمواله ثم وزر له عبد
السلام الكومى وكان يدعى المقرب لشدة تقرب عبد المؤمن اياه فاستمرت
وزارة عبد السلام هذا الى أن أرسل اليه عبد المؤمن من قتله خنقا في
شهر سنة ٥٥٧ ثم وزر له ابنه عمر الى أن توفي عبد المؤمن بكتابه أبو
جعفر أحمد بن عطية المذكور في الوزراء كان قبل اتصاله بعبد المؤمن
وفي الدولة الامتونية يكتب لعل بن يوسف في آخر أيامه وكتب عن
تاشفين بن علي بن يوسف فلما انقضى أمرهم هرب وغير هيئته واتشبه
بالجند وكان محمداً للرعى وكان في الجند الذين خرجوا الى سوس لقتال

نأثر قام هناك كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر أبنى المتقدم
 الذكر في أهل الجماعة فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقتل هو وانفضت
 تلك الجموع طاب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة الى
 الموحدين الذين بمرا كس فدل على أبي جعفر هذا ونبه على مكانه
 فاستعداء وكتب عنه الى الموحدين رسالة في شرح الحال أجاد في أكثرها
 ما شاء من معنى من رسمها في هذا الموضع ما فيها من الطول فلما بلغت
 الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعي أبا جعفر هذا واستكتبه وزاده
 الى الكتاتبة الوزارة لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله فلم يزل
 وزيره كما ذكرنا الى ان قتله في التاريخ الذي ذكر كان سبب قتله
 فيما بلغني انه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف
 ببنت الصحراوية وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم
 يعرف أيضاً يحيى بن الصحراوية فخطب يحيى هذا عند الموحدين وقودوه
 على من وخدم من متونة ولم يزل وجهاً عندهم مكرماً لديهم وكان خليقاً
 بذلك الى ان نقلت عنه الى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها
 احببته عليه فحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه ووربما هم بالقبض
 على يحيى هذا فرأى الوزير ابو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح
 أميره وتحذير صهره فقال لامرأته أخت يحيى المذكور قولي لأخيك
 تحفظ واذا دعوانه غداً فليعتل ويظهر المرض وان قدر على الهروب
 واللاحاق بجزيرة مرقفة فليفعل فاخبرته أخته بذلك فمارض وأظهر انه
 لما به فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته فأسر الى بعضهم ممن كان
 يثق به ما بلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجل الذي أسر اليه فنقل ذلك
 كله بجملة الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الاكبر

في قتل أبي جعفر المذكور وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه فكان في سجنه الي أن مات ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا ابو القاسم عبد الرحمن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم وكتب له معه ابو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة

(قضائه) ابو محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالملقى لم يزل قاضياً له الي أن توفي عبد المؤمن وصدرنا من خلافة أبي يعقوب وكان عبد المؤمن مؤثراً لاهل العلم محباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد الي السكون عنده والجوار بحضرته ويجري عليهم الارزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الجضر هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين لتسمية بن تومرت لهم بذلك لاجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه وكان عبد المؤمن في نفسه سرياً الهمة نزيه النفس شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابراً عن كابر لا يرضى الا بما على الامور أخبرني الفقيه المتفتن ابو القاسم عبد الرحمن ابن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر قال دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد ابنت ثماره • وتفتحت أزهاره • وتجاوبت على أغصانها أطياره • وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسامت وجلست وجعلت أنظر بمنة وشامة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي يا أبا جعفر أراك كثير النظر الي هذا البستان قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين

والله ان هذا المنظر حسن فقال يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا قلت نعم فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخذى أسلحتهم وجلس في مكان مظل وجعلت العسكر تمر عايه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة أثر لكتيبة لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلى وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا تمارك وأشجارك ولم يزل عبد المؤمن بعد وفاة ابن تومرت يطوى الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد إلى أن ذلت له البلاد . وأطاعته العباد وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مراکش دار ملك أمير المسلمين . وناصر الدين . على بن يوسف بن تاشفين . . وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه في شهور سنة ٥٣٧ وكان قد عهد في حياته إلى ابنه تاشفين فعاقته الفتنة عن تمام أمره . ولم يتفق له ما أمسه من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشئ من الأمور وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد فقصد مدينة وهران وهي على ثلاث مراحل من تلمسان فحاصره الموحدون بها فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهياً عليه سلاحه فاقتحم البحر حتى هلك ويقال أنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه قاله أعلم بصحة ذلك فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل كما ذكرنا بمدينة وهران ثلاثة أعوام الا شهرين وكان قتله سنة ٥٤٠ وكان طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال فنبو به البلاد وتتنكر له الرعية فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر وبعد دخول عبد المؤمن رحمه الله مراکش طلب قبر أمير المسلمين

ويبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره
 في أيام حياته وتلك عادة الله الحسني مع الصالحين المصلحين وانقطعت
 الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على
 منبر من منابرها الى الآن خلا أعوام يسيرة بأفريقية كان قد ملكها
 يحيى بن غانية النائر من جزيرة مبرقة على ماسياتي ياناه وكانت مدة
 المرابطين من حين نزولهم رحبة مراكش الى أن انقرض ملكهم جملة
 واحدة بموت أمير المسلمين وابنه نحواً من ست وسبعين سنة .

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الاقصى مما كان يملكه
 المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعاً عظيمة وخرج من
 مراكش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي
 وكان يملك بجاية وأعمالها الى موضع يعرف بسبوسيرات وهذا الموضع
 هو الحد فيما بينه وبين لتونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهر
 سنة ٥٤٠ هـ فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى
 يحيى بن العزيز ألا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر
 حتى أتى مدينة بونة وهي أول حد بلاد أفريقية ثم خرج منها حتى أتى
 قسطنطينية المغرب فأرسل اليه عبد المؤمن رحمه الله بالجيش فاستنزل
 وأوتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في
 نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي
 معقل صنهاجة الاعظم وحرزهم الامنع فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث
 أمرهم وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجده المنصور والمنتصر وجدهم
 الاكبر حماد من شيعة بني عبيد واتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بالادهم
 اعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها

ونصروها فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً ودولتهم قائمة وأمرهم
 نافذاً لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم الى ان أخرجهم من ذلك كله
 ومملكه بأسره وضمه الى مملكته ابو محمد عبد المؤمن بن علي في التارخ
 الذي تقدم ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقاعة وأعمالها رتب من الموحدین
 من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله
 وكر راجعاً الى مراکش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة
 وأعيان دولته خين وصلوا الى مراکش أمرهم بالنازل المتسعة والمراكب
 النبيلة والكسي الفاخرة والاموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله
 وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر
 عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغى من طرق عدة ان يحيى بن العزيز
 كان في مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى أما
 أنا فعلى من هذا كلفة شديدة وعبيدى في كل يوم يشكون الى مايلقون
 من ذلك ويذكرون ان أكثر حوائجهم تعذر لقلة الصرف وذلك ان
 عادتهم في بلاد المغرب انهم يضربون انصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها
 والحرار يفسد نسيج الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم
 فتتسع بيعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن
 ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب
 ما دمت بحضورنا ان شاء الله عز وجل وأقام عبد المؤمن رحمه الله
 بمراكش مرتباً للامور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور
 واعداد سلاح واستئزال مستعص وتأمين سبل واحسان الى رعية
 وما هذا سبيله

(فصل) فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام بن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية فاما بلاد إفراغة فاستولى عليها ملك أرغن لعنه الله وملك مع ذلك سر قسطة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات وافق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم بلغنى عن غير واحد من أصحابه أنه كان محابب الدعوة ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة فاذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع اللقاء بطل كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس إذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس فحى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويدود عنها إلى أن توفي رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه لا تحقق تاريخ وفاته وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه

محمد بن سعد المعروف عندهم بابن مردئيش كان محمد هذا خادماً لابن
 عبياض يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه فلما حضرته
 الوفاة اجتمع اليه الجنود وأعيان البلاد فقالوا له الى من تسند أمورنا وبين
 تشير علينا وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال انه لا يصلح لاني سمعت
 انه يشرب الخمر ويغفل على الصلاة فان كان ولا بد فقدموا عليكم هذا
 وأشار الى محمد بن سعد فانه ظاهر النجدة كثير الغناء ولعل الله أن
 ينفع به المسلمين فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد الى أن مات في
 شهر سنة ٥٦٨ وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من
 المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على انفسهم فندبوا اليها القائد ابا عبد
 الله بن ميمون ولم يكن منهم انما هو من أهل مدينة دانية فأبى عليهم
 وقال انما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت فكل عدو جاءكم
 من جهة البحر فأنا لكم به فقدموا على انفسكم من شتم غيري فقدموا
 على انفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد يعرف بابن الرميحي فلم
 يزل عليها الى أن دخلها عليه النصاري من البر والبحر فقتلوا أهلها
 وسبوا نساءهم وبنينهم وانتهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره وملك
 جيان وأعمالها الى حصن شقورة وما والى تلك الثغور رجل اسمه
 عبد الله لا أعرف اسم أبيه هو معروف عندهم بابن همشك * وربما
 ملك عبد الله هذا قرطبة أياما يسيرة وأقامت علي طاعة المرابطين
 اغرناطة وأشبيلية فهذه جملة أحوال الاندلس في آخر دعوة المرابطين
 وفي ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن
 الصغار اضربت عن ذكرها خوفا من الاطالة لانها نكرة والتعريف

بها مخرج الى الطول وقام بمغرب الاندلس دعاة قن ورؤس ضالالات
 فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة من جبلتهم رجل اسمه
 احمد بن قسي كان في أول أمره يدعى الولاية وكان صاحب حيل
 ورب شعبذة وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة
 ثم ادعى الهداية بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ثم لم يستقم له شئ
 مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحسن مارتلة وقد تقدم اسم
 هذا الحصن في أخبار الدولة العبادية فأسلمه كما ذكرنا أصحابه واختلفوا
 عليه ودسوا اليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون
 قبضاً باليد فعبروا به الى العدو فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله فقال له
 بلغنى انك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال أليس الفجر فجران
 كاذب وصادق فأنا كنت الفجر الكاذب فضحك عبد المؤمن وعفاه عنه
 ولم يزل بحضرته الى أن أقتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالاندلس
 ولا بن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه والتهاون
 بأمر الولاية منعنى من ذكرها صرف العناية الى ما هو أهم منها
 ولما انتشرت دعوة المصامدة كما ذكرنا بالمغرب الأقصى تشوف اليهم
 اعيان مغرب الاندلس فجعلوا يفدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في
 الهجرة اليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الاندلس كالجزيرة
 الخضراء ورندة ثم اشيلية وقرطبة واغرابطة وكان الذى فتح هذه
 البلاد الشيخ ابو حفص عمر ابنى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة واجتمع
 على طاعتهم أهل مغرب الأندلس
 فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة

الاندلس فسار حتى نزل مدينة سبتة فعبّر البحر ونزل الجبل المعروف
 بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى به قصوراً عظيمة
 وبني هناك مدينة هي باقية الى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه
 الاندلس للبيعة كأهل مالقة واغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية وما
 والى هذه البلاد وانضم اليها وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له
 وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو
 والاندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعي الشعراء في هذا اليوم
 ابتداء ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم وكان
 على بابهم منهم طائفة أكثرهم مجيدون فدخلوا فكان أول من أُنشد
 ابو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر
 على نحو طريقة محمد بن هاني الاندلسي في قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع
 الموهولة واينار التعبير الا ان محمد بن هاني كان أجود منه طبعاً وأحلا
 مهياً فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
 وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة قشكلا

لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين ولابن حبوس هذا
 قصائد كثيرة وكان حظياً عنده نال في أيامه نروة وكذلك في أيام ابنه
 أبي يعقوب وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه
 حماقات فهرب الى الاندلس ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد الى بلد
 حتى انتقلت الدولة المرابطية قرأ على ابنه عبد الله من خط أبيه هذه
 الحكاية قال دخلت مدينة شلب من بلاد الاندلس ولي يوم
 دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً فسألت عمن يقصد اليه فيها فدلتني

بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت الى بعض الوراقين
فسأله سحاة ودواة فأعطانيها فكتبت أياتاً امتدحها وقصدت داره
فاذا هو في الدهليز فسلمت عليه فرحب بي ورد عليّ أحسن رد وتلقائي
أحسن لقاء وقال أحسبك غريباً قلت نعم فقال لي من أي طبقات الناس
أنت فأخبرته اني من أهل الأدب من الشعراء ثم انشدته الايات التي
قلت فوقعت منه أحسن موقع فأدخلني الى منزله ووقدم الى العظام وجعل
يحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه فلما آن الانصراف خرج ثم عاد
ومعه عبدان يحملان صندوقا حتي وضعه بين يدي ففتحه فأخرج منه
سبعمئة دينار مرابطية فدفعها الي وقال هذه لك ثم دفع الي صرة فيها
أربعون مثقالا وقال هذه من عندي فتمعجبت من كلامه وأشكر على
جدا وسأله من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدثك اني أوقفت ارضا
من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتني
أحد لتولي التفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتي سيق اليك
وأما هذه فمن حر مالي يعني الاربعين دينار فدخلت عليه جائعا فقيرا
وخرجت عنه شعبان غنيا وانشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف
الطابق المرواني كان شريفا من جهة امه

* ما للعدي جنة أوتي من الهرب *

فقال عبد المؤمن رافعا صوته الي اين الى اين فقال الشاعر

* اين المفر وخيل الله في الطلب *

وأي يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتت القصيدة قال عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء فسمي

نفسه خليفة كما ترى وجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق طليق
 النعامة وانما سمي بذلك لأنه كان محبوباً في مطبق أبي عامر محمد بن
 أبي عامر الملقب بالمتصور القسام بدعوة هشام المؤيد أقام في ذلك
 المجلس سنين فكاتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت اليه حاله من ضيق
 الجبس وضنك العيش فرفعت الى ابن أبي عامر فأخذها في جملة
 رقايع ودخل الى داره فجاءت نعامة كانت هناك فجعل ياتي اليها الرقايع
 فتبتلع شيئاً وتلقى شيئاً فالتقى اليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقايع
 وهو لم يقرأها فأخذتها ثم دارت وألقها في حجره فرمى بها اليها ثانية
 فدارت القصر كله ثم جاءت وألقها في حجره فرمى بها اليها ثالثة وفعلت
 ذلك مراراً فتعجب من ذلك وقرأ الرقعة وأمر بإطلاقه فسمي بذلك
 طليق النعامة وأنشد في ذلك اليوم رجل من أهل اشبيلية يعرف
 بابن سيد ويلقب بالاص

نغمض عن الشمس واستقصر مدى زحل

وانظر الى الجبل الراسي على جبل

أني استقر به أني استقل به

أني رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المؤمن لقد نقلتنا يا رجل فأمر به فأجلس وهذه

القصيدة من خيار ما مدح به لولا انه كدر صفوها بهذه الفاتحة

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب ابو عبد الله محمد بن غالب

البلسنى المعروف بالرصافي كان مستوطناً بمدينة مالقة

لوجئت نار الهدي من جانب الطور

قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذوابها
 فيضية القدح من نور النبوة أو
 مازال يُقضمها التقوى بموقدها
 حتى أضاءت من الايمان عن قبس
 نور طوى الله زناد الكون منه على
 وآية كآيات الشمس بين يدي
 يادار دار أمير المؤمنين بسفح
 ذات العمادين من عز ومملكة
 ما كان ياتيك بالواني الكرامة عن
 مواطئ من نبي طال ما وُصِلت
 حيث استقلت به نعلاه بوركتا
 وحيث قامت قناة الدين ترفل في
 في كف منشمر البردين ذى ورع
 بلقائك في حال غيب من سريره
 تسنم الفلك من سخط المراد وقد
 فسرن يحملن أمر الله من ملك
 يومي له بسجود كل تحركة
 لما تسابقن في بحر الزقاق به
 أهز من موجه أنشاء مسرور
 كأنه سالك منه على وشل
 من السيوف التي ذابت لسطوته
 ذو المنشئات الجوارى في أجرتها

ليلا لساو ولم تشب لمقمور
 نور الهداية تجلوا ظلمة الزور
 صوام هاجرة قوام ديجور
 قد كان تحت رماد الكفر مكفور
 سقط الى زمن المهدي مذخور
 غزو على الملك القيسي منذور
 الطود طود اهدي بوركت في الدور
 على الاساسين من قدس ونطير
 قصر على مجمع البحرين مقصور
 فيها الخطي بين تسبيح وتكبير
 فطيت كل موطوء ومعبور
 لواء نصر على البرين منشور
 على التقى وصفاء النفس مفظور
 بعالم القدس مشهود ومحضور
 تؤدين ياخير افلاك العلى سبرى
 بالله مستنصر في الله منصور
 منها ويوليه حمداً كل تصرير
 تركن شطيه في شك ونحيير
 أم خاض من لجه أحشاء مذعور
 في الارض من مهب الاسياف مقطور
 وقد رمي نار هيجها بتسعير
 شكل الغدائر في سدل وتضفير

أعدي المياه وأنفاس الرياح لها
 من كل عذراء حبلى في ثرائها
 تخالها بين أيد من مجاذفها
 وربما خاضت التيار طائفة
 كأنما عبرت تحتال عائمة
 حتى رمت جبل الفتحين من كتب
 لله ما جبل الفتحين من جبل
 من شاخ الأتق في سخنة طلس
 معبراً بذراه عن ذرى ملك
 تسمى النجوم على الكليل مفرقه
 وربما مسحته من ذوائها
 وأردت من ثيابه بما أخذت
 محنك حلب الأيام أشطرها
 مقيد الخطو جوال الخواطر في
 قد واصل الصمت والأطراق مفتكراً
 كأنه مكمد مما تعبده
 أخلق به وجبال الأرض راجفة
 كفاه فضلاً أن انتابت مواضعه
 مستنشئاً بهم رياح الشفاعة من
 ما انفك أمل أمر منه بين يدي
 حتى تصدي من الدنيا على رفق
 مستقبل الجانب الغربي مرتقباً

ما في سجاياه من لين وتعابير
 ردعان من عنبر ورد وكافور
 يغرقن في مثل ماء الورد من جور
 بمثل أجنحة الفتح الكواسير
 في زاخر من يدي يمتاه معصور
 بساطع من سناه غير مهور
 معظم القدر في الاجيال مذكور
 له من الغيم جيب غير مزور
 مستمطر الكف والاكفاف مطور
 في الجو حائمة مثل الدنانير
 بكل فضل على فوديه مجرور
 منه معاجم أعواد الدهارير
 وساقها سوق حادى العير للير
 عجيب أمره من ماض ومنظور
 بادى السكينة مغفر الاسارير
 خوف الوعيد من ذلك وتسير
 ان يطأ غداً من كل محذور
 ناعلاً عليك كريم السعي مشكور
 ترى امام بأقصى الغرب مقبور
 يوم القيامة محتوم ومقدور
 يستعجز الوعد قبل النفخ في الصور
 كأنه باهت في جو اسمير

لبارق من حسام سله قدراً
 اذا تأنى قيسياً أهـاب به
 ملك أنى عظماً فوق الزمان فما
 ما عن في الدين والدنيا له أرب
 ولا رمي من أمانيه الى غرض
 حتي كأن له في كل آونة
 ميمز الجيش ملتقاً مواكبه
 من الاولى خضعوا قسراً له وعنوا
 من بعد ما عاندوا أمراً فآزكوا
 بقية الحرب فاتوها وما بهم
 لا ينكر القوم مما في أكفهم
 اذا صدعت بأمر الله مجتهداً
 لا يذهان لتقليل أخو سبب
 فالبحر قد عاد من ضرب العاصيبساً
 وانما هو سيف الله قلده
 فان يكن بيد المهدي قائمه
 والشمس ان ذكرت موسى فأنسيت
 وكان الرصافي يوم انشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة
 وهو من مجيدي شعراء عصره لا سيما في المقاطيع كاختمسة الايات فما
 دونها وقد رويت شعره عن جماعة ممن لقيه وقد رأيت أن أورد منه
 هاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف نهر
 اشبيلية الاعظم وهو نهر لانظير له في الدنيا

بالغرب من أفق البيض المشاهير
 الى شفى من مضاع الدين موتور
 يمر فيه شيء غير محفور
 الا تأنى له من غير تعدير
 الا هدي سهمه نبح المقادير
 سلطان رق على الدنيا وتسخير
 من كل مثلول عرش الملك مقهور
 لامره بين منهي ومأمور
 اذا أمكن العفو ميسوراً لمعسور
 في الضرب والظعن سياء لتقصير
 بيض مفاليل أو سمر مكاسير
 ضربت وحدك أعناق الجماهير
 من الامور ولا يركن لتكثير
 والارض قد غرقت من فور تنور
 أقوي الهداة يداً في دفع محذور
 فوضع الحد منه حد مشهور
 فتاه يوشع قساع الجبابير

ومهل الشطين تحسب انه
فأت عليه مع الهجيرة سرحة
فتراه ازرق في غلالة سمرة
وله وقد اجتمع مع اخوان له في بعض العشايا في بستان رجل يقال
له موسى بن رزق

ما مثل موضعك ابن رزق موضع
فكأنما هو من محاجر غادة
وعشية لبست رداء شحوبها
بلغت بنا أمد السرور تألفاً
فابلل بهار مق الغبوق فقد أتى
سقطت فلم يملك نديك ردها

وله يصف عشية أيضاً في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر
محل ابن رزق جر فيه ذيوله
ذكرت عشيا فيك لا ذم عهد
ولم يعتلق بي منك عند افتراقنا
وكننت أرائي في الكرى وكأني
فلما انطوى ذلك الأصيل وحسنه
وله يصف دولابا

وذو حنين يكاد شوقا
لما غدا للرياض جارا
يتشم الروض حين يكي
من كل جفن يسيل سيفا
يختلس الأنف اختلاسا
قال له المحل لا مساسا
باده مع ما رأيين باسا
صار له غمده رئاسا

وله قد رأي صبياً يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكي بذلك الدموع
عذيري من جذلان يدي كآبة وأضله مما يحاوله صفر
أميلد مياس اذا قاده الصبي الى ملح الادلال أيده السحر
يل ماتي زهرتيه بريقه ويحكي البكا عمداً كما ايسم الزهر
ويوهم ان الدمع بل جفونه وهل عصرت يوماً من الترجس الحمر
وقال يصف نائماً قد تحجب العرق على خده

ومفهم كالغصن الا انه سلب الثني النوم عن أنثائه
أضحى ينام وقد تحجب خده عرقاً فقلت الورد رش بمائه
وللرصاصي هذا افتنان في الآداب وكان رحمه الله عفيف الطعمة
نزيه النفس لا يحب أن يشتهر بالشعر مع اجداته في كثير منه

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بجبل الفتح مرتباً للامور ممدداً للملكة
وأعيان البلاد يفدون عليه في كل يوم الى أن تم له ما أراد من اصلاح
ما استولى عليه من جزيرة الاندلس فولى مدينة اشبيلية وأعمالها ابنه
يوسف وهو الذي ولى الامور بعده على ما سيأتي بيانه وترك معه بها
من أشياخ الموحدين وذوي الرأي والتحصيل منهم من يرجع اليه في
أموره ويعول عليه فيما ينويه وولى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر ابن
عمر وولى اغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن بكفى ابا سعيد وكان
من نهاء اولاده ونجبائهم وذوي الصرامة منهم وكان محباً في الآداب
موثقاً لأهلها يهتز للشعر ويثيب عليه اجتمع له من وجوه الشعراء
وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده ثم كر عبد
المؤمن راجعاً الى مراکش بعد ما ملأ ما ملكه من اقطار جزيرة
الاندلس خيلاً ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من اصناف الجند

وقد كان حين أراد العبور الى جزيرة الاندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا الى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب فعانوا في القيروان عينا شديداً أوجب خرابها الى اليوم ودوخوا مملكة بني زيري بن مناد وهذا بعد موت المعز بن باديس فانتقل تميم الى المهديّة وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور ابن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك فاقاموا على ذلك باقي أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز وأيام يحيى الى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله فزال ذلك من أيديهم وصيرهم جنداً له واقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد فكتب اليهم رسالة يستنفرهم الى الغزو بجزيرة الاندلس وأمر أن تكتب في آخرها آيات قالها رحمه الله في ذلك المعنى وهي

اقبموا الى العليا هوج الرواحل

وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة نأثر	وشدوا على الاعداء شدة صائل
فما العز الاظهر أجرد سائح	يفوت الصبي في شدة المتواصل
وأبيض مأنور كأثر فرنده	على الماء منسوج وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت الى الغزو نية	عواقبها منصورة بالاولائل
هي الغزوة الغراء والموعود الذي	تجز من بعد المدى المتطاوّل
بها يفتح الدنيا بها يبلغ المني	بها ينصف التحقيق من كل باطل
اهبنا بكم للخير والله حسبنا	وحسبكم والله أعادل عادل

فأهنا الا صلاح جميعكم وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمي ترف طلالها عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنية وللمدح السارى صفاء المناهل
فاستجاب له منهم جمع ضخم فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها
فجعل بعضهم في نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي اشبيلية مما يلي مدينة
شريس وأعمالها فهم بها بقون الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وقد انتشر
من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير وزاد فيهم ابو يعقوب وابو يوسف
حتى كثروا هنالك فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم
ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة وكان عبور
عبد المؤمن رحمه الله الى الجزيرة ونزوله بجبل الفتاح في سنة ٥٣٨ ثم
كر كما ذكرنا راجعاً الى مراکش فأخبرني غير واحد ممن أرى
نقله انه لما نزل مدينة سلا وهى مدينة على البحر الاعظم المحيط ينصب
اليها نهر عظيم يصب في البحر المذكور عبر النهر وضربت له خيمة
على الشاطئ وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة فلما نظر الى كثرة
العدد وانتشار العالم خر ساجداً ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحيته
والتفت الى من عنده وقال اعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة
لاشئ لهم الا رغيف واحد فراموا عبور هذا النهر فأتوا صاحب
القارب وبذلوا له الرغيف على ان يعبروا ثلثهم فقال لا آخذه الا على
اثنين خاصة فقال لهم أحدهم وكان شاباً جليلاً خذنا ثيابي معكما وأعبر
أنا سباحة فأخذنا ثيابي معهما وصعدا في القارب فجعل الشاب يسمح
فكلما أعيادنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح فضربه صاحب
بالجذاف الذى معه حتى يؤلمه فما بلغ الير الا بعد جهد شديد فما شك

السامعون للحكاية انه العابر سباحة وان الاثنين المذكورين هما ابن
تومرت وعبد الواحد الشرقي ثم سار حتى أتى مراكن فزها وأخذ
في البناء والغراسة وترتيب القصور غير محل بشيء مما تحتاج اليه المملكة
من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتعجب الى الرعاية
واخافة من نجب اخافته

وأخبرني السيد حقيقة * والماسجد خلقاً وخليفة ابو زكريا
يحيى بن الامام أمير المؤمنين ابى يعقوب بن الامام أمير المؤمنين أبي محمد
عبد المؤمن بن علي انه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط خليفة
عبد المؤمن هذين البيتين وقال لي رحمه الله لا أدري هما له أو لغيره
وحكم السيف لا تعباً بعاقبة وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة ولا ترد صدور الخيل بالكتب
وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بحاية وولى عليها ابنه عبد الله

حسب ما تقدم عهد اليه أن يشن الغارات على نواحي افريقية وان
يضيق على تونس وينزع عنها المرافق التي تصل اليها على طريقه ففعل
ذلك ثم ان عبد الله تجهز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم
وسار حتى نزل على مدينة تونس وهي حاضرة افريقية بعد القيروان
وكرسى مملكتها ومقر تدبيرها واياها يستوطن والى افريقية لم يزل
هذا معروفاً من أمرها الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فحاصرها عبد الله
المذكور وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها وكان الذي يملكها في
ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقه الرومي صاحب صقلية
لعنه الله وكان عامله عليها رجل من المسلمين اسمه عبد الله يعرف بابن
خراسان لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذي

سند كره فلما طال على ابن خراسان الحصار اجمع رأيه ورأي أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ففعلوا ذلك وخرجوا بجند ضخمة فالتقوا هم وأصحاب عبد الله فانهزم أصحاب عبد الله وقتل منهم خلق كثير ورجع عبد الله ببقية أصحابه الى بجاية فكتب الى أبيه يخبره بذلك فلما كان في آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن في الحركة الى إفريقيا فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها الى مهدية بنى عبيد وفيها الروم أصحاب ابن الدوقه وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم ابن المعز بن باديس بن المنصور بن بلجين بن زيري بن مناد الصنهاجي ملوك القيروان فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار وهي من معاقل المغرب المنبوعة لان بنيانها في غاية الاحكام والوثاقه بلغني ان عرض حائط سورها مشى ستة أفراس في صف واحد ولا طريق لها من البر الا على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشني كما هو يعقائلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البر على منعه فهذا قدر الروم على الصبر على الحصار لان النجدة كانت تأتيهم من صقلية في كل وقت وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر الا أياماً وأصابهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغني عن غير واحد انهم اشتروا الباقلاء في العسكر سبع باقات بدرهم مومني وهو نصف درهم النصاب ثم افتتحها عبد المؤمن رحمه الله بعد أن آمن النصارى الذين بها على أنفسهم علي أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهدية فملكوها وبعث الى قابس من افتتحها وفيها الروم أيضاً ثم افتتح

طرابلس المغرب وأرسل الى بلاد الجريد وهي توزر وقفصة ونقطة
 والحامة وما الى هذه البلاد فافتتحت كلها وأخرج الافرنج منها والحقهم
 ببلادهم كما تقدم فحبا الله به الكفر من افريقية وقطع عنها طمع العدو
 فانتبه بها الدين بعد خموله وأضاء كوكب الايمان بعد انطامسه وأقوله
 وتم لعبد المؤمن رحمه الله ملك افريقية كلها منتظما الى مملكة المغرب
 فملك في حياته من طرابلس المغرب الى سوس الاقصى من بلاد المصامدة
 وأكثر جزيرة الأندلس وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله
 منذ اختلت دولة بني أمية الى وقته ثم كر عبد المؤمن راجعاً من افريقية
 بعد ما استولى على بلادها ودان له اهلها فأخبرني بعض أشياخ الموحدين
 من ذوى التحصيل منهم والثقة ان عبد المؤمن مر في طريقه راجعاً من
 افريقية بجاية فدخل البلد متنزهاً فيه فر بسوقه بناحية باب من أبوابها
 يدعي باب تاطنت فوقه ووقفت معه وجوه دولته فسأل عن بيعها
 سمها باسمه فأخبره أهل السوق بوفاته فقال هل خلف عقباً قالوا نعم
 فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السوق وأوقفها عليهم وأمر لهم
 بمال كثير ثم التفت الى بعض خواصه وقال له أتيت الى هذا البيع
 ولى والامام يعنى ابن تومرت والجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم
 نطعم فيها وما ممي الاسكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت
 عنده السكين رهناً على ذلك فأبى قبولها وقال لى انى توسمت فيك الخير
 ففى أعوزك شئ ففلم الى الدكان فهو بين يديك وبحكمك فحقه على
 أكثر من هذا ونظر فى هذا اليوم الذي ركب فيه مختراً بجاية الى
 يحيى بن العزيز يمشي بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار فدمعت عيناه
 واستدعاه فقال له أئذك يوماً خرجت الى بعض متنزهاتك فاذا كراتني

جمعني واياك هذا الباب فوطئت دابتك عقي فلما نظرت اليك أمرت
 بعض عبيدك فوكزني وكزة كدت أقع منها لني فاستحياني وغيروا لونه
 وأطرق وجعل يقول الله الله يا مولاي وظن أنه الشر فلما رأي ذلك
 منه قال له انما ذكرت لك ذلك على طريق الاعتبار ولتذكر وتنظر
 كيف تقلب الايام بأهلها وأمر له بما زال به روعه ومرت في طريقه هذا
 ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوم فجاءت منه دوحه
 عظيمة في وسطها رحبة نقيه فأمر أن يضرب خباؤه هنالك وهو غير
 منزل معروف فلما نزل ونزلت العساكر واستقروا بهم النزول قال لبعض
 خواصه اتدرون لما آثرت النزول بهذا المكان قالوا لا قال ذلك لاني بت
 بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً وكانت ليلة ممطرة فما زال
 هذا الدوم وقائي حتى أصبحت فأردت النزول هنا علي هذه الحالة
 لاشكر الله سبحانه علي الفرق ما بين المنزلتين والفصل ما بين المبيتين
 ثم قام فتوضأ وصلي ركعتين شكر الله عز وجل وجدت هذه الحكاية
 بخط رجل من ولد ولد عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد
 المؤمن وبدا له في هذا الوجه أن يمر على القرية التي تسمى تاجرا
 وبها كان مولده كما تقدم لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوى رحمه
 فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه
 أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية وهزت أكثر من مائتي
 طبل وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها اذا ضربت
 ان الارض من تحتها تهتز ويحس بقلبه يكاد يتصدع من شدة دويها فخرج
 أهل القرية للقاءه والتسليم عليه بالخلافة فقالت امرأة عجوز من عجائر
 القرية ممن كانت تصحب أمه هكذا يعود الغريب الى بلده تقول ذلك

رافعة صوتها ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة بن تومرت يعرفون
بأيت ومغار معناه بالعربية بنو ابن الشيخ وانتهوا في ذلك الى أن أجمع
رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن
خباء ليلا فيقتلوه وظنوا ان ذلك يخفى من أمرهم وان عبد المؤمن
اذا فقد ولم يعلم من قتله صار الامر اليهم لانهم أحق به اذ كانوا أهل
الامام وقرابته وأولى الناس به فأعلم بما أرادوه من ذلك رجل من
أصحاب بن تومرت من خيارهم اسمه اسماعيل بن يحيى المزرجي فأبى
عبد المؤمن فقال له يا أمير المؤمنين لى اليك حاجة قال وما هي يا أبا
ابراهيم فجميع حوائجك عندنا مقضية قال أن تخرج عن هذا الخباء
وتدعني أبيت فيه ولم يعلمه بمراد القوم فظن عبد المؤمن أنه انما يستوهمه
الخباء لانه أعجبه فخرج عنه وتركه له فبات فيه اسماعيل المذكور فدخل
عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد فمما أصبحوا ورأوا أنهم لم
يصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها
فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح فأبوا عليهم فضربوا
عنق أحدهم وفر باقيهم وكادوا يغلبون على تلك القصور ثم ان الناس
اجتمعوا عليهم من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالا شديداً من لدن
طلوع الفجر الى طلوع الشمس ثم ان العبيد غابوهم على أمرهم ولم
يزل الناس يتكاثرون عليهم الى أن أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا
في السجن الى أن وصل ابو محمد عبد المؤمن رحمه الله الى مراكش
فقتلهم صبراً وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة بلغه أنهم قادحون في
ملكه متربصون به ولما أصبح أبو ابراهيم اسماعيل المتقدم المذكور في الخباء
مقتولا على الحال التي ذكرنا اعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً

مفرطاً أخرجه عن حد التماسك الى حيز الجزع فأمر بغسله وتكفينه
وصلى عليه بنفسه ودفن ولم يترك اسماعيل هذا من الولد سوى ولد
واحد ذكر اسمه يحيى نال يحيى هذا في أيام أبي يعقوب جاها متسعاً
ورتبة عالية وكذلك في أيام أبي عبد الله كانت أكثر أمورهم ترجع
اليه لم يزل كذلك الى أن مات في شهر سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة
تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اسمها فاطمة
لا عقب له منها طال عمرها تركتها بالحياة حين فصلت عن مراکش
في شهر سنة ٦١١ ولاسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر بقرب مما قدمنا
في النصيح والتحذير تلتطف فيه اسماعيل غاية التلطف وذلك ان ابن
تومرت حين خرج من مراکش على الحال التي تقدمت من اخراج
أمير المسلمين اياه عنها سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو ابراهيم فدخل
المسجد فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون الى ابن تومرت
ويقول بعضهم لبعض همسا هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده
لافساده عقول الناس ونحو هذا القول وهموا بقتله تقرباً بذلك الى أمير
المسلمين فلما رأى ذلك أبو ابراهيم من أمرهم تقدم الى ابن تومرت
فسأله عن اعراب هذه الآية (ان الملأ يأترون بك ليقتلوك فاخرج
انى لك من الناصحين) ففهم بن تومرت ما أراد وخرج عن تلك الضيعة
وعرف لابي ابراهيم نصحه ثم لحق به أبو ابراهيم هذا بعد ما اشتهر
أمره بتبئمل فهو معدود في أهل الجماعة ولما قتل عبد المؤمن أولئك
القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً هابه المصامدة وسائر أهل دولته
وعظم أمره في صدورهم

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي

أول سنة ٥٨ خرج أمره الى الناس كافة بالغزو الى بلاد الروم من جزيرة الاندلس وكتبت عنه الكتب الى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الاندلس مظهراً للغزو والاحتساب ويتم أيضاً مع ذلك ما بقى عليه من مملكتهما من ما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سلا فأقام بها ينتظر تكامل العساكر فاعتل علته التي مات منها رحمه الله وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة ٥٨ وكان قد عهد في حياته الى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته الى البلاد فإني تمام هذا الامر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة من ادمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال انه مع هذا كان به ضرب من الجذام فالله أعلم ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختنف عليه اختلافاً كثيراً فكانت ولايته الى أن خلع خنسا وأربعين يوماً واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة وكان الذي سعى في خلعه مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك أخواه يوسف وعمر

﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ﴾

(وما يتعلق بها)

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد اتفاق من وجوه الدولة على

ذلك دار الامر بين اثنين من ولد عبد المؤمن يوسف وعمر وهما من نهاء
اولاده ونجياتهم وذوى الرأى والغناء منهم فاباها عمر منهما وتأخر عنها
مختاراً وبائع لاخته ابى يعقوب وسلم له الامر حمله على ذلك فرط عقله
واشار دينه وحب المصالحة للمسلمين لانه كان يعلم من نفسه اشياء لا يصلح
معها لتدبير المملكة وضبط امور الرعية فبايع الناس ابا يعقوب واتفقت
عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من أخوته ولا غيرهم وذلك
كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تلاففه وجودة
رأيه فاستوثق لابی يعقوب هذا أمره وتمت بيعته فى التاريخ المذكور
وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها الى أن تمت كذا ذكرنا اخوه لآبيه
وامه ابو حفص المتقدم الذكر وابو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد
المؤمن بن على أمه وأم أخيه أبى حفص امرأة حرة اسمها زينب ابنة
موسى الضرير كان من أهل تينمل من ضيعة يقال لها انسا كان موسى
هذا من شيوخ أهل تينمل وأعيانهم وكان عبد المؤمن يستخلفه على
مراكش اذا خرج عنها وكانت مصاهرته اياه أيام كان عبد المؤمن
بتينمل برأى ابن تومرت وخلف موسى هذا من الولد المذكور ثلاثة
ابراهيم وعلياً ومحمداً وبنات

صفة أبى يعقوب * كان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد
الشعر مستدير الوجه أفوه أعين الى الطول ما هو فى صوته جهوراة
رقيق حواشى اللسان حلو الالفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف
الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم بآيها وما نرها وجميع أخبارها
فى الجاهلية والاسلام صرف عنايته الى ذلك أيام كونه باشبيلية واليا
عليها فى حياة أبيه ولقى بها رجلاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن

منهم الاستاذ اللغوى المتقن أبو اسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف
عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه أخبرني
من لقيته من ولده كافي زكريا وأنى عبد الله وأنى ابراهيم اسحق وغيرهم
عن لقيته وشافته منهم انه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن وأسرعهم
تقوذا خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية وكان شديد
الملوكة بعيد الهمة سخيا جواداً استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم
الاموال هذا مع ايثار للعلم شديد وتعطش اليه مفرط صح عندي انه
كان يحفظ أحد الصاحبين الشك مني إما البخارى أو مسلم وأغلب ظنى
انه البخارى حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن هذا مع ذكر جمل
من الفقه وكان له مشاركة في علم الادب واتساع في حفظ اللغة وتجرى في
علم النحو حسب ما تقدم ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم
الفلسفة فجمع كثيراً من أجزاءها وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من
الكتاب المعروف بالملكى أكثر مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل
ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع
كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي
أخبرني ابو محمد عبد الملك الشذونى احد المتحققين بعلمى الطب واحكام
النجوم قال كنت في شيبقى استعير كتب هذه الصناعة يعنى صنعة الاحكام
من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف
بالمرانى بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في أيام
الفتنة بالاندلس فكان يعيرنى اياها في غرائر احوال غرارة واجبة بقرارة
من كثرتها عنده فاخبرنى في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجمالتها
فسأله عن السبب الموجب لذلك فاسر الى ان خبرها انتهى الى أمير

المؤمنين فأرسل الى دارى وانا فى الديوان لاعلم عندى بذلك وكان
الذى أرسل كافور الخصى مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروى
أحدا من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين
معه أشد الوعيد ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها فأخبرت بذلك وانا
فى الديوان فظننته يريد استصفاء أموالى فركبت وما معى عقلى حتى
أتيت منزلى فاذا الخصى كافور الحاجب واقف على الباب والكتب يخرج
اليه فلما رآنى وتبين ذعرى قال لى لا بأس عليك وأخبرنى ان أمير
المؤمنين يسلم على وانه ذكرنى بخير ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى
ثم قال لى سل أهل بيتك هل راعهم أحد او نقصهم شيئا من متاعهم
فسألتهم فقالوا لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيئا جاء ابو المسك حتى استأذن
علينا ثلاث مرات فاخيلنا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة
الكتب فأمر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى
من الروع وولوه بعد اخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان
يحدث بها نفسه ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب
ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع
ملك قبله ممن ملك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء المتفنيين ابوبكر
محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة
قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم ابوبكر بن الصائغ المعروف
عندنا بابن باجة وغيره ورأيت لابي بكر هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة
من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك فمن رسائله الطبيعيات رسالة سعى
ها رسالة حى بن يقظان غرضه فيها بيان مبدئ النوع الانسانى على
مذهبهم وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ومن تصانيفه

الالهيات رسالة في النفس رأيتها بخطه رحمه الله وكان قد صرف عنايته في آخر عمره الى العلم الالهى ونبتد ما سواه وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والتسريعة معظماً لامر النبوات ظاهراً وباطناً هذا مع اتساع في العلوم الاسلامية وبلغنى انه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجتاد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لأتفقتهم عندهم وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له بلغنى انه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته أنشدنى ابنه يحيى بمدينة مراکش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله

ألمت وقد نام المسيح وهو ما
وجرت على ترب المحصب ذيلها
تناوله أيدي التجار لطيمة
ولما رأت ألا ظلام يحجبها
فصت عذبات الریط عن حروجهما
فكان تجليها حجباً جالها
ولما التقينا بعد طول تهاجر
جئت عن ثنایها وأومض بارق
وساعدني جفن الغمام على البكا
فقلت وقد رقت الحديث وأبصرت
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها
وأسرت الى وادي العقيق من الحما
فما زال ذاك الترب نهباً مقسما
ويحمله الدارى أيا ن يمما
وأن سراها فيه لن ينكتما
فأبدت محيا يدهش المتوسما
كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
وقد كاد جبل الود أن يتصرما
فلم أدر من شق الدجنة منهما
فلم أدر دمعاً أينما كان أسجما
قرائن أحوال أذعن المكتما
يهون صعباً أو يرخص مأثما
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

أبي بكر
عمر بن عبد الله

ومن شعره في الزهد رحمه الله ما قرأ على ابنه من خطه في التاريخ المذكور

يا باكيما فرقة الاحباب عن شحط نور تردد في طين الي أجل
هل لا بكيت فراق الروح للبدن فانحاز علواً وخلي الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ان لم يكن في رضى الله اجتماعهما
فيا طر..... صفقة تمت على غبن وأنشدني بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله

ما كل من شم نال رائحة قوم لهم فكرة تجول بهم
للناس في ذا تباين عجب بين المعاني أولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية نتجلى لناظرهم منه ولا ينقضي لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جباته قد قسمت في الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم وهو الذي نبه على بن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ أبو بكر بندود بن يحيى القرطبي قال سمعت الحكميم أبا الوليد يقول غير مرة لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يني على وبذكر بيتي وسلفي ويضم بفضلته الى ذلك اشياء لا يبلغها قدرى فكان أول ما فأنحى به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي ما رأيهم في السماء يعني الفلاسفة القديمة هي أم حادثة فأدركني الحياء والخوف فأخذت أعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ولم أكن أدري

ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسئلة التي سألتني عنها ويدكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة وبورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ولم يزل يبسطني حتي تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ومركب وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال استدعاني ابو بكر بن طفيل يوم اقبل الى سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكي من قلق عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجمين عنه ويدكر غموض اغراضه ويقول لو وقع لهذه الكتب من يخصصها ويقرب اغراضها بعد أن يفهمها فهما جيداً لقرب ما أخذها علي الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل واني لارجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة وما يمتنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبره سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه قال ابو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما خلصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس وقد رأيت انا لابو الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع خلص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ثم خلصها بعد ذلك وشرح اغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء وبالجملة لم يكن في بني عبد المؤمن في من تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير ابني يعقوب هذا (وزراؤه) وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ثم ارتفع قدره عن

الوزارة اذ رآها دونه ثم وزر له ابو العلاء ادريس بن ابراهيم بن جامع الى أن قبض عليه واستصفي أمواله في شهر سنة ٥٧٧ ووزر له بعده ابنه ابو يوسف ولي عهده الى أن مات سنة ٥٨٠ فكانت ولايته من حين يبيع له الى أن استشهد رحمه الله عليه ببلاد الروم اثنتين وعشرين سنة الا أشهراً

(كتاب) ابو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وابو القاسم المعروف بالقلمي وأبو الفضل جعفر بن احمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القلمي الى أن مات فكاتب مكانه هؤلاء كتبة الانشاء خاصة وكتاب الجيش ابو الحسين الهوزني الاشبيلي وابو عبد الرحمن الطوسي

(حاجبه) كافور مولاه الخصى كان يدعى كافور بغرة (أولاده) كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً وهم عمرو وعقوب وهو ولي عهده وابو بكر وعبد الله واحمد ويحيى كان يحيى هذا رحمه الله لي صديقاً ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم لم أرفى الملوك ولا في السوق مثله رحمه الله عليه وما استخرت لفظة الصداقة مع ان الواجب لفظ الخدمة الا لما كان رحمه الله يكتب الى أخى وصديق في بعض الاوقات وولى في بعضها اجتمعت عندي بخرق كثيرة خلع على فيها فضله وحالاتي بما لم أكن استحققه وموسى وابراهيم وادريس وعبد العزيز وطلحة واسحق ومحمد وعبد الواحد وعثمان وعبد الحق وعبد الرحمن واسماعيل وبنات

(قضائه) ابو محمد المالقي المتقدم الذكر ثم عزله وولى بعده عيسى ابن عمران التازي من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس من قبيلة

يقال لها تسول من البربر يرجعون الى زنانة كان عيسى هذا من فضلاء
 أهل المغرب ونهاتهم وكان خطيباً مصقفاً وبلغاً لسناً وشاعراً مقلداً
 مشاركا في كثير من العلوم ونال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة كان
 يتكلم عن الوفود ويخطب في التوازل فيأتي بكل عجيبة وكان مع هذا
 ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع اليه مفرط اخبرني ابنه ابو عمران
 قاضي الجماعة في وقتنا هذا قال سمعت أبي يقول وقد لامه بعض من يلود
 به في التوبة بأقوام ليست لهم سوابق ولا اقدار رفعهم من الخضيض
 جابه ونههم بعد الحمول اعتناؤه ليس العجب ممن يأتي الى رجل نبيه
 القدر يرفعه انما العجب ممن يحبي الميت وينبه الخامل ويرفع الوضعيع
 فالما نبيه القدر فتباهته تكفيه وبلغ من افراطه في التعصب ان قال يوما
 ليس بحماية أن تحمي صاحبك وهو محق فان الحق أظهر وأقوى من
 أن يحمي انما الحماية ان تحميه وهو مبطل في اشباه هذه الاخبار وكان
 له أولاد ما منهم الا من ولي القضاء وهم على " وكان على " هذا رجل
 صالحاً ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ثم عزل عنها وولي مدينة
 تلمسان وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه وبمن لا تأخذه
 هوادة في الحق ومن أولاده طلحة ولي قضاء تلمسان ويوسف تركته
 قاضياً بمدينة فاس بلغته وفاته وانا بمكة في سنة ٦٢٠ و ابو عمران موسى
 قاضي الجماعة في وقتنا هذا وسيأتي ذكره في موضعه ان شاء الله عز وجل
 ثم ولي بعد أبي موسى هذا رجل اسمه حجاج بن ابراهيم التجيبي من
 أهل مدينة اغमत من أعمال مدينة مراکش كان حجاج هذا رجلاً
 صالحاً يعد في الزهاد المتبتلين وكان له تبحر في الفقه ومعرفة بأصوله

وبصر بعلم الحديث هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم في الحق
 افترط في ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ونالوا منه
 عند أبي يعقوب فما زاده ذلك الا حياءً وتقريباً الى أن مات رحمه الله في
 حياة أبي يعقوب بالغ من رقة قلبه وسرعة دمعته انه دخل يوماً على أمير
 المؤمنين أبي يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه فلما مثل بين يديه
 زاد في البكاء فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه فقال يا أمير المؤمنين سألتك
 بالله الا اعفيتني قال عزمت عليك لتخبرني أولاً بسبب بكائك قال بينا
 انا قاعد في مجلس الحكم اذ آتيت بشيخ سكران كنت قد حددته مراراً
 فكان من كلامي ان قلت له يا شيخ كيف تحشر ففتح يديه وقال هكذا
 فوالله ما ملكت دمعتي حين عرفت ما عني بقوله انما عرض لي بقول
 النبي صلى الله عليه وسلم ان القاضي يحشر مطوَّلة يده الى عنقه فاما
 أن يحمله عدله أو يهوى به جوره هذا معنى الحديث فاسئلك بالله الا
 اعفيتني فوعده بذلك فقال عسى ان يكون في مقامى هذا فقال له لا افعل
 حتى أجد عوضاً منك فخرج من عنده فما لبث الا أياماً يسيرة حتى مات
 رحمه الله عليه ثم ولى بعده القضاء ابو جعفر احمد بن مضاء من أهل
 مدينة قرطبة فلم يزل ابو جعفر هذا قاضياً الى أن مات أمير المؤمنين
 ابو يعقوب وصدرأ من خلافة أبي يوسف المنصور رحمه الله

❦ فصل ❦ ولما استوثق لابي يعقوب هذا الامر لم يزل مقبلاً
 يبرأ الى أن كانت سنة ٥٦٧ فبدأ له أن يعبر الى جزيرة الاندلس
 مظهرأ قصد غزو الروم ومبطنأ اتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في
 يد محمد بن سعد المعروف بابن مرزنيش منها وكان يملك منها ابن سعد

المذكور من اول اعمال مرسية الى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقها
وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته اياها ومن اين اتصلت اليه فجمع
امير المؤمنين ابو يعقوب جموعا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من
اصناف الجند وسار حتى نزل مدينة سبتة فبنى له بها منزل هو باق هناك
الي اليوم فأقام بها الى أن تكاملت جموعه ولحق به من كان تأخر عنه
من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة اشيلية فنزلها ووجه العساكر
الى محمد بن سعد وكان أخو ابي يعقوب عثمان بن عبد المؤمن واليا على
مدينة اغرناطة فكتب اليه أن يقصد بالعساكر الى مدينة مرسية دار
مملكة محمد بن سعد فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريبا منها بموضع
يدعي الجلاب وخرج اليه محمد بن سعد في جموع عظيمة أكثرها من
الافرنج لان ابن سعد كان مستعينا بهم في جروبه قد أخذهم اجنادا له
وأنصارا وذلك حين احس باختلاف وجوه القواد عليه وتسكر أكثر
الرعية له فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع من القتل
بلغنى أن منهم من بني عليه في حائط وتركه حتى مات جوعا وعطشا
الى غير هذا من ضروب القتل واستدعي النصارى كما ذكرنا فجعلهم
اجنادا له وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه وأخرج كثير من أهل
مرسية وأسكن النصارى دورهم فزحف كما ذكرنا بجيشه ومعظمهم من
الافرنج فالتقى هو والموحدون بالموضع المعروف بالجلاب على أربعة
أميال من مرسية فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاما قبيحا وقتل من
أعيان الروم جملة ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعدا للحصار
فضايقه الموحدون وما زالوا محاصرين له الى أن مات وهو في الحصار
حتف انفه وسترته وفاته الى أن ورد أخوه يوسف بن سعد الملقب

بالرئيس من بالنسية وكان واليا عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيه
 ورأى أكابر ولد محمد بن سعد بعد أن اتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل
 وجه من وجوه الحيل على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي
 يعقوب ويسلموا اليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل إن أبا عبد الله محمد بن سعد
 حين حضرته الوفاة جمع نبيه وكان له من الولد على عالمي ثمانية ذكور
 وهم هلال يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده واليه أوصي وغانم والزبير
 وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي باسمهم وبنات
 تزوج احدها من أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوج الاخرى أمير المؤمنين
 أبو يوسف يعقوب بن يوسف فكان فيما أوصاهم به أن قال يا بني اتي
 أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في
 طاعتهم واني أظن انه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا اليهم الامر اختياراً
 منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم
 ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أي الامرين
 كان وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من اشبيلية قاصداً بلاد الادفنش
 لعنه الله فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وبذ وذلك انه بلغه ان أعيان
 دولة الادفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة فأقام محاصراً له أشهراً
 الى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة يكثر
 عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الامر ان أهل هذه المدينة لما برح
 بهم العطش أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم على أن
 يخرجوا له عن المدينة فابى ذلك عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة
 عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سمع لهم في بعض
 الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات وذلك انهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع

قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقيمهم خفاء مطر عظيم كأفواه القرب
ملا ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين
فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً الى اشبيلية بعد أن هادن الادفنش
لعنه الله مدة سبع سنين ولم يزل أمير المؤمنين مقبياً بالاندلس بقية سنة
سبع وثمان وتسع الى أن رجع الى مراکش في آخر سنة ٥٦٩ وقد
ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجمليتها ولم يخرج عن طاعته شيء منها
وفي سنة ٧١ خرج الى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل
الذين بدرن قم له ما أراد من اتحاد الفتنة وجمع الكلمة واطفاء النائرة
وحسم الخلاف وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القليلة المسماة بعمارة
مفارقة الجماعة وحسم اليد من الطاعة وكان رأسهم في ذلك الذي اليه
يرجعون وعميدهم الذي عليه يعولون رجل اسمه سبيع بن حيان ووافقه
على ذلك أخ له يسمى مرزدغ فدعوا الى الفتنة واجتمع عليهما خلق
كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حزر ولكنها
مسافة بلادها طويلاً وعرضاً نحو من أنقى عشرة مرحلة فخرج اليهم
أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فاسلمتهما مجموعهما وتفرق عنهما من كان
اجتمع عليهما وأخذ قبض اليد فقتلا صبراً وصاباً ثم رجع أمير المؤمنين
أبو يعقوب الى مراکش

وفي أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراکش قاصداً بلاد افريقية
فقصدها منها مدينة قفصة وكان قد قام بها رجل اسمه علي يعرف بابن
الزند وتلقب بالناصر لدين النبي فحصره أبو يعقوب والموحدون الى أن
استنزلوه وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ورجعوا الى مراکش
وفي هذه السفارة صالحه ملك صقلية وأرسل اليه بالانابة بعد أن خافه

خوفاً شديداً فقبل منه ما وجه به اليه وهادنه على أن يحمل اليه في كل سنة مالا اتفقا عليه وبلغني أنه اتصلت اليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثاها مما اشتهر منها حجير ياقوت يسمى الحافر جعلوه فيما كللوا به المصحف لاقبته له على قدر استدارة حافر الفرس هو في المصحف الى اليوم مع أحجار نفيسة وهذا المصحف الذي ذكرناه وقع اليهم من نسخ عثمان رضى الله عنه من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلبي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لولا أن أخضران وموضع الاسنة منهما ذهب شبه تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر يقال أنه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة موهة بالذهب هذا كله بين يدي الخليفة منهم ورجع أمير المؤمنين ابو يعقوب الى مراكنش من افريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ودانت له جزيرة الاندلس بأسرها كما ذكرنا وكثرت في أيامه الاموال واتسع الخراج وكان كاذكراً نسخياً جواداً بلغني أنه اعطي هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر صاحب شرقي الاندلس اثني عشر ألف دينار في يوم واحد وهلال هذا معه أخبار عجيبية من تربيته اياه واحسانه اليه ووجه له أخبرني بعض ولد هلال هذا انه سمع أباه يقول رأيت في المنام في بعض الليالي كأن أمير المؤمنين ابو يعقوب ناولني مفتاحاً فلما أصبحت اذا رسوله يستحثني فركبت وأتيت القصر فدخلت عليه وسلمت فاستدناني حتي مست ثيابي ثيابه ثم أخرج إلي من تحت براسه مفتاحاً على النحو الذي رأيت في المنام وقال

خذ اليك هذا المفتاح فتهيأت أن أسأل عن شأن المفتاح فقال لي ابتداء
 يا أبا القمر ان عامل مرسية أرسل إلينا في جملة ما أرسل صندوقا وجدته
 زعم في بعض خزائكم لا يدري ما فيه وهذا مفتاحه ونحن لا ندري
 ما فيه فقلت هلا أمر أمير المؤمنين أن يفتح بين يديه فقال لو أردنا أن
 يفتح بين أيدينا لم نسلم اليك المفتاح وأمر ختم الصندوق إلى ففتحت
 فإذا فيه حلوى وذخائر من ذخائر أبي ماساوي أكثر من أربعين ألف
 دينار ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا
 أحاديث في الجهاد تملأ على الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم
 إلى اليوم فجمع العلماء ذلك وجاؤا به إليه فكان يملأه على الناس بنفسه
 فكان كل واحد من الموحدين والسادة يحجي بلوح يكتب فيه الاملاء
 فجاء هلال هذا المذكور يوما ولا لوح معه فأخرج القوم ألواحهم فقال
 له الوزير ابن لوحك يا أبا القمر فحجل وافتتح يعتذر فأخرج له أمير
 المؤمنين من تحت برنسه لوحا وناوله إياه وقال هذا لوحه فلما كان من
 الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين فلما نظر إليه قال
 له أين لوحك بالأمس يا أبا القمر فقال خباته وأوصيت إذا امت أن يجعل
 بين جلدي وكفني واتبع ذلك بكاء حتى أبكي بعض من كان في المجلس
 فقال أمير المؤمنين هذا المحب الصادق وأمر له بنخيل وأموال وخلع ولبنية
 بمثل ذلك وكان الذي يسهل عليه بذل الاموال مع ما جبل عليه من
 ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي تحصل منها الاموال كان يرتفع
 إليه خراج إفريقية وجملة في كل سنة وقرمات وخسين بغلا هذا من
 إفريقية وحدها خلا بجاية واعمالها وتلمسان واعمالها والمغرب وحدها
 المغرب عندهم الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط

نازا الى مدينة تدعى مكناسة الزيتون طول هذه المسافة وعرضها نحو
 من سبعة مراحل وهي اخصب رقعة على الارض فيما علمت وأكثرها
 أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعناباً ومدينة سلا وأعمالها
 وسببة وأعمالها وأعمال سببة هذه في غاية السعة والضخامة لان بلاد غمارة
 كلها ترجع اليها وهي كما ذكرنا طولاً وعرضاً نحو من اثني عشرة
 مرحلة وجزيرة الاندلس قاطبة أول ذلك آخر بلاد المسلمين مما يتاخم
 أرض الروم وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شلب ومسافة
 ذلك طولاً وعرضاً نحو من أربع وعشرين مرحلة هذا كله لا ينازعه
 اياه أحد ولا يتمتع عليه منه درهم مضافاً الى مراكش وأعمالها وأعمال
 مراكش أيضاً في نهاية من السعة لان بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً
 كثيرة فلم يرتفع الملك من الملوك اعنى ملوك المغرب قبل أبي يعقوب
 هذا وبعده ما ارتفع اليه من الاموال وقد بلغني من جهة رجل من
 أصحابنا كان يتولى بيوت الاموال قال لي وجدت خرائط كثيرة مما
 كان يرتفع الى أمير المؤمنين أبي يعقوب بمجتمها قال لي هذا القول في
 غرة سنة ٦١١ وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها
 من الغز وذلك في آخر سنة ٧٤ وما زالوا يكثرُونَ عندنا الى آخر
 أيام أبي يوسف ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم
 كثيرة خصب وانتشار امن ودرور أرزاق واتساع معاش لم ير
 أهل المغرب أياماً قط مثلها واستمر هذا صدراً من امارة أبي يوسف
 ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو واستنفر أهل السهول
 والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة
 الاندلس فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا وقصد مدينة اشبيلية على

عاقبته اذ هي منزله ومنزل الامراء من بنيہ بالاندلس أيام كونهم بها فقام
بها ريث ما أصلح الناس شؤنهم وأخذوا أهبتهم ثم خرج يقصد مدينة
شنترين أعادها الله للمسلمين وهذه المدينة أعنى شنترين بمغرب الاندلس
وهي من أمنع المدائن وقد تقدم ذكرها في أخبار الدولة الممتوية بملكها
وجہاتها مع بلاد كثيرة هنالك ملك من ملوك النصارى يعرف بابن الرقيق
لعنه الله فخرج أمير المؤمنين كما ذكرنا في جيموشه حتى نزل عليها فضايقها
وأخذ في قطع ثمارها وفساد زروعها وشن الغارات على نواحيها وكان
بن الرقيق لعنه الله حين سمع بحركة أبي يعقوب اليه وصح عده انه
يقصده نظر في أمره فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته فلم يكن له
هم الا ان جمع وجوه دولته وأعيان جنسده وذوى الغناء من قواده
وسائر اتباعه ودخل بهم مدينة شنترين وأتوا بحصانته وشدة منعها هذا
بعد ان ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميع ما يحتاج اليه وجلل أسوارها
مقاتلة معهم الدرق والقسي والحراب الى غير ذلك مما يحتاج اليه فنزل
عليها أبو يعقوب فالفأها كما ذكرنا قد استعد أهلها بكل ما يظنون نافعاً
لهم ودافعاً عنهم وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الاندلس المشهورة
يسمى تاجوا فبالغ أبو يعقوب كما ذكرنا في التضيق عليها وانتساف
معاشها وقطع المواد والمدد عنها فآزاد ذلك أهلها الاصرامة وشدة
وجلدا تخاف المسلمون هجوم البرد وكان في آخر فصل الخريف وخافوا
ان يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره . يتقطع عنهم المدد فأشاروا على
أمير المؤمنين بالرجوع الى اشبيلية فاذا كان وجه الزمان عادوا اليها أو
بعث من يتسلمها وصوروا له أنها في يده لا يمنعها منها مانع فقبل ذلك
منهم ووافقهم عليه وقال نحن راحلون غداً ان شاء الله ولم ينتشر هذا

القول كل الانتشار لانه كان قاله في مجلس الخاصة فكان أول من قوض خيائه واطهر الاخذ في أهبة الرحيل ابو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقي وقد تقدم ذكر ابيه في قضاة عبد المؤمن وكان ابو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم يدعى خطيب الخلافة وكان له حظ جيد من الفقه ومعرفة الحديث وقسم وافر من قرص الشعر وصناعة الكتابة فلما رآه الناس قوض خيائه قوضوا أخبيتهم ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها فعبّر في تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرساً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل ولم يبق الا من كان بقرب خيائه أمير المؤمنين وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه ابو يعقوب والمسلمون من الرحيل ورأوا انقضاض الاجناد وافتراق أكثر الجموع خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتهم في خيل كثيفة فحملوا على من يليهم من الناس فانهمزوا أمامهم حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين ابو يعقوب فقتل على باب الخلاء من اعيان الجند خلق كثير أكثرهم من اعيان الاندلس وخلص الى أبي يعقوب فطعن تحت ستره طعنة مات منها بعد أيام يسيرة وتدارك الناس فانهمز الروم راجعين الى بلادهم بعد أن قضوا ما قضوا وعبر بأمر المؤمنين النهر جريماً فجعل في محفة وسير به وسأل أمير المؤمنين من كان السبب في حركة الناس على هذا الوجه المؤدى الى هذا الاختلال فأخبر بما فعله ابو الحسن المالقي فقال يتوعدده سيجنى ثمرتها ان شاء الله فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فاراً بنفسه علي ملك الروم ابن الرقيق فأحسن

نزله وأكرم منواه وأجري عليه رزقا واسعا ولم يزل عنده مكرما الى أن
 بدا له من سوء رأيه ان يكتب كتابا الى الموحدین يستعطفهم ويسأل من
 عرفه من أعيانهم الشفاعة له وأدرج في ضمن ذلك فصلا يذكرك فيه ضعف
 المدينة وانهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ويدلهم على بعض
 عوراتها مما كان خفي عنهم وقال لملك الروم ابن الرقيق اني أحب أن
 أكتب كتابا الى عيالي وأولادي وأخبرهم بسلامتي وأعلمهم اكرام الملك
 اياي واحسانه إلى وما أنا فيه من العافية حتي تطمئن نفوسهم وأريد أن
 توجه مع الذي بجعله من يخفّره الى أول بلاد المسلمين فاذن له في ذلك
 وأجابه اليه فكتب الكتاب وكان العليج الموكل به الذي يقوم عليه ويأتيه
 بكل ما يحتاج اليه يعرف لسان العرب الا أنه لم يكن يتكلم به ويقرأ الخط
 العربي فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشورا
 ولم يخضر له ان العليج يعرف شيئا من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي
 فلمح العليج الكتاب لمحّة ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده فغضب
 حتي دخل على الملك وأخبره الخبر وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه الي
 بعض عبيده فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بخو من مرحلة
 أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتاب منه فلما أتى بالكتاب فتحه وجمع
 المسلمين الذين بالمدينة والقي اليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور
 واستحضر أبا الحسن وقال لترجمانه قل له ما حملك على ما صنعت مع اكرامي
 لك ويرى بك فكان من جوابه ان قال ان برك بني واكرامك اياي لا يمنعاني
 من النصيح لأهل ديني والدلالة لهم على ما فيه مصلحتهم فشاور ابن الرقيق
 لعنه الله فسيّسه في أمره فاشاروا عليه باحراقه فأحرقه وأما ما كان من
 أمر أمير المؤمنين أبي يعقوب فانهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا انقله الجرح

واشتد عليه فما ساروا به الا ليلتين أو ثلاثاً حتى مات رحمه الله فاخبرني من كان معهم في تلك السفرة انه سمع النداء فيما بين العشاءين في العسكر كله الصلاة على الجنائز جنائز رجل فصلى الناس قاطبة على الجنائز لا يعرفون على من صلوا ولم يعلم بذلك الا خواص أهل الدولة وساروا به حتى بلغوا اشبيلية فزّلوها فصرّوه وبعثوا به في تابوت مع كافر الحاجب مولاه المتقدم الذكر الى ينملل فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠ أخبرني ابنه أبو زكريا يحيى رحمه الله عليه انه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت
طوى الجديدان ما قد كنت أنسره وأنكرتني ذوات الأعين النجل

﴿ ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف ﴾

(ابن عبد المؤمن)

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي كما ذكرنا يكنى أبا يوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساخر بوبع له في حياة أبيه بامر به بذلك وكانت سنه يوم صار اليه الامر اثنتين وثلاثين سنة فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن توفي في شهر صفر الكاثر في سنة ٥٩٥ ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً وتوفي وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب

(صفته) كان صافي السمرة جداً الى العلول ماهو جميل الوجه

اعين افوه أفتى شديد البكحل مستدير اللحية ضخم الاعضاء جهوري
الصوت جزل الالفاظ أصدق الناس لهجة واحسنهم حديثاً وأكثرهم
إصابة بالظن كان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن مجرباً للأمور عارفاً
باصول الشر والخير وفروعهما ولى الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور
بجناً شافياً وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع اليه
الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبرها بحسب ذلك فحبرت
أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسب ما يقتضيه الزمان والاقام
(أولاده) كان له من الولد محمد ولي عهده وسيأتي ذكر مولده
ووفاته وإبراهيم وعبد الله وعبد العزيز وأبو بكر وزكريا وإدريس
وعيسى وموسى وصالح وعثمان ويونس وسعد ومساعد والحسن
والحسين هؤلاء أولاده الخلفون بعده ومات له في حياته عدة من
الولد وله بنات فيهن كثرة

(وزراؤه) أبو حفص عمر بن أبي زيد الهنتاتي إلى أن مات
ثم وزر له بعده أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص عمر ابنتي المتقدم
الذكر واستمرت وزارة أبي يحيى هذا إلى أن استشهد رحمه الله ببلاد
الروم على ما سيأتي بيانه إن شاء الله فاضطرب أمر الوزارة قليلاً ثم وقع
اختيارهم على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر
وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل هو ابن عم الوزير الشهيد
المذكور آنفاً فوزر أبو عبد الله هذا أياما يسيرة ثم ترك الوزارة مختاراً
وهرب إلى بعض نواحي أشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد فأرسلوا
إليه من رده وأعفوه من الوزارة ثم وزر له أبو زيد عبد الرحمن ابن
موسى بن يوجان الهنتاتي فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات

ابو يوسف وصدر من اماره ابنه ابى عبد الله ثم عزل عن الوزارة
 (حجابه) عنبر الخصى مولاه ثم ربحان الخصى مولاه أيضاً
 الى أن مات وحجب ابنه ابا عبد الله فلم يزل حاجباً له الى أن مات
 ربحان المذكور

(كتاباه) ابو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة كان من
 كتاب أبيه حسب ما تقدم جمع أبو الفضل هذا الى براعة الكتابة
 سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس لم يزل كاتباً له الى أن توفي
 أعني ابا الفضل فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن
 عياش من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الاندلس لم يزل ابو
 عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف تركته حياً حين
 أرحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ثم اتصلت بى وفاته في شهر سنة ٦١٩
 وأنا يومئذ بالبلاد المصريه هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما كاتباً الانشا
 خاصة وكتاب الجيش رجل يعرف بالكباشي ذهب عنى اسمه كان يكتب
 الجيش وقد كان يكتب قبله ابو الحسن بن مقن استمرت كتابة الكباشي
 هذا ديوان الجيش الى ان مات امير المؤمنين ابو يوسف ولم يكتب لهم
 منذ قام امرهم اعنى من كتابة الانشا من عرف طريقهم وصب في
 في قلوبهم وجرى على مهبهم وأصاب ما في أنفسهم كأبى عبد الله بن
 عياش هذا فان القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ثم جرى
 الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم
 لتلك الطريقة

(قضائه) ابو جعفر احمد بن مضاء المتقدم الذكر الى أن مات
 وولى بعده ابو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ثم

عزله وولى بعده أبا القاسم احمد بن محمد رجلا من ولد بقی بن مخلد
 الفقيه المحدث الذي يروى عن احمد بن حنبل وقد تقدم ذكر بقی
 هذا وطرف من أخباره في صدر الدولة الاموية في أخبار الامير محمد
 ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل
 بالاندلس لم يزل ابو القاسم هذا قاضياً الى أن توفي أمير المؤمنين ابو
 يوسف وشيئا من أيام ابنه محمد

✽ تلخيص التعريف بخبر بيعته ✽

ولما مات ابو يعقوب كما ذكرنا على مراحل من مدينة شنترين
 سترت وفاته الى أن بلغوا اشيلية وهم في كل يوم يصبحون بمشون بين
 يدي الدابة التي عليها الحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة فميركبون
 والحفة مسدول عليها ستر أخضر الى أن بلغوا اشيلية كما ذكرنا فخرج
 الاذن من أمير المؤمنين ابى يعقوب زعموا بتجديد البيعة لابنه ابى يوسف
 فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الاصناف وكان الذي سمي في
 بيعته وقام بها ورغب فيها وتولي كبر أمرها ابن عمه ابو زيد عبد الرحمن
 ابن عمر بن عبد المؤمن فتم له الامر وبايعه الناس يحسبون ذلك بأذن
 أبيه فلما فرغ مما أراد من ذلك وتهايا له أعلن وفاة أبيه عند خواص
 الدولة ولم تجر عاداتهم باعلان موت خلفائهم عند العامة الى هلم وكان له
 من أخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلا للامارة لما كانوا يعرفون
 من سوء صباه فلقى منهم شدة على ما سيأتي بيانه وكانت هذه البيعة العامة
 كما ذكرنا في سنة ٥٨٠ ولما استوثق أمره على ما تقدم عبر البحر
 بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا وبها تمت بيعته واستجاب له من
 كان تلکاً عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن بعدما ملا أيديهم أموالا

واقطعهم الاقطاع الواسعة ثم شرع في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر والنهر من العدو التي تلى مراكش وكان ابو يعقوب رحمه الله هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها فشرع ابو يوسف كما ذكرنا في بنيانها الى أن أم سورها وبني فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مآذنة في نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد فيه بغير درج تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج اليه الى أعلاها ولم يتم هذا المسجد الى اليوم لان العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً وأما المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها وهي مدينة كبيرة جداً منها تحيط في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة العرض ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته الى سنة ٥٩٤ وسار هو حتى نزل مراكش

وفي هذه السنة أعني سنة ٨٠ خرج الميريقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميرة قاصدين مدينة بجاية فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وهذا أول اختلال وقع في دولة المصامدة لم يزل أثره باقياً الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وتلخيص خبر هؤلاء القوم اعني بني بن غانية إن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وجه الى الاندلس برجلين إسم أحدهما يحيى والآخر محمد ابني علي من قبيلة مسوفة يعرفان بابني غانية وهي أهمها فلما يحيى

منهما وهو الأكبر فكان حسنة من حسنات الدهر اجتمع له من المناقب ما افرق في كثير من الناس فنها انه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله عز وجل والتعظيم له والاحترام للصالحين هذا مع علو قدم في الفقه واتساع رواية للحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً اذا ركب عدو حده بخمسمائة فارس وكان على بن يوسف بعده للعظام ويستدفع به المهمات وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم كان أمير المسلمين ولاء مدينة بالنسية ثم عزله عنها وولاه قرطبة فلم يزل بها والياً الى أن مات رحمة الله عليه أول الفتنة الكائنة على المرابطين لا أعلم له عقباً وكان أخوه محمد والياً من قبله على بعض أعمال قرطبة فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقى يحول في بلاد الاندلس والفتنة تزايد ودعوة المصامدة تنتشر فلما اشتد خوف محمد هذا أتت مدينة دانية فعبر منها الى جزيرة مبرقة في حشمه وأهل بيته فملكها والجزيرتين اللتين حوفا مبرقة وبابسة ويقال ان أمير المسلمين على بن يوسف نفاه اليها على طريق السجن بها فالله أعلم وهذه الجزيرة أعنى مبرقة أخصب الجزر أرضاً وأعد لها هواء وأصفاها جواً طوها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب الى غير ذلك مما يخشى ضرره ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تريان منها في الخصب تسمى احدهما مبرقة والاخرى بابسة وقد تقدم ذكرهما فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه وأقام فيها جارياً على أمر لمتونة الاول يدعو لبني العباس وكان له من الولد عبد الله واسحاق والزبير وطاحه وبنات فعهد في حياته الى أكبر ولده

عبد الله فنفس ذلك عليه اخوه اسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند
وعبيد له فقتله قيل في حياة أبيه وقيل بعد وفاته وتوفي عبد الله المذكور
واستقل ابو ابراهيم بالملك استقلالاً حسناً وحسنت حاله وكثر الداخلون
عليه بجزيرة مبرقة من قل لمتونة وبقياءهم فكان يحسن اليهم ويصلهم حسب
طاقته وأقبل على الغزو وصرف عنايته اليه فلم يكن له هم غيره فكان
له في كل سنة سقرتان الى بلاد الروم يغم ويسبي وينكي في العدو أشد
نكايه الى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوى بذلك أمره وتشبه
بالمملوك ولم يزل هذه حاله ان أن توفي في سنة ٧٩ في أوها وفي آخر أيام
أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان يرسل الموحدين ويهاديهم
ويهادنهم ويختصمهم من كل ما يسبي ويغم بنفسه وجيده يشغلهم بذلك
عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها فلما كان في
شهور سنة ٥٧٨ والوا اليه الكتب يدعونه الى الدخول في طاعتهم
والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك فوعدهم ذلك واستشار
وجوه أصحابه فاختلفوا عليه فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وخاض له
على الدخول فيما دعوه اليه فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر الى أن
ينظر وخرج الى بلاد الروم غازياً فاستشهد رحمه الله هناك وقيل انه
طعن طعنة في خلقه لم يمت منها مكانه وانما جيء به حيأحتي أدخل قصره
فمات فيه فانه أعلم وكان له من الولد علي وهو أكبر ولده والقائم بأمره
من بعده ويحيى وأبو بكر وسير وتاشفين ومحمد والمنصور وابراهيم
توفي ابراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل
ولما توفي أبو ابراهيم اسحق بن محمد المذكور قام بالأمر من بعده ابنه
على بعهد أبيه اليه وخرج بأسطول مبرقة الى العدو وقصد مدينة

بجاية حين راسله جماعة من أعيانها على ما يقال يدعونه الى أن يملكوه
ولولا ذلك لم يحسر على الخروج ومما جرأه أيضا كون الموحدين
بالاندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف
وظن ان الامر سيضطرب وان الخلاف سينشأ فكان هذا أيضا ممما
أعانه على الخروج ولولا هذه الاسباب التي ذكرنا لم يحسر على الخروج فقط
ساحل بجاية فنزل به فقاتله أهلها قتالا غير كثير ثم دخلها وكان دخوله
اياها كما ذكرنا يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة
وكان فيها اذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن لم يكن واليا عليها
واتما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن
وكان أبو موسى مارا بها حين رجع من افريقية وكان واليا عليها هو
وأخوه الحسن من قبل أخيهما أبي يعقوب فظهر من العرب افساد
بعض نواحي افريقية فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو علي بجيش من
المصامدة ومن انضاف اليهم من العرب وسائر الجند فالتقوا هم وأولئك
العرب المفسدون فانهزم جند افريقية عنهما وأخذتها العرب أسيرين
فاقاما عندهم وانتهى الخبر الى أبي يعقوب فأرسل الى أولئك العرب
فطلبوا مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط ثم ان الامر تقرر بينهم وبين
الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال فلما أخبر بذلك أبو يعقوب
استكثر المال وقال هذه أيضا مضرة أخرى ان أعطيناهم مثل هذا
المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا
لهم دنابر من الصفر مموجة ففعلوا ذلك وأرسلوا بها اليهم فأطلقوا أباعلى
وأبا موسى ومن كان معهم من خدمهما وحاشيتهما فهذا ما أوجب
كون أبي موسى بجاية فخرج من أسر العرب الى أسر الميرقيين

فدخل على بن اسحق كما ذكرنا بحجاية في اليوم المؤرخ وأقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العباس ثم للامام أبي العباس أحمد الناصر منهم وكان خطيبه الفقيه الامام المحدث المتقن ابو محمد عبدالحق ابن عبد الرحمن الازدي الاشيلي مؤلف كتاب الاحكام وغيره من التأليف فأحرق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ورام سفك دمه فعصمه الله منه وتوفاه حنفاً أنه وفوق فراشه وخرج على بن اسحق من بحجاية بعد أن أسس أموره فيها وصار حتى نزل على قلعة بني حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فأنهى ذلك الى أمير المؤمنين يعقوب فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بحجاية فلما سمع علي بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بحجاية فتلقاء أهلها فلقبهم منشرح الصدر ظاهر البشر وقال لهم من القول ما بسطبه نفوسهم ورد اليهم نافر أنسهم وقد كانوا يظنون غير ذلك فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا واستعمل على بحجاية من أعيان الموحدين رجلا اسمه محمد بن أبي سعيد الجنفيسي ثم سار حتى نزل مدينة تونس فجهز جيشا عظيما أمر عليهم رجلا من ولد عمر بن إبيد المؤمن اسمه يعقوب وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمره فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر وذلك ان الموحدين التقواهم وأصحاب علي بن غانية فانهزم الموحدون انهزاما قبيحا واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه وهلك أكثرهم عطشا ورجع بقيتهم الى تونس حيث أمير المؤمنين فلم شعهم وجبر ماوهي من أحوالهم وخرج هو

بنفسه حتى لقي على بن غانية بموضع يعرف بالحامة حامة دقيوس فلما
وقف أصحاب على الا يسيرا حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عنذرا فأتخن
جراحا وخرج فارا بنفسه فمات في خيمة لعجوز اعرابية وكان حين
خرج من ميرة خرج معه من اخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير
فبقي هؤلاء المذكورين بعد موت أخيه على من كان معهم من أصحابهم
ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه
فقدموه ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك الى
أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه وفي هذه السفارة انتقضت عليهم
أيضا مدينة قنصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقين فزل
عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة
فقتل أهلها قتلا ذريعا بلغني انه قتل أكثرهم ذبحا وأمر بأسوارها
فهتت وفي ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه ابراهيم
يعرف عندنا بالزويلى في قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا
يوسف ويذكر شأن قصصهم ورميهم اياها بحجارة المنجنيق

سائل بقصصة هل كان الشقي لها بعلا وكانت له حالة الحطب

تبت يدا كافر بالله ألها فكان كالكافر الاشقي أبي لب

وفيه يقول

لما زنت وهي تحت الامر محصنة حصبتموها اتباع الشرع بالحصب

أنشدني رحمه الله هذه القصيدة بلفظه من أولها الى آخرها فلما

انتهى الى هذا البيت لما زنت غلبني الضحك لما سبق الى خاطري

من سوء معناه فسترت وجهي وقال لي مالك فلم أملك ان قهقهت فتغير

لي فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق الى خاطري فسبني وقال لي أنت

والله شيطان سيء القريحة غالب على طباعك اللهم واستمر في انشاده
حتى أم القصيدة وأبو اسحق الزويلي هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء
الشعراء جمعتي وإياه مجالس عند السيد الاجل أبي زكريا يحيى بن
يوسف بن عبد المؤمن شاهدت فيها من ظرفه وغازاة بديته ما قضيت
منه العجب ولما فرغ أبو يوسف من أمر أفريقية كر راجعا الى المغرب
ولم يزل يحيى بن غانية قائما بما كان يقوم به أخوه من تدبير الامور ورجع
منهم عبد الله خاصة الى جزيرة مبرقة فالفها قد انتقضت عليهم ودعى
فيها للموحدين فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن اسحق فلما قدم
عبد الله قام معه عاج من علوج أبيه يسمى نجاحا كان نجاح هذا لم ينقض
عهدا ولا نزع يدا من طاعة وكان متحصنا في قلعة ومعه جماعة على رايه
من الموالي والجند فلما قدم عبد الله كما ذكرنا تلقوه وانضاف اليهم
خلق من بوادي الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم فهد بهم عبد الله
الى المدينة فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ففتحوا
له الابواب ودخلها بمن معه وأخرج أخاه محمدا ونفاه الى الاندلس
فخطى محمد هذا عند المضامدة حظوة عظيمة وولوه مدينة دانية فلم
يزل واليا عليها حتى مات واستقر عبد الله بمبرقة فضبط أمرها وجري
في الغزو واخافة العدو على سنن أبيه فلم يزل كذلك الى أن دخلها عليه
الموحدون في سنة ٥٩٩ هـ علي ماسياني بيانه ان شاء الله ولم يزل أمر
يحيى بأفريقية ينتبه نارة ويحمل أخرى وله أخبار يطول شرحها ويخرج
عن الغرض بسطها وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائبا في هذا
الوجه الذي ذكرنا طمع في الامر أخوه أبو حفص عمر الملقب بالرشيد
وعمه سليمان بن عبد المؤمن وكان أحدهما بشرقي الاندلس بمدينة مرسية

والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة فأما أبو الربيع سليمان فسولت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته وصرح بذلك ودعا أشياخهم فالتقى اليهم ما أراد فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعث عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الاشنوعة القبيحة وبلغ الخبر أمير المؤمنين وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتقص أمير المؤمنين أبي يوسف على رؤس الاشهاد تعريضا مرة وتصريحاً تارة والقاء ذلك الى خواصه ليلقوه الى وجوه الاندلس وانتهى ان قتل قاضي مرسية وخطبها المعروف بابن أبي حمزة قيل انه وكزه برئاس السيف في صدره وكزه مات منها بعد أيام فاستحقت هذه الاخبار أمير المؤمنين وأزعجته فعمل من بحاجة الى فاس سبع عشرة مرحلة وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير مثله فلما سمع بقدومه ابو الربيع سليمان وعمر المذكور ان خرجا بالتقيانه فعبر عمر البحر وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضاً فأما عمر فلقية بالقرب من مدينة مكناسة فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه فلما قرب منه لم تدرك بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده وحمل بعد التقييد الى مدينة سلا ولقيه سليمان عمه ففعل به مثل ذلك وسار حتى نزل مدينة سلا وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما وأنقلهما بالحديد وسار حتى بلغ مرا كش فكتب الى القيم عليهما بقتلها وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما فقتلها صبراً ودفنهما وكتب بعلمه بذلك فبلغني انه قال له بنيت قبريهما بالكندان والرخام وجعل يذكر حسنهما فكتب اليه مالنا ولدفن الجبارة انما هما رجلان من المسلمين فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأشربت قلوبهم خوفه بعد أن كانوا

مهاونين بأمره محتقرين له لاشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك وكان قتله هذين الرجلين في سنة ٥٨٣ وأظهر بعد ذلك زهداً وتشفافاً وخشونة ملابس ومأكل وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ويكتب اليهم يسألهم الدعاء ويعمل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جالس هذه الكتب ونحا نحوها لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض في شئ منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة الصحيحة والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسنند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في البطارية فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان عليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنن من الكسا والاموال وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث

وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده الا انهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبابكر بن الجدة أنه أخبرهم قال لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبابكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله أرايت يا أبابكر المسئلة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا في أي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب ان يأخذ به المقلد فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي يا أبابكر ليس الا هذا وأشار الى المصحف أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف فظهر في أيام يعقوب هذا مخفي في أيام أبيه وجده ونال عنده طلبة العلم أعنى علم الحديث ما لم ينزلوا في أيام أبيه وجده وانتهى أمره معهم الى ان قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعونهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم دونهم يامعشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع الى قبيلته وهؤلاء يعني الطلبة لا قبيل لهم الا انا فهما نابههم أمر فانا ملجأهم والى فزعهم والى ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبلغ الموحدون في برهم واكرامهم

ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطرو بن الرقيق لعنه الله مدينة شلب من جزيرة الاندلس فنزل عليها بعساكره وأعاناه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان وقد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها وملك ابن الرقيق لعنه الله البلد

وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر ولم يكن له هم الامدينة شلب المذكورة فنزل عليها فلم تطق الروم دفاعه وخرجوا عنها وعن ما كانوا قد ملكوه من أعمالها ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنا من حصونهم عظيما يقال له طرش ورجع الى مرا كش وبعد رجوعه مرض مرضا شديدا خيف عليه منه وكان قدولى أخاه أبي يحيى الاندلس فجعل يتلصق في خروجه وبسطي تربصاً به وطمعا في وفاته وكما أفاق هو سأل هل عبر أبو يحيى أم لا فلما بلغ أبي يحيى استحثاه اياه أسرع الى العبور وهو لا يشك ان أول ما يرد عليه خبر وفاته فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم الى نفسه وقال ما تركت أمير المؤمنين الا هامة اليوم أو غدا وأيس لها غيري فجعل أشياخ الجزيرة يحيل بعضهم على بعض وأهل بلد على أهل بلد حتى بلغ مرسية وكتبوا بذلك مساطير خوفا على أنفسهم وأفاق أمير المؤمنين من مرضه وأشار عليه الاطباء بالسفر فخرج قاصدا مدينة فاس يحمل في محفة على بغلين وبلغه أمر أبي يحيى المذكور وجاءته كتب أهل الاندلس والمساطر التي كتبوها ولما سمع أبو يحيى بمرر كنه جاء معتذرا اليه حتى عبر البحر فلقية بمدينة سلا فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده هذا الشقي قد جاء وأمر به فقيد ووجه الى أشياخ الاندلس فحضروا وأدوا شهادتهم وأمر به فأحضر وقال انما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم اذا بويح خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما وأمر به فضربت عنقه تولى قتله أخوه لابييه عبد الرحمن بن يوسف وذلك بمحضر من الناس وأمر به فكفن ودفن وأقبل على القرابة فقال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذا شديدا وأمر باخراجهم على أسوأ حال حفاة عراة الرؤس فخرجوا وكل واحد منهم لا يشك انه مقتول ولم يزل أمر

القرابة من يومئذ في خمول وهلم وقد كانوا قبل ذلك لافرق بين أحدهم
وبين الخليفة سواء نفوذ العلامة فكان جملة من قتل يعقوب أخويه وعمه
ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من
العهد فخرجت خيل الادفنش تدوس البلاد وتجووس خلالها الى ان
كثر عنها بالاندلس وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور فعبر البحر
في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بمجموع عظيمة ونزل مدينة اشبيلية
فلم يبق بها الا يسيرا ريث ما عترض الجند وقسم الاموال وخرج يقصد
بلاد الروم وسمع الادفنش لعنه الله بقصده فتجهز هو أيضاً في جموع
ضخمة والتقوا بموضع يعرف بفحص الجديد وكان الادفنش قد جمع
جموعاً لم يجتمع له مثلاً قط فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين
وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم وأمير المؤمنين في ذلك كله
لامستد له الا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين
فلما كان يوم الاربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة
التقى المسلمون وعدوهم فأنزله الله على الموحدين نصره وأفرغ عليهم
صبره ومنعهم اكتاف الروم وكانت الدائرة على الادفنش لعنه الله
وأصحابه ولم ينج الا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده واستشهد
من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم منهم الوزير أبو يحيى
أبو بكر بن عبد الله بن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر في وزراء
أبي يوسف وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى
عنها أهلها فدخلها وأمر بكنيستها فغيرت مسجداً فصلي فيها المسلمون
واستولى على ماحول طليطلة من الحصون ثم رجع الى مدينة اشبيلية
منصوراً مفتوحاً عليه وكانت هذه الهزيمة أخيراً لهزيمة الزلافة المتقدم

ذكرها في مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين

وأقام أمير المؤمنين باشبيلية بقية سنة ٥٩١ وقصد بلاد الروم في السنة الثانية فنزل على مدينة طليطلة بعساكره فقطع أشجارها وانتسف معاشها وغور مياهها وأنكى في الروم أشد نكابة ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً وتوغل بلاد الروم ووصل الى مواضع لم يصل اليها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع الى مدينة اشبيلية فارسل الادفنش اليه لعنه الله يستلهم المهادنة فهأذنه الي عشرين فعب البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مرا كس وذلك في سنة ٥٩٤ فباغنى عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالراحة الى المشرق وجعل يذكّر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبده ويقول نحن ان شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه الى أن مات رحمه الله في صدر سنة ٥٩٥ كما ذكر ودفن بتينمل مع آبائه وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متجرباً له بحسب طاقته وما يقتضيه اقليمه والامة التي هو فيها كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الاول فن ذلك أنه كان يتولى الامامة بنفسه في الصلوات الخمس لم يزل على ذلك مستمراً أشهر الى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاء كاد وقتها يفوت وقعد الناس ينتظرونه تفرج عليهم فصرى ثم أوسعهم لوما وتأنيباً وقال ما أرى صلاتكم الا لنا والا فسا منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلي بكم أليس قد قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب أما لكم بهم أسوة وهم الائمة المتبعون والهداة المهتدون فكان ذلك سبباً لقطعه الامامة وكان يقعد للناس عامة لا يحجب عنه أحد من صغير ولا

كبير حتى اختصم اليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما وأمر
الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما
وقال لهما أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا فكان هذا أيضاً
مما حمّله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره
ولما ولي أبا القاسم بن بقي المتقدم الذكر كان فيما اشترط عليه أن يكون
قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا فكان يقعد في موضع بينه
وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء
الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم
وحكامهم وكان اذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم
وقضاةهم وولاتهم فاذا أنشأوا خيراً قال اعلموا انكم مسؤولون عن
هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم الا حقاً وربما تلا في
بعض المجالس (بأبيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) ولما خرج الى الغزوة الثانية سنة
٩٢ وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل الله فيها
الادفنى وجوعه وأعز الاسلام وأنصاره كتب قبل خروجه الى
جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين الى الخير وحملهم اليه
فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فاذا نظر
اليهم قال لمن عنده هؤلاء الجند لاهؤلاء ويشير الى العسكر فكان في
ذلك شبهها بما حكى عن قتيبة بن مسلم والى خراسان حين لقي الترك
وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع فجعل يكثر السؤال عنه
فاخبر انه في ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه الى
السماء ينفض بها فقال قتيبة لاصبعه تلك أحب الى من عشرة آلاف

سيف ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا أمر لهؤلاء
القوم بأموال عظيمة فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد
فتساوى عنده رضى الله عنه الفريقان وقال لكل مذهب ولم يزد هؤلاء ردهم
ولا نقص أولئك قبولهم وكان كثير الصدقة بلغنى أنه تصدق قبل خروجه
الى هذه الغزوة أعنى التي كانت فيها الوقعة الكبرى باربعين ألف دينار
خرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي فى القرابة أدركتهم وقد قسموا
مدينة مرا كش أرباعا وجعلوا فى كل ربع أمانة معهم أموال يتخرون
بها المساتير وأرباب البيوتات وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له
الايتماء المنقطعون فيجمعون الى موضع قريب من قصره فيختنون
وبأمر لكل حبي منهم بمئثال ونوب ورغيف ورمانة وربما زاد على
المئثال درهمين جديدين هذا كله شهادته لا أنقله عن أحد من الناس
وبنى بمدينة مرا كش بیمارستان ماأظن ان فى الدنيا مثله وذلك انه تخير
ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن
الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على
الاقتراح وأمر أن يفرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المشمومات
والمأكولات وأجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة
على أربع برك فى وسطه احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش
النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على
الوصف ويأتى فوق التعت وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم
الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية وأقام فيه
من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاحمال وأعد فيه للمرضى
نياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان

كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريث ما يستقل وإن كان غنيا دفع إليه ماله وتركته وسببه ولم يقصره علي الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمرا كش من غريب حمل اليه وعولج الي أن يسريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاة يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم الي غير ذلك من السؤال ثم يخرج لم يزل مستمرا على هذا الي أن مات رحمه الله وفي أول ولايته إماسة ٨٣ أو ٨٢ ورد علينا البلاد الغز من مصر كان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقش ذكروا انه كان مملوكا لتقي الدين بن أخي الملك الناصر ورجل يسمى شعبان ذكروا انه من أمراء الغز ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضي عماد الدين في آخرين فاحسن نزلهم وبالع في تكريمهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك ان الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات في كل سنة في كل أربعة أشهر مرة وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل وقال الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشئ لهم في البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجامكية والموحدين لهم الاقطاع والاموال المتأصلة هذا مع انه أقطع أعيانهم اقطاعات كقطاع الموحدين أو أوسع أقطع رجلا منهم فيما أعرف من أهل اربل يعرف بأحمد الحاجب مواضع ليس لاحد من قرابته مثلها وأقطع شعبان المذكور بالاندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحو من تسعة آلاف دينار هذا خارجا عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لاحد من الاجناد غيرهم مثلها ولم يرد المغرب من هذه الطائفة أعني الغز اللطف حسا ولا اذكي نفسا ولا أحسن محاضرة ولا أطيب عشرة من شعبان هذا

المذكور ما لقيه الاستنشدني أو أنشدني يوما لشاعر من أصحابنا
من أهل اشيلية

وقائل فيم لم تهجع فقلت له كيف الهجوع لطرف نافر الوسن
لم تدران الكري الممنوع عن بصرى هي السنت التي في مقلي حسن
فضحك وقال لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ورفرف فما طار وأراد
غاية فوق دونها والله من أنار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ
وأيسر كلفة حيث يقول

أعيدوا صاحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الجباب
قلت هو أبو الطيب قال لي نعم هو الطيب أبو الطيب وأنشدته يوما
وقد جري ذكر التنجيس اللفظي فأنشد هو منه وأكثر

إذا صال ذوود بود صديقه فيأبها أخل المصاحب لي صل بي
فاني مثل الماء لنا لصاحي وناهيك للاعداء من رجل صاب

فاستحسنهما وكتبهما عنده وقال لي رحمه الله لك على بهذين البيتين حق
فما وافقتي شيء من الشعر في هذا المعنى ولا في غيره ولا وقع مني موقعهما
وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد وكان يقرض شيئا من الشعر
وربما ندرت له الابيات الجيدة سألته ان يكتب لي شيئا من شعره أو
ينشدني فآبني على كل الاباء وحلف لا يفعل وخرج أمير المؤمنين أبو
يوسف الى تينملل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون فعدوا تحت
شجرة خروب مقابلة للمسجد وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما
قال لهم ووعدهم به ليبصرون منكم من طال حياته أمراء أهل مصر
مستظاين بهذه الشجرة قاعدين تحتها فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة
تحتها كان ذلك اليوم في تينملل يوما عظيما اتصل التكبير من كل جهة

وجاء النساء يولولن ويضررن بالدفوف ويقان مامعناه بلسانهم صدق مولانا المهدي نشهد أنه الامام حقا فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافا لعقولهن لانه لا يرى شيئا من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت فالله أعلم أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس احمد بن ابراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل اني لا أقول بالعصمة يعني عصمة ابن تومرت قال وقال لي يوما وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر الى وجود الامام يا أبا العباس أين الامام أين الامام وأخبرني شيخ ممن لقينته من أهل مدينة جيان من جزيرة الاندلس يسمى أبا بكر بن هاني مشهور البيت هناك لقينته وقد علت سنة فرويت عنه قال لي لما رجعت أمير المؤمنين من غزوة الارك وهي التي أوقع فيها بالادفنس وأصحابه خرجنا لتلقاه فقدمني أهل البلد لتكليمه فرفعت اليه فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولائه وعماله على ما جرت عادته فلما فرغت من جوابه سألتني كيف حالي في نفسي فتشكرت له ودعوت بطول بقاءه ثم قال لي ما قرأت من العلم قلت قرأت تواليف الامام أعني ابن تومرت فنظر الى نظرة المغضب وقال ما هكذا يقول الطالب انما حكمك ان تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت في اضراب بهذه الحكايات لو أوردناها اطلال بها هذا التلخيص وكان عند رجوعه من السفرة التي استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم على ما تقدم أمر ان يبنى له على النهر الاعظم نهر اشبيلية حصن وان يبنى له في ذلك الحصن قصور وقياب جاريا في ذلك على عادته من حب البناء

وايثار التشييد فإنه كان مهتماً بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر
يستجده أو مدينة يعمرها زاد في مدينة مرا كش في أيامه زيادة
كثيرة يطول تفصيلها فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد
وفوقه وسمي ذلك الحصن حصن الفرج ولما رجع من غزوة العظمي
المتقدم ذكرها في سنة ٥٦١ جالس للوفود في قبة من تلك القباب
مشرفة على النهر الأعظم وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده
الشعراء فمن أنشده في ذلك اليوم صديق لي من أهل مرسية اسمه
على بن حزمون أنشده قصيدة في عروض يسمى الخب كان يقترحه
على الشعراء ف وقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع
استحسان أولها

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح باندلس
فذر الكفار ومآثمهم	ان الاسلام لفي عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الارض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جوعهم فغدوا	فرساً في قبضة مفترس
جاءوك تضيق الارض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
خرجوا بطراً ورثاء النا	س ليختلسوا مع محتلس
ومضيت لامر الله على	ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهائمهم	المرفض مع الحذب الضرس

سقيت بجميعهم أكم
فأولئك حزب الكفر ألا
أذوى الصلبان وراءكم
ولو أن البحر ساو لها
ولو أن العم تراجعها
ملا التوحيد أغنها
نهضت نهضت فقضت أملا
جاست جنبات الكفر فلم
لم يبق سمانوى رجل
لحقوا بقرون الشم فلا
ان كان نجما أدفنهم
نظر الملك الاعلى فرأى
كالصبح توشح رونقه
ففضى لم يلو على أحد
لصليل الهند بمفرقه
سهر الموتور وأوقه
وبكاء عقائل هائفة
برزت وكان ذوائها
ترنوا كخطباء الرمل على
قد كن منها أنس فغدت
ان الايام قد ازدهرت
وتناسقت الآمال لسا

وطئوا من على دهن
ان الكفار انى نكس
خيل الملك الخبير النديس
جرعا وطئنه على يديس
أضحت كل المقل النعس
وأغارها روح القدس
أنسى عتب الدنيا فنى
ترك لهم مالم تجس
الا وعليه شذى فرس
سقى لطلوهم الدرس
فالى عيش نكد نعس
ملك ما بين قنا وقسى
كالطور بنور الله كسى
ورمى بالدرع وبالترس
لا يسمع صلصلة الجرس
تذكر المتصل والمدرس
كالورق ينحن مع الغلس
اذتاب رواححة شمس
وجل لضراغمة شرس
تحت الرايات بلا أنس
كالروض يروق لمغترس
كالتغر تنظم في لعس

وتلا نور الحق على السائر المهدي فاقبس
أجزيرة أندلس اعظمى بامام الامة واحترسى
رعاك حراسته ملك جبريل له أحد الحرس
حكمت أسياfk سيدنا في كل مصر الكفر مى
ومضت في الروم مضاربها وكذلك تفعل في الفرس
لا يخاف ربك موعده دوح أفطارهم ودس

أوردتها على تواليها وان كان فيها طول لغرابة عروضها وجودة
أكثر أبيانها أشد منها منشئها المذكور من لفظه ثم أعدتها عليه
بلفظي آخر مرة لقيته بمدينة مرسية في سنة ٦١٤ ولعل بن حزمون
هذا قدم في الآداب واتساع في أنواع الشعر ركب طريقة أبي عبدالله
ابن حجاج البغدادي ساجحه الله وغفر له فإربي فيها عليه وذلك انه لم
يدع موشحة تجرى على السنة الناس يتلك البلاد الا عمل في عروضها
ورويها موشحة على الطريقة المذكورة وله مع هذا في الهجاء يد
لانطاوول غير انه يفحش في كثير منه فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك
وأسلمه من الفحش والافذاع أبيات ركب فيها طريقة الخطيئة ابتداء
بهجو نفسه ثم استطرد بهجو رجلا من أعيان قواد الاندلس يقال له

محمد بن عيسى مشهور النجدة عندهم والابيات

تأملت في المرأة وجهي نخلته كوجه عجوز قد أشارت الى اللهو
كان على الازرار متى عورة تنادى الورى غصوا ولا تنظروا ونحوى
فلو كنت مما تنبت الارض لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو
واقبح من مرأى بطنى فانه يقرقر مثل الرعد قرقر في الجو
والا كقلب بين جنبي محمد سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو

يود بأن لو كان في بطن أمه
ثقل ولكن عقله مثل ريشة
تميل بشدقيه الى الارض لحية
وقد حدثوا عنه بكل نقیصة
وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً الا أنه أقذع فيه فلذلك لم
أودعه هذه الاوراق لاني لا أستعجز ان ينقل مثل هذا عني ونال ابن
حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وزوة كل ذلك
خوفا من لسانه وحذرا من هجائه ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً
الاوأهاجى هذا الرجل تحفظ فيه وتدرس أسأل الله له المسامحة ولجميع
أخواننا من المسلمين وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم
في السلاح التام فلما انتشر وابين يديه وأعجبه ما رأي من حسن هياتهم
قام فصلى ركعتين شكر الله عز وجل واتفق أثر فراغه من ذلك
الركوع ان جاءت سحابة فامطرت مطراً جوداً حتى ابتل الناس فقال
في ذلك صديق لي من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أسله من الجزيرة
الخصراء كان يكتب لابي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن
وكان مختصاً به

بادى الكرامة بل بادي الكرامات
باليث شعري ما شيء دعوت به
شيء تأثر عنه الجوفاتصلت
من كل وطفاء لقاء الرباب هم
قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد
فاشهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبيه قدره وله

احسان كثير وقدم راسخة في صناعتى النظم والنثر مع تحقق بشئ من
أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق أنشدنى رحمه الله من شعره
قف بالقباب وأين ذاك الموقف واسألم بمئهم ان يعطفوا
وانشد فؤادك ان عرفت مكانه بين القباب وما أخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غدية وبينها بدم القلوب مطرف
نفسى الفداء لها وان لم تبقى لى نفسا تذكرنى بها وتعرف
وهي قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد على خاطرى سوى ما أورده
وأنشدته رحمه الله يوما ونحن فى قبة على شاطئ نهر وقد أخذ المطر
فى الانسكاب يتبين أحفظهما لشاعر قديم

حاكت عيون الرياح محكمة فى نهر واضح الاساربر
فكلما ضعفت به حلقاً قام لها القطار بالمسامير
فاستحسنهما وقال لى ذكرتنى هذا المعنى وأنشدنى فيه لنفسه أبياتا
ما سمعت بمنلها هذا على اكنار الناس فى هذا المعنى وتوارد هم عليه
حق صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الاسماع فلا
يخلص منه الا من اظف حسه وجاد طبعه وحسن ميزه والابيات
بين الرياض وبين الجو معترك ببيض من البرق أو سمر من السمر
ان أوترت قوسها كف السماء رمت نبلا من الماء فى زعف من الغدر
لاجل ذاك اذا هبت طلائعها تدرع النهر واهتزت قنا الشجر
فانظر حفظك الله الى حسن توطئته لهذا المعنى وقوة تخاصه الى
هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهل على السمع والنطق واستأذنت عليه
يوما وهو فى مجلس أنس له فلم ير رحمه الله ان يحجبني فاسترفع ما كان
لديه وأذن لى فدخلت فلتلقانى أحسن لقاء وأخذ يحدثني وفهمت انه

مستحي خجل اذ عرف اني تقطنت لبعض الامر فانشدته رافعا عنه
كلفة الخجل لبعض الشعراء

أدركها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لاسباب تضمنها السكر
اذا لم يكن سكر يزل به الفقى فسيان ماء في الزجاجة أو خمر
فطرب نضر الله وجهه وعأوده أنسه وانبسط ثم سكت عني ساعة
واستدعى الدواء وكتب بديها في قريب من المعنى الذي أنشدته فيه
ماضرت الخمر لولا الشرع يشربها قوم حديثهم همس التسابيح
ليسوا برعش اذا أدوا فروضهم عند القيام ولا ميل مراجيح
بيت كبت وفيه شادن سدن مزج الكؤوس به وقد المصابيح
وأنشدني بعد هذا لنفسه في هذا المجلس من قديم شعره مقطوعة
سينية لم أسمع بأحسن منها لم يبق على خاطري منها سوى آخر بيت
فيها وهو

ولكن قوما لا يغيب نهارهم اذا غربت شمس يدبرونها شمساً
وله رحمه الله رحلة الى مصر لقي فيها ابن سنا الملك وأخذ عنه من
شعره وهو أول من سمعت يذكره عندنا ويروي شعره ولابي عبد
الله هذا اتساع في صناعة الشعر الا أنه نحل كثيراً من شعره السيد
الاجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ولم
يدع بعد ذلك في شيء مما نخله اياه من شعره ولا ذكر انه له فكان
أكثر شعره ينشد لابي الربيع وترويه الرواة له عرفت ذلك بعد
مفارقته اياه لاني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختاف على كلامه
ورأيت بخطه أنهاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً فعلمت ان ذلك الاول
ليس من نسجه وأخبرني ابن عبد ربه هذا قال دخلت على السيد أبي

الربيع وهو في قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغار في
أعلاها فلما رأيت ذلك المنظر أعجبتى وقلت بديها

لما رأته الشمس يفعل فعاءا في العالمين مقاسما ومساها

خافت توالى الجود ينقد ماله نثرت عليه دنائراً ودراهما

فخذف الياء من دنائير وهذا جازك كما قال الاول

تصل به أمنا وفيه العصافر

ومما يتعلق بأخبار أبي يوسف رحمه الله ما أخبرني شيخني وأستاذي
أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميري رحمه الله أيام قراءتي عليه
بقرطبة سنة ٦٠٦ وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة الى مقطوعة ابن زبيدة
التي أوتها

يا لهف زبيدة للحرث ١١ صائح فالغانم فالآب

فلما انتهينا منها الى قوله

والله لو لا قبته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

قال لنا أحدكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت وذلك ان أمير
المؤمنين أبا يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجها الى لقاء
الادفنش لعنه الله قال لي ولدي عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين
يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر
وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني لان صدقت رؤياك هذه لهر من الادفنش
لعنه الله وخطر لي هذا البيت

والله لو لا قبته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير وأبو جعفر هذا المذكور آخر من انتهى
اليه علم الآداب بالاندلس لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر

قديم ولا حديث ولا أفكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أوبيت
 نادر أو سبعة مستحسنة منه رضى الله عنه وجازاه عنا خيراً أدرك
 جملة من مشايخ الاندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه
 على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم قال لي ولده
 عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو
 أكثرها فألقيتها شديدة الصحة فقلت له لقد كتبها من أصل صحيح
 وتحرزت في نقلها فقال لي ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من
 الأصل الذي كتبت منه فقلت له أين وجدته قال هو موجود الآن
 بين أيدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو فقال لي
 عن يمينك فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني إلا الأستاذ فقال
 لي هو أصلى وبالله كُتبت كان يملئ على من حفظه فجعلت أتعجب
 فسمع الأستاذ حديثاً فلنفت الينا وقال فيما أتمها فأخبره ولده الخبر
 فلما رأى تعجبي قال بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان
 المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيويه
 حافظاً ولا يروونه مجتهداً توفي أبو - هجر هذا في شهر صف من سنة
 ٦١٠ وقد كُتبت له ست وتسعون سنة لم يبق في لاندلس أنلى رواية
 منه في كل ما يروى ولم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تميزه
 وحسن اختياره ومعرفة بعمق هذه الصناعة أكثر انصافاً منه ولا
 أسرع رجوعاً إلى الحق كنت أنشده من شعري على ركا كته وكثرة
 تكلفه وبعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً يحماني على انشادهما
 إياه فرط استدعائه ذلك في فياهجها ويشد استحسانه لها وربما درسها
 حفظها أنشده يوماً وقد استدعى في ذلك على عادته بيتين ارتجلتهما

في شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة رحمه الله مع حسن رائع
وظرف ناصع كان اسمه فتحاً وهما

يا من له عن كناس من المقيم قلبه
ما أنت كاسمك فتح وإنما أنت قلبه

فطرب والنفث الى ابنه وقال له هذا والله الشعر لاما تصدعني به
طول نهارك وان كنت تقول مثل هذا والا فاسكت فلما كان من الغد
قال لي رحمه الله أعلمت ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا
في المثل سكت ألفاً لم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ
معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدهم رونقه ومسحه جملة فقال

سبي فوادي خشف فقوتي اليوم ضعف
مموه فتحاً مجازاً وفي الحقيقة خشف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة فقلت أنا هذا والله أحسن
من شعري فتغير لي وقال يائي دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما تخلق
به الانسان الملقق ونزيبين الباطل سيما اذا أضاف الى ذلك الخلف
الكاذب والله انك لتعلم ان هذا ليس بشيء والا فقد اختل ميزك وساء
اختيارك وما أظن هذا هكذا وسمعته من شدة انصافه رحمه الله
يستحسن بيتين هجاء بهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله وذلك ان
الاستاذ رحمه الله وعفا عنه كان يلقب بالوزغي وكان عنده شاب يقرأ
عليه يلقب بالغرنوق وهو اسم عندهم للسكركي والفصيح فيه غريب
فسكان بعض الطلبة يتهمون الاستاذ بالميل الى ذلك الشاب وذلك خلق
قد أعاده الله منه ونزّهه بفضله عنه فقال ابن خروف في ذلك سامحه الله
أحقا سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن مـ

وكيف وأنت في الحيطان تمشي وذلك يطير في جو السماء
فابعده الاستاذ رحمه الله وأنهى خبره الى القاضي أبي الوليد بن
رشد فاجعه ضربا وامتنع الاستاذ من قراءته عليه خرمه الله بهذين
البيتين فوائده علمه وابعده عن مريع جنابه وولاه الاستاذ خطته والتي
حبله على غاربه فلم يفاح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من
العلم وانما كان يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة وقد امتد بنا عنان
القول الى مالا حاجة لنا بأكثره رغبة في تشييط الطالب واينثارا
الاحماض والمزجج الآن الى ما قطعنا

وفي آخر أيام أبي يوسف أمر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب
لباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة
تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمام كلونات على أشنع
صورة كأنها البراديع تباغ الى تحت آذانهم فشاغ هذا الزي في جميع
يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدر من أيام ابنه أبي
عبد الله الى ان غره أبو عبد الله المذكور بعد ان توسلوا اليه بكل
وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو
عبد الله بإبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا
هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم
بهذا الزي وتمييزه اياهم به شك في اسلامهم وكان يقول لو صح عندي
اسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحهم وسائر أمورهم ولو
صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرائعهم وجعلت أموالهم
فيثا للمسلمين ولسكني متردد في أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي
ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب

بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد
ويقرؤون أولادهم لقرآن جارين على مثلنا وسلتنا والله أعلم بما تكن
صدورهم ونحوه بيوتهم وفي أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد
ابن رشد المقدم المذكور محنة شديدة وكان لها سببان جلّي وخفي فأما
سببها الخفي وهو أكبر أسبابها فان الحكيم أبا الوليد رحمه الله أخذ في
شرح كتاب الحيوان لارسطاطاليس صاحب كتاب المنطق فهذه به
وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لأنفا به فقال في هذا الكتاب عند
ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ وقد رأيتها عند ملك
البربر جاريا في ذلك على طريقة العلماء في الاخبار عن ملوك الامم
وأبناء الاقاليم غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلوا
الكتاب من الاطراء والتقريظ وما جالس هذه الطرق فكان هذا
مما أحقهم عليه غير انهم لم يظهروا ذلك وفي الجملة فانها كانت من أبي
الوليد غفلة فقد قال القائل رحمه الله من عرف زمانه فانه وميز مكانه
فكانه وما أحسن ما قال الاول

وأزلى طول النوى دار غربة اذا شئت لا قيت الذى لا أشاكه
خامقته حتى يقال سحابة ولو كان ذا عقل لكانت أعاقله
واستمر الامر على ذلك الى ان استحكم ما فى النفوس ثم ان
قوما ممن يناوبه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف
السلف سعوا به عند أبي يوسف ووجدوا الى ذلك طريقاً بان أخذوا
بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكيا عن
بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم فقد أظهر ان الزهرة أحد الآلهة
فاوقفوا أبا يوسف على هذه الحكمة فاستدعاه بعد ان جمع له الرؤساء

والاعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة فلما حضر أبو الوليد رحمه الله قال له بعد ان نبذ اليه بالاوراق أخطك هذا فأنسكرك فقال أمير المؤمنين لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلغنه ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وبأحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها ثم لما رجع الى مرا كش نزع عن ذلك كله وجنح الى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعي أبا الوليد من الاندلس الى مرا كش للإحسان اليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد رحمه الله الى مرا كش فمرض بها مرضه الذي مات منه رحمه الله وكانت وفاته بها في آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين رحمه الله ثم توفي أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير وكانت وفاته كما ذكرنا في غرة صفر الكائن في سنة ٥٩٥

﴿ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين﴾

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي أمه أم ولد اسمها زهر رومية يبيع له بعهد أبيه اليه في سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه وقد كان أبوه أمر ببيعته في سنة ٨٦ وسنه اذذاك عشر سنين الا أشهراً وكان مولده في آخر سنة ٥٧٦ ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفاً بها الى ان مات أبوه واستقل بالامر في التاريخ المذكور

وسنة يوم بويغ له البيعة الكبرى العامة سبع عشرة سنة وأشهر وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة الا أشهراً صفته ابيض أشقر شعر اللحية أشهل العينين أسيل الخدين حسن القامة كثير الاطراف شديد الصمت بعيد الغور كان أكبر أسباب صمته لثقا كان بلسانه حلماً شجاعاً عفيفاً عن الدماء قليل الخوض فيما لايعنيه جداً الا أنه كان يخل أولاده كان قليل الولد جداً لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولي عهده ويحيى واسحاق توفي يحيى في حياته بانبليية سنة ٦٠٨ وبلغني عن جماعة من الحشم انه كان رشح يحيى هذا للولاية العهد وله بنات (وزراء) أبو زيد عبد الرحمن ابن موسى بن يوجان وزير أبيه ثم عزله بعد مدة يسيرة وولي بعده أخاه ابراهيم بن أمير المؤمنين أبي يوسف وهو خير ولده وأجدرهم بالامر لو كانت الامور جارية على ايثار الحق واطراح الهوى لا أعلم فيهم أنجب منه كان لي رحمه الله محبا وبني حفيا وصلت الي منه أموال وخلع حمة غير مرة لم أعرفه أيام وزارته لاني كنت اذذاك حديث السن جداً كما ناهزت الاحتلام وانما كانت معرفتي اياه حين ولوه اشبيلية في سنة ٦٠٥ من جهة رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه محمد بن الفضل جازاه الله عني خيراً هو الذي أوصلني اليه أنشدته أول يوم انيته قصيدة مدحته بها أولها

لکم علی هذا الوری التقدیم	وعلیهم التفویض والتسلیم
الله أعلاکم وأعلى أمره	بکم وأنف الحاسدين رغیم
أحیتم المنصور فهو كأنه	لم تفتقده معالم وعلوم
ومحارب ومنابر ومحارب	وحی يحاط وأرمل ویتیم

الى ان أقول فيها في ذكر ولايته اشبيلة

فكانما حمص جمالا سارة وكانت ابراهيم ابراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أثرها سبى فيها الادفنش وهو ذميم
أقول فيها

بذر الصليب صغيره وكبيره فيها جذاذا والعلوج جثوم
ويحرق الاعداء فيما اضرمت ويجوب نار الحرب وهي جحيم

لم يبق على خاطري منها لتقدم عهدا وقلة اعتناءى بها سوى
هذه الابيات التي أوردتها فاستحسنها رحمه الله وبالع في الثناء عليها
تفضلا منه وسوددا وجريا على سنن الاجواد هذا مع ركاكتها وقلة
انطباعها وظهور تكلفها ثم علت حالى عنده بعد ذلك فضر الله وجهه
الى ان كان يقول لى في أكثر الاوقات والله انى لاشتاقك اذا غبت
عنى أشد الشوق وأصدقته ثم لم تزل حالى معه على هذا الى ان فارقت
رحمة الله عليه وهو وال على اشبيلية ولايته اثنائية وكان توديعي اياه
قدس الله روحه آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ثم اتصلت بي
وفاته وانا بصعيد مصر سنة ٦١٧ لم أر فى العلماء بعلم الاثر المتفرغين
لذلك أنقل منه للآثر كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية ثم عزله أبو
عبد الله وولي بعده أبو عبد الله محمد بن على بن أبي عمران الضرير
جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه وكناه أبو يحيى فكان أبو عبد الله
الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة وكان يحضه على فعل
الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته والاحسان الى الرعية والاجناد
رأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعة الارزاق وكثرة العطاء
مثل الذى رأوا فى أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه

ثم عزله وولى بعدهم أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع
كان ابراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت
صحبه من مراكش وكان أصله من الاندلس أبؤه من أهل مدينة
طليطلة ونشأ هو أعني ابراهيم بساحل مدينة شريش على البحر
الاعظم بضعة تسمى روضة وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل
الاندلس قاطبة في كل سنة ثم استقل ابراهيم هذا إلى العدو وكان
يحاول صنعة النحاس فتعرف بأن تومرت فكان من أصحابه فهو
معدود فيهم وولد له أولاد نالوا في الدولة حظوة وجاها متسعا فن
أولاده أبو العلاء ادريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
وقد تقدم ذكره وأبو هذا الوزير المتقدم الذي ذكر اسمه عبد الله كان
يتولى في إمارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها وزيادة على ذلك ولاية
الاسطول في جميع بلادهم فلم يزل كذلك إلى أن مات أظن أمير
المؤمنين أبا يعقوب قتله وترك من الولد يوسف والحسين وعثمان
الوزير هذا المذكور ويحيى وبنات فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا
إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ووزر بعده لابنه أبي يعقوب
إلى حين ارتحلت من البلاد وهو سنة ٦١٤ ثم اتصل بي في شهر
سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سبائي ذكره بعد هذا أن
شاء الله عز وجل (حجابه) ريحان الخصى ويدعي ريحان بينك حجبه
ريحان هذا إلى أن مات ثم حجبه بعده مبشر الخصى يدعي مبشر
ولدى فلم يزل مبشر هذا حاجبا له إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو
عبد الله رحمه الله (كتابيه) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش
المتقدم الذي ذكر في كتاب أبيه وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك

ابن عياش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب وأبو عبد الله محمد بن يحنف بن أحمد الفازازي ذكره الله فيمن عنده وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة وسماعى تلك الالفاظ الحلوة واستمتاعي بتلك الشرائع الشريفة فما أشد شوقى الى تقبيل يديه هؤلاء كتبة الانشا وكتاب الجيش أبو الحجاج يوسف المراني بتخفيف الراء وضم الميم من أهل مدينة شريش من جزيرة الاندلس ثم بعده أبو جعفر احمد بن منيع الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ (قضاه) أبو القاسم أحمد بن بقی قاضى أبيه ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله فلم يزل قاضيا الى ان مات وولى بعده رجلا من أهل مدينة فاس اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر يدعى انه من ولد الحسين بن على بن أبى طاب كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف لم يزل هذا دأبه ولا يرح معروفا به وكان له مع هذا حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين ونشأ من الخلاف اتصل بأمر المؤمنين أبى يوسف في شهر سنة ٥٨٧ فخطب عنده وكانت له منه منزلة سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول وأنا عنده في بيته جملة ما وصل الى من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته الى ان مات تسعة عشر الف دينار خارجا عن الخلع والمراكب والاقطاع لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيا الى ان مات بالاندلس في شهر سنة ٦٠٨ وكانت ولايته في شهر سنة ٦٠١ ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران كان أبوه من قضاة أبى يعقوب فاستمرت ولاية أبى عمران هذا الى هذا الوقت وهو سنة ٦٢١ لم يبلغنى عزله ولا وفاته وأبو عمران هذا الى صديق لم أر صديقا لم تغبره الولاية غيره ولم يزل يعاملنى بما

كان يعاملني به قبل ذلك لم ينقض شيئا من برهما لقيته قط في مركبه
الاسلم علي مبتدئا وجدد لي برا جزاء الله عني أفضل الجزاء وعم
بذلك سائر أخواني

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا وكان الذي تولاهما
وقام بأمرها من القرابة أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن
وهو الذي قام ببيعة أبيه ومن الموحدين أبو زيد عبد الرحمن بن
موسى وزير أبيه وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص وهو
الذي ولاه محمد بعد هذا أمر أفريقية كان أول شيء سرع فيه تجهيز
الجيوش الى أفريقية وذلك ان يحيى بن اسحق بن غانية المتقدم الذكر
كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتعل الموحدون عنه بغزو
الروم فأول جيش جهز من الموحدين الجيش الذي استعمل عليه
السيد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن لم أر لهم جيشا أضخم
منه ولا أكثر سلاحا ولا أحسن عدة وكان فيه من أعيان الموحدين
وأشياخهم جملة وافرة فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى
هو والميرقيون فيما بين بجاية وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة
فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ورجع أبو الحسن الى
بجاية على حالة سيئة وجهز بعد هذا الجيش جيشا على مثاله وأمره
من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير فسار بالجيش حذر
بائع قسطنطينة المغرب ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله عمر
أفريقية وأعمالها السيد الاجل أبا زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن
وخرج هوفى سنة ٥٩٧ الى تنممل لزيارة قبر أبيه أبي يوسف وزيارة
خبرج آبائه وابن تومرت ثم رجع الى مراکش وأقام الى أول سنة

٦٠٩ فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها واشاع
 انه يقصد افريقية هذا بعد ان بلغه ان الميرقي استولى على مدينة تونس
 وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياما وبدا
 له ان يبعث بعثا الى جزيرة ميرقة ليستأصل شافة بني ثانية ويقطع
 دابرهم فعمر الاسطول والطرائد فيها الخيل والرجال واستعمل على
 الاسطول عمه أبا العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى الجيش
 أبا سعيد عثمان بن أبي حفص من أشياخ الموحدين فقصده الجزيرة
 هذان الرجلان ففتحها عنوة وقتلا عبد الله بن اسحاق بن غانية
 الامير عاينها وكان الذى قتله رجل من الاكراد يقال له عمر المقدم
 وذلك انه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران
 فكبت به فرسه فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات وقيل انه قتله
 بسيف نفسه وكان دخولهما ميرقة وقتلها أميرها المذكور في شهر
 ذي الحجة من سنة ٥٩٩ فأتتها أمواله وسببا حرمه ودخلا بهم مدينة
 مراکش على الجمال في هيئة الاسارى فاما النساء فدخل بهن ليلا
 فجعلن في بعض الخانات الى ان نفذ الامر بالمن عليهن واطلاقهن وتزويج
 من تحتاج الى التزويج منهن وتجهيزها بمال وأما الرجال فلم يزالوا في
 الحبس الى ان من عليهم بعد ان ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجنادا فهم
 كذلك الى اليوم وبلغني ان المتولين لفتحها انتهوا منها أموالا عظيمة
 وذخائر نفيسة ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله الى مراکش وبها
 اتصل به خبر فتح ميرقة وكان رجوعه الى مراکش في ذى القعدة
 من السنة المذكورة وقد كان قبل هذا في سنة ٩٧ قام بسوس رجل
 من جزولة اسمه عبد الرحمن يعرف عندهم بما معناه بلسانهم ابن

الجزارة فدعا الى نفسه واجتمع اليه خلق كثير واشتد خوف الموحدين منه فلم يزاوا يجهزون اليه العساكر بعد العساكر وفي كل ذلك يهزمهم الى ان بعثوا بعثا من الموحدين والغز وأصناف الجند بعد ان تقدموا الى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها وقالوا انما يقوي هذا الرجل بتغافلهم عنه ومساحتكم اياه ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوما واحدا فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية والتقوا هم وأصحاب عبد الرحمن المذكور وكان يدعي أبا قسبة فأسلمته جموعه وقتل وسير برأسه الى مرا كش فسكتب الى بعض أخواني وهو اذ ذلك صبي صغير كان مع أبيه بسوس وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله الي من جهة كتاب الموحدين المتولين له رسالة أولها كتب من منزل سوس وقد تبليج فجر الفتح فأسفروا قال فريق الضلال وشيعته ابن المفر وقد ألقى النصر جراحه وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه وشرح الحال على غاية الإيجاز لاجل الاستعجال في انهاء هذه البشار والآنحفازان الناكثين النابذين للعروة الوثقى المتمسكين بالسبب الاشقى حاصرهم الموحدون أنجدهم الله أشد الحصار وقطعوا عنهم مواد المعاش وزرافات الانصار ولسان التأييد يتلوا علينا بالعشي والاشراق ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في حسم دأهم العضال وجردوا لهم من عزائمهم الصادقة ما هو أمضى من النصال طاحوا مجذلين بالحضيض وملأ جثائمهم الفضاء العريض وخيب الله ظنونهم السكاذبة وآمالهم وصيرهم الى امهم الهاوية فسكانت أولى بهم ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم وأمكن الله من رأس

ضالهم المدعو بأبي قصبه فقهره الحزب المنصور وغلبه وحز الحسام
 منه قنة ورقبه انما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردت
 على منه وذلك انه كان حين كتب بها الى لم يحتلم بعد ومع اتصال هذا
 الفتح بهم اتصل معه ففتح جزيرة منركة كان فيها من أصحاب ابن غانية
 رجل اسمه الزبير بن نجاح دخلوها عليه فقتلوه ووجهوا برأسه الى
 مرا كاش فهو معلق بها مع رأس أبي قصبه المذكور ولما كانت سنة
 ٦٠١ تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد
 إفريقية وقد كان الميرقي يحيى بن غانية قد استولى عليها خلا قسطنطينة
 وبجاية هيا له ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال أمير المؤمنين أبي
 يوسف بغزو الروم بالاندلس على ما قدمناه فصار أبو عبد الله حتى
 نزل بلاد إفريقية فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهديّة مهديّة
 بني عبيد فانه أقام عليها أربعة أشهر قبل ان دخلها أوجب ذلك ما قدمنا
 من شدة منعتها وكان يحيى بن غانية قد ولي فيها ابن عمه لحا أبا الحسن
 على بن عبد الله بن محمد بن غانية فلما طال عليه الحصار سلم البلد
 وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ثم بدا له ان يرجع الى الموحدين فأرسل
 اليهم فتلقوه أحسن لقاء ووصلوه من الصلاة النفيسة بما لا قيمة له ولا
 يصل بمثله الا الخلفاء وبعد هذا نزع اليهم أخو يحيى بن غانية سبر بن
 اسحق بن محمد فأكرموا نزله واقطعوه الاقطاع الواسعة بعد ان ماثوا
 يديه أموالا ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقبلا بإفريقية يصلح
 ما أفسده ابن غانية الى ان تم له ما أراد من ذلك وبلغنى ان جملة
 ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملا ذهباً ثم رجع الى مرا كاش
 دار الملك بعد ان ترك بإفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم

بجمايتها ويدود عنها من رامها واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا
محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر ابنتي فأقام بمراكش وكان
رجوعه اليها في شهر سنة ٦٠٤ فأقام بها كما ذكر الى أول سنة ٦٠٧
فانتقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من المهادنة وبدا له ان يقصد
بلاد الروم للغزو فخرج بالجيش حتى عبر البحر وكان عبوره في شهر
ذي القعدة من سنة ٧ المذكورة فسار حتى نزل اشيلية على عادة من
سلف قبله فأقام بها بقية السنة المذكورة وتحرك في أول سنة ٨ فقصد
بلاد الروم فنزل على قلعة عظيمة لهم في غاية المنعة تدعى شل ترة
معناه لسان العرب الارض البيضاء الا ان فيه تقديم وتأخير كما جرت
العادة في لسان العجم ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد وكان
أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياما يسيرة ثم تركها شفقة على
المسلمين وخوفا عليهم فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرب
وخرج الادفنش لعنه الله الى قاصية بلاد الروم مستنفرا من أجه
من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع
عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيده الى القسطنطينة
وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشونني لعنه الله وذلك ان
جزيرة الاندلس يملك جهاتها الاربع أربع ملوك من الروم احدى
الجهات تسمى أرغون وهي التي ذكرنا وهي شرقي الجزيرة مما يقابل
الجنوب منها والجهة الاخرى وهي المملكة الكبرى بلاد تسمى بلاد
قشتال يملكها الادفنش لعنه الله وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب
والشمال أميل الى الجنوب قليلا والجهة الاخرى تسمى ليون فهو أول
الحد الشمالي المغربي يملكها رجل يدعى بالبيوج ومعنى هذا الاسم

بالعربية الكثير اللعاب والجهة الاخرى في الشمال مما يلي البحر الاعظم
 بحر اقنايس يملكها رجل يعرف بابن الريق وقد تقدم ذكره في
 مواضع من هذا الكتاب والجزيرة بأسرها أعنى جزيرة الاندلس
 تسمى في قديم الدهر عند الروم جزيرة اشبانية وبعد رجوع أمير
 المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر الى اشبيلية استنفر
 الناس من أقاص البلاد فاجتمعت له جموع كثيفة وخرج من اشبيلية
 في أول سنة ٦٠٩ فسار حتى نزل مدينة جيان فأقام بها ينظر في أمره
 ويعي عساكره وخرج الادفنش لعنه الله من مدينة طليطلة في جموع
 ضخمة حتى نزل على قاعة رباح وهي كانت للمسلمين افتتحها المنصور
 أبو يوسف في الوقعة الكبرى فسلمها اليه المسلمون الذين بها بعد ان
 آمنهم على أنفسهم فرجع عن الادفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم
 جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة
 وقالوا انما جئت بنا لنتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين
 مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه وخرج أمير المؤمنين من
 مدينة جيان فالتقى هو والادفنش بموضع يعرف بالعقاب بالقرب من
 حصن يدعي حصن سالم فعبا الادفنش جيوشه ورتب أصحابه ودهم
 المسلمين وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خاق كثير
 وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين وذلك انهم كانوا
 على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر لا يخل
 ذلك من أمرهم فابطأ في مدة أبي عبد الله هذاعنهم العطاء وخصوصاً
 في هذه السفارة فنسبوا ذلك الى الوزراء وخرجوا وهم كارهون قبلغي
 عن جماعة منهم انهم لم يسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء

من أهبة القتال بل انهزموا لاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك
ونبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم نباتاً لم ير ملك قبله ولولا نباته
هذا لاستوصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسرا ثم رجع من هذا الوجه
الى اشيلية وأقام بها الى شهر رمضان من هذه السنة ثم عبر البحر
قاصداً مدينة مرا كش وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين
يوم الاثنين منتصف صفر السكأن في سنة ٦٠٩ وفصل الادفش لعنه
الله عن هذا الموضع بعد ان امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالاً
وأمتعة من متاع المسلمين فقصده مدينتي بياسة وأبذة فاما بياسة فوجدتها
أو أكثرها خالية فخرق ادورها وخرب مسجدتها الاعظم ونزل على
ابذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة
وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ثم دخلها عنوة فقتل وسي
وغنم وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملئوا به
بلاد الروم قاطبة فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ولم يزل
أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمرا كش بقية سنة ٩ وأشهرأ من
سنة ١٠ الى ان توفي في شهر شعبان كما قدمنا واختلف عايننا في سبب
وفاته فأصح ما بلغني انه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم
الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتاً لا يتسكلم يوم السبت
والاحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الاطباء بالقصد فأبى ذلك وتوفي
يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ودفن يوم
الخميس صلى عليه خاصة الختم

﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد ﴾

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي
 أمه أم ولد رومية اسمها قر تلقب حكيمة كانت ولادته في صدر شوال
 من سنة ٥٩٤ قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر ببيع له وسنه
 يومئذ ست عشرة سنة لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ثم اتصل بي في شهور
 سنة ٦٢١ ان يوسف هذا توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي
 القعدة سنة ٢٠ فكانت مدة ولايته من يوم ببيع له وذلك لاحت
 عشر يوماً من شعبان من سنة ٦١٠ الى ان توفي كما ذكر في التاريخ
 المذكور عشرة أعوام وشهرين (صفته) كان صافي السمرة مستدير الوجه
 شديد السكل يشبهونه بجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقه (وزراؤه)
 أبو سعيد المتقدم المذكور وزير أبيه استمرت وزارته الى آخر سنة ٦١٥
 ثم عزله وولى بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى بن أبي ابراهيم اسمعيل
 الهزرجي صاحب ابن تومرت والمقتول في حياة عبد المؤمن كما تقدم
 أم هذا الوزير هي بنت أبي يوسف المنصور فهو وزيره الى ان توفي
 كما ذكر (حجابه) مبشر الخصى حاجب أبيه ثم حجبه بعده فارح
 الخصى يكنى أبا السرور فلم يزل حاجباً له الى ان توفي كما قيل (قاضي)
 أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه لم يزل أبو عمران
 هذا قاضياً له الى ان توفي كما قيل (كتابه) أبو عبد الله بن عياش كاتب
 أبيه وجده وأبو الحسن بن عياش ثم اتصل بي وفاة هذين الكاتبين
 وأنا بالديار المصرية في شهور سنة ٦١٩ وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد
 ابن بخلة بن الفاذازي المتقدم المذكور في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد الله

وكان قاضيا بمدينة مرسية من شرقي الاندلس وها فارقت فاعادوه الى
 الكتابة كما كان واستسكتبوا معه ابا جعفر احمد بن محمد بن عبد
 الرحمن بن عباس ابوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم وقد تقدم ذكره في
 كتاب ثلاثة أمراء منهم وكتاب الجليش احمد بن منيع لم يتغير ببيع لابي
 يعقوب هذا يوم دفن أبيه لا أدري أبعد أبيه أم لا لاني أعلم ان
 أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه لما كان يسمع من سوء
 أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن
 عم جده الذي دخل عليه المبرقيون بحجة وهو آخر من بقي من ولد
 عبد المؤمن لصلبه لم تبلغني وفاته الى وقتنا هذا وأبو زكريا يحيى بن
 أبي حفص عمر بن عبد المؤمن كانا قائمين على رأسه ياذنان للناس ومن
 الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي كان أبوه
 أول وزير ووزر لابي يوسف وقد ذكر وأبو علي عمر بن موسى بن
 عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان من
 أهل تنممل وبيع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بايعه أشياخ
 الموحدين والقرابة وفي يوم السبت أذن للناس عامة شهدت ذلك اليوم
 وأبو عبد الله بن عباس الكاتب قائم يقول للناس تباعون أمير المؤمنين
 ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم رسول الله من السمع والطاعة في المنشط والمكروه واليسر والعسر
 والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا
 يجبر بعونكم وان لا يدخر عنكم شيئا مما تعمكم مصالحته وان
 يعجل لكم عطاءكم وان لا يمتنع بدينكم أعانكم الله على الوفاء
 وأعانته على ما قلده من أموركم يعيد هذا القول لكل طائفة الى ان

انقضت البيعة ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة الى ان تم له الامر ولاربعة أشهر من ولايته قبض على رجل كان قد نار عليهم يدعى انه من بني عبيد ويقول انه ولد العاضد اصله اسمه عبد الرحمن كان قد ورد البلاد في حياة أبي يوسف أيام كونه بأشيلية ورام الاجتماع به فلم يأذن له وأقام بالبلاد مطرحا الى ان حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله في شهر سنة ٥٩٦ فلم يزل في الحبس الى ان كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين الى افريقية شفع له فيه أبو زكريا يحيى بن أبي ابراهيم الهزرجي فاطلقه له بعد ان ضمن عنه انه لا يتحرك في أمر يكرهونه فلم يقيم هذا العبيدي بمراكش الا أياما يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبي عبد الله ثم خرج وقصد بلاد ضنحاجة فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم لان هذا الرجل كان كثير الاطراف والصمت حسن الهيئة لقيته مرتين فلم أر في أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين مثله في الآداب الظاهرة من هدوء النفس وسكون الاطراف ووزن الكلام وترتيب الالفاظ ووضع الاشياء مواضعها مع الرياضة المفرطة ثم قصد مدينة سجلماسة في حياة أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيش عظيم فخرج اليه متوليا السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فهزمه العبيدي المذكور وأعادته الى سجلماسة أسوأ عود ولم يزل ينقل في قبائل البربر من موضع الى موضع وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع اليه الى ان قبض عليه بظاهر مدينة فاس لم يبلغني تفصيل قضية القبض عليه وكتب الى أمير المؤمنين متولي فاس أبو ابراهيم اسحاق

ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده في سجنه فكتب إليه يأمره بقتله وسلبه فضرب عنقه وصلب جسده ووجه برأسه إلى مرا كش فهو معلق هناك مع عدة رؤس من النوار والمتغلبين ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آباءه ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله خلا أني رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قدم لي قلبه منه رعباً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه لقيته وجلست بين يديه خالياً به وذلك في غرة سنة ٦١١ فرأيت من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك ما قضيت منه العجب وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع ونار في أيام يوسف هذا بعد قتل العبيدي رجلاً أحدهما ببلاد جزولة من سوس كان يدعي بالفاطمي قتل وحجى برأسه إلى مرا كش في شهر سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بحزيرة الاندلس لم يبلغني تفصيل أمره لبعدي عن الحضرة غير أني رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله والآخرون من ضهاجة قتل في سنة ٦١٨ بعد أن أثاراً قبيلة فيما بلغني وهزم بعونا عدة واستفسد خلقاً كثيراً بلغني هذا كله وأنا بالبلاد المصرية في التاريخ المتقدم وكان الذي تولى قتل هذا الرجل والاراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه السيد الاجل أبو محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن عبد المؤمن بن علي وهو يومئذ وال على مدينة سجلماسة وأعمالها ثم اتصل بي في هذه السنة وهي سنة ٦٢١ أن أبا يعقوب أمير المؤمنين توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغني كيفية وفاته فاضطرب الامر واشترأب الناس للخلاف ثم ذكر

الى ان عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الاجل أبي محمد عبد
 العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين أبي محمد
 عبد المؤمن بن علي رحمهما الله ونضر وجوههما وجزاها خيرا عن
 صلاحهما واصلاحهما وأبو محمد عبد العزيز هذان أصغر أولاد أبي
 يعقوب أمه حرة اسمها مريم صنهاجية من أهل قلعة بني حماد تزوجها
 أمير المؤمنين أبو يعقوب في حياة أبيه وكانت سبيت هي وأما ملكة
 في من سبوا من أهل القلعة فاعتقهما أبو محمد عبد المؤمن وزوج مريم
 هذه لابنه أبي يعقوب فولدت له ثمانية من الولد أربعة ذكور وأربع
 بنات فالذكور هم ابراهيم وموسى وادريس وعبد العزيز هذا
 المذكور وهو أصغرهم توفي موسى بظاهر مدينة تاهرت قتله العرب
 أصحاب الميرقي في شهر سنة ٦٠٥ وتوفي ابراهيم منهم باشيلية وانا بها
 في شهر سنة ٦١٢ وتوفي أبو العلاء ادريس منهم بأفريقية كما سيأتي
 والبنات هن زينب ورقية وعائشة وعالية لم يتولى أبو محمد عبد العزيز
 هذا شيئا من أمرهم في حياة أبيه ولا في حياة أخيه أبي يوسف فلما
 ولي أبو عبد الله الأمر ولاء مدينة مالقة واعمالها من جزيرة الاندلس
 وذلك في شهر سنة ٥٩٨ ثم عزله عنها في شهر سنة ٦٠٣ وولاه
 أمر قبيلة هسكورة وهي ولاية ضخمة فلم يزل واليا عليها الى ان
 عزله عنها وولاه أمر سجلماسة فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة
 ابنه أبي يعقوب الى ان قتل هذا الثائر المتقدم الذكر في ولاية أبي
 يعقوب بن أبي عبد الله فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة
 اشيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر أفريقية فلم يزل أبو
 العلاء ادريس واليا بأفريقية الى ان مات بها في رمضان من سنة ٦٢٠

على ما بلغني رحمة الله عليه فهذه جملة أخبار هذا الرجل أبي محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لامرهم كما قالوا ولئن كان ما قالوا حقا وتم هذا الامر له ليملائها خيرا وعدلا ولتكون الارض وتخرج بركاتها ولترسلن السماء مدرارها بين نقيبته وحسن سيره وحמיד سريره هذا اذا ساعده الدهر وقبض الله له أعوانا صالحين فانه ما علمت صوام قوام مجتهد في دينه شديد البصيرة في أمره قوى العزيمة شديد الشكينة لا تأخذه في الحق لومة لائم أرطب الناس لسانا بذكر الله وأتلاهم لكتاب الله شهادته والولاية قد اكتسفته وأمر الرعية قد استغفرت أوقاته وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوبراده ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن وادكار رتبها على أوقات الليل والنهار شهدت هذا كله منه بنفسه لأنقله عن أحد ولا أستند فيه الى رواية هذا مع دمانه خاق ولين جانب وخفض جناح لاصحابه ولمن علم فيه خيرا من المسلمين أو ظنه مضافا الى سخاء نفس وطلاقة وجه (وصفته) أبيض تعلوه صفرة جميل الوجه جداً معتدل القامة متناسب الاعضاء وله من الولد على عالمي ثلاثة محمد وهو أكبرهم وعبد الرحمن وأحمد وبنات

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم وهو سنة ٥١٥ الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فذلك مائة سنة وست سنين على الاجمال لا على التفصيل وانما أوردنا من ذلك ما تدعوا الحاجة اليه وتضم الضرورة من عني بالأخبار الى معرفته من غير تعرض الى ما لا حاجة بنا اليه من ذكر اولاد عبد المؤمن وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وتفاصيل أخبارهم في ولايتهم وعزلهم

وأماهم وكتابهم وحجابهم ووزرائهم اذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا
المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة هذا على انا لو
كفينا ضرورات المعاش وأعفينا من كد الزمان لاوردنا من ذلك
ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة ولم أثبت في هذه
الاوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها الا ما حققته نقلا من
كتاب أو سماع من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسى هذا بعد ان تحررت
الصدق وتوخيت الانصاف في ذلك كله وجهدت الا أنقص أحدا
ذرة مما له ولا أزيد خردلة مما لا يستحقه وبالله أستعين واية أسأل
واليه أضرع في الهام الصواب والسداد في القول والعمل فهو حسبي
ونعم الوكيل

✽ جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم في

ظعنهم واقامتهم ✽

قد قدمنا ان أول من سجد المهدي محمد بن تومرت عشرة أنفس
وهم المسمون بالجماعة أولهم عبد الواحد الشرقي على الصحيح ثم
عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف
عندهم بعمر ازناج ثم فاصكة بن ومزال سباه بن تومرت عمر وكناه
أبا حفص انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير وكان له عدة من الولد
منهم ابراهيم واسماعيل ومحمد أم محمد هذا ابنة عبد المؤمن ويحيى
وعيسى وموسى ويونس وعبد الحق وعثمان واحمد وعبد الواحد كان
عبد الواحد هذا يتولى أمر أفريقية ولده أمرها أمير المؤمنين أبو

عبد الله سنة ٦٠٣ فلم يزل واليا عليها الى ان مات بها يوم الخميس وهو
أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ وكان ابن تومرت يسمى فاصكة هذا
المبارك ويقول لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من
ولده فكان الامر كما قال وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده وهو
المشهور بعمر ابني وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب ولم
يبق في وقتنا هذا من ولده لصلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان
فارقته بمدينة مرسية وبها ودعته حين ارتحلت الى هذه البلاد وقد
ولوه مدينة جيان وأعمالها هذا آخر عهدي به ثم اتصل بي بديار مصر
انهم ولوه بطنسية ثم عزلوه عنها فلا أدري أهو بالاندلس اليوم أو
بمراكش وهو معدود عندي من جملة أخواني رضى الله عنه وعنا
وعن جميع المسلمين ثم يوسف بن سليمان وأخوه عبد الله بن سليمان
وهما من أهل تينمل من قبيلة تدعى مسكالة حسب ما تقدم ثم أبو
عمران موسى بن علي الضرير صهر عبد المؤمن كان ضرير البصر كان
عبد المؤمن يستخلفه على مراكش اذا سافر عنها ثم أبو ابراهيم
اسماعيل الهزرجي وهو الذي أسلم نفسه للقتل وفدا عبد المؤمن بذلك
على ما تقدم ثم رجل من أهل تينمل يعرف عندهم بابن بيجيت انا
شاك في اسمه ثم أيوب الجديوى وهو الذى تولى قسمة الاقطاع بين
الموحدين في أول الامر فهو لاء العشيرة المسمون بالجماعة وبعض الناس
يعد فيهم أبا محمد واستار وهو رجل دباغ أسود من أهل مدينة اغمات
صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مربها فاختصه أبو عبد الله بن
تومرت لخدمته لما رأى من شدة في دينه وكنانه لما يرى ويسمع فكان
يتولى وضوءه وسواكه والاذن عليه للناس وحجابه والخروج

بين يديه فلم يزل على ذلك الى ان توفي ابن تومرت فكان يتولى خدمة
 ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك توفي واسنار هذا في صدر
 دولة أبي يعقوب بعد ان علت سنه وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين
 لم يكتسب شيئاً ولا خلف ديناراً ولا درهما مع انه لو شاء لكان أكثر
 الناس مالا لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة لما كانوا يعلمون من
 قريه من صاحبهم وثناؤه عليه في أكثر الاوقات وانضاف الى هؤلاء
 القوم المسلمين بالجماعة خلق من قبائلهم فعدوا فيهم ونسبوا اليهم وأول
 من يعترض في العرض العام ولد عمر بن عبد الله الصنهاجي ثم فرس
 عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الامر ثم سائر أهل الجماعة على
 طبقاتهم من سبق وابطاء ثم أهل خمسين وهم خلق كثير

﴿ ذكر قبائل الموحدين ﴾

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعممهم وهم الجنند
 والاعوان والانصار ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم
 وتحت أمرهم سبع قبائل أولهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى
 هرغة وهي قبيلة العدد بالنسبة الى قبائل الموحدين ثم قبيلة عبد المؤمن
 تسمى كومية وهي قبيلة كثيرة العدد حمة الشعوب لم يكن لها في قديم
 الدهر ولا في حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة انما كانوا
 أصحاب فلاحه ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب
 وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطى المانع فأصبح
 القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا أطاول أيديهم يد
 يكون عبد المؤمن منهم هذا على انه كما قدمناه ينتسب الى غيرهم ثم

أهل ينملل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتانة وهي أيضاً قبيلة ضخمة جداً وفي بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم ثم جنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ولغتها أجود اللغات وأفصحها في ذلك اللسان ثم جدميوة وليست كلها بل بعضها رعية ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكورة فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء ويجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية واذ قد جرى ذكرهم أعني المصامدة على هذا النسق فلنذكر لك الآن حفظك الله وأصلحك وأصلح بك القبائل التي يجمعها هذا الاسم أعني المصامدة وحد بلادهم لتعرفهم ممن سواهم من البربر فحد بلادهم النهر الأعظم الذي يصب من جبال صنهاجة وينتهي إلى البحر الأعظم ببحر اقنابس يدعى هذا النهر أم ربيع عليه قبيلتان احدهما تسمى هسكورة وأخرى صنهاجة وهما من المصامدة وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لتونة ومسوفة وسرطة وهؤلاء ليسوا مصامدة وقد كانت المماكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم فهذا حد بلاد المصامدة عرضاً وحدها طولاً من الجبل المعروف بديرن إلى البحر الأعظم المسمى اقنابس وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم هسكورة وصنهاجة ودكالة وحاجة ورجراجة وجزولة ولمطة وجنفيسة وهنتانة وهرغة وقبائل أهل ينملل وحول مرا كش قبائل منهم أيضاً وهم هزيمروهيالنة وهزرجة يدعونهم الموحدون بالقبائل فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ثم يجمع الكل جنس البربر من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرنا من لتونة ومسوفة وسرطة

وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان وللمصامدة بعد هذا جند من
سائر أصناف الناس كالعرب والغز والاندلس والروم وقبائل من
المرايطين وغيرهم ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان فالصنف الاول
يدعون الجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمرا كش لا يرحونها
والصنف الآخر يدعون العموم وهم السكّسون ببلادهم لا يحضرون
الى مرا كش الا في التفر الاعظم وعدد المرتزقة الذين بمرا كش
من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الاجناد على ما صح عندي
تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء الذين بمرا كش خارجا عما في سائر
البلاد من الموحدين وأصناف الجند واذا كان العرض العام فأول من
يعترض ذرية أبي حفص عمر الصنهاجي على طبقاتهم في أسنانهم ثم بعدهم
فرس الخليفة من بني عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم
ثم أهل خمسين ثم القبائل وأولهم عرضاً هرغة قبيلة بن تومرت ثم
بعدهم أهل تينملل ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم في
سعة الهجرة وبعثوا وقد جرت عادتهم بالسكّيب الى البلاد واستجلاب
العلماء الى حضرته من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وسموهم
طلبة الحضر فهم يكثررون في بعض الاوقات ويقولون وصنف آخر ممن
عنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد في كل مجلس عام
أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الاشياخ منهم
فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسئلة من العلم يلقيها بنفسه أو يلقى
بأذنه كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ولا
ينفصلون من مجلس من مجالسهم الا على الدعاء يدعو الخليفة ويؤمن
الوزير جهراً يسمع من بعد من الناس ثم اذا سافروا لا يزال القرآن

يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشي ركباناً وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر أن يخرج من ينادى الاستعانة بالله والتوكل عليه هذه عندهم للركوب حينئذ يركب الناس ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القراية وأشياخ الموحدين بين يديه مشاة خطوات كبيرة ثم يأمرهم بالركوب فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلباً الموحدين خلفه فيقرأون حزباً من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رقيقاً ثم شيئاً من الحديث ثم يقرأون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا وإذا كان وقت النزول أيضاً نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته فإذا بلغها بسط يديه ودعا فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله

﴿صفة أحوالهم في إقامة الجمعة﴾

فاما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ويخرج معه خواص حشمه ويركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئاً قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصى التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء النفي ياسيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصى فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين أصواتهم في نهاية الحسن قد انتخبوا لذلك من البلاد ثم يقوم الخطيب فيخطب فأول شيء يقول الحمد لله نحمده

ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهدي الله
فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ونشهد أن لا اله الا الله وحده
لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً
بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله
فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئاً أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن
يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويحجب سخطه فانما نحن به وله
ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف من أولها الى آخرها ثم يجلس فاذا قلم
الى الخطبة الثانية قال الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرأ من
الحول والقوة اليه ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه
فقاتوا الانام جدأ وعزماً وانفدوا وسعهم في نصره والصبر على ما
أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزماً وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبي
عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي
المحمدي الذي أيد بالعصمة فكان أمره حتماً واكتنف بالنور اللامع
والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاماً ولا ظلماً
وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه رضى الله عنه في النسب الكريم المجتبي
لوراة مقامه العلي الخليفة الامام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وعلي أبي
يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص
اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك المحيي سنة رسولك الخليفة الامام
أبي يوسف أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وعلي
الخليفة الامام أبي عبد الله ابن الخلفاء الراشدين اللهم وانصر ولي عهدهم
الطالع في أفق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام أمير المؤمنين

أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم كما شددت به عرى الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الأتنام ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام اللهم كما اجتبت به من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين فاجعله من المقنفين لا تارهم المهتدين بمنارهم المقتبسين من أنوارهم اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك وطائفة مهديك الذين أخبرت عنهم في صريح وحيك أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك الى قيام الساعة وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتسكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأيدك أعز ظهير وأكرم نصير ثم يدعو وينزل فيصلي فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ما تقدم فهذه كلمات سيرتهم مجتمعة على ما يقتضيه شرط التقريب وفي أثناء ذلك تفاصيل يطول شرحها وليس بالنظر في هذا الكتاب إليها كبير حاجة إذ قد بين له ما يستدل على ما لم يرسم في هذه الاوراق بما رسم

وهذا أصلحك الله منتهى ما باع من أخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتائبهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة وقد تقدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل مع أن اصغر خدام مولانا لم تجر عادته بالنصيف ولا حدث قط نفسه به وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية أعلى الله رتبها فما كان من احسان فالى تلك الهمة العلية نسبته وعنها منبعته وما كان من غير ذلك فأغضاؤها يستره ومساحتها تغمره وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف الى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من لدن برقة

الى سوس الأقصى وذكر جزيرة الاندلس وما يملكه المسلمون من
مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بدءاً من الجرى على العادة في سرعة
الاجابة وامثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا
مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل في باب المسالك
والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبي عبيد البكري
الاندلسي وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً وكتاب ابن خردادبه
الفارسي وكتاب الفرغاني وغيرهما من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة
له ونحن ان شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأي مولانا العالي
ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير
تطويل جارين في ذلك عنى ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب فنقول
وبالله التوفيق ومنه الاعانة قد تقرر واشهر ان أول حد البلاد المصرية
مما يلي الشام العريش وآخره مما يلي المغرب مدينة انطابلس المعروفة
ببرقة هذا عرض الديار المصرية وحدها في الطول من نهر أسوان الى
مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومي هكذا ذكر أصحاب
المسالك والممالك والمعنون بهذا الشأن وأول حد بلاد افريقية والمغرب
مدينة انطابلس المذكورة المدعوة ببرقة بناها الروم فكانت حاضرة لتلك
البلاد ومجتمعاً لاهلها افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة
أعنى انطابلس الى مدينة طرابلس المغرب قريب من خمس وعشرين
مرحلة وما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب خمس وأربعون مرحلة
وكانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشي
فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب

حصون متقاربة جداً فاذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس الى الاسكندرية أو من الاسكندرية الى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد الى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب وذلك في حدود ٤٤٠ حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس فاستولى الخراب عليها الى وقتنا هذا واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم فهم اليوم بها وآثار المدن والحصون باقية الى اليوم ومدينة انطابلس هذه خراب لم يبق منها الا آثارها وفيها بين برقة وطرابلس حصن يسمى طاهينة بالقرب منه معدن كبريت فلما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة الى هذا الوقت وهي أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها في مدة ملكهم وفي ملك أبي يعقوب منهم المملوك قراقش المتقدم ذكره في ترجمة أبي يوسف ثم أخرجه منها المصامدة واستولى عليها أيضاً يحيى ابن غانية وعلى كثير من افريقية حسب ما تقدم تليخيصه ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهي في ملكهم الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فخذ بلاد افريقية مما يلي المشرق مدينة انطابلس المذكورة وحدها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسطنطينية الهواء سميت بذلك لافراط علوها وشدة منعها ومسافة ما بين انطابلس وقسطنطينية المغرب قريبة من خمس وخمسين مرحلة فهذا حد افريقية طولا وعرضها يختلف بحسب مزاحمة

الصحراء العمارة ومباعتها وسميت افريقية بذلك لتزول افريقش من ولد حام بن نوح بها وافريقش هذا هو أبو البربر فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح خلا صنهاجة فانهم يرجعون الى حمير هذا كله قول أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه من لدن ذكر افريقش الى ذكر صنهاجة فأول مدن افريقية المعمورة طرابلس المغرب والمقدم ذكرها ومنها الى مدينة تسمى قابس عشر مراحل وقابس هذه على ساحل البحر الرومي وكذلك طرابلس وتنصب الى قابس هذه أنهار من بعض تلك الجبال التي تليها فهي بذلك أخصب بلاد افريقية وأوسعها فواكه وأعشاباً ومن قابس هذه الى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمى سفاقس أربع مراحل ومن سفاقس الى مهيدي بن عبيد ثلاث مراحل وقد تقدمت صفة المهيدي في أخبار أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبظاهر المهيدي المذكورة وقريب منها جداً مدينة تدعى زويلة بناها بنو عبيد حين بنو المهيدي فاختصوا المهيدي لانفسهم وحشعهم وأعيان جندهم ووجوه قوادهم وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أتباعهم ولما ارتحل المعز الى مصر بعد أن افتتحها على يدي خادمه جوهر ارتحل معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه فاليهم ينسب الباب والحارة التي بالقاهرة اليوم ومن مهيدي بن عبيد الى مدينة تسمى سوسة واليها تنسب الثياب السوسية مرحلتان ومن سوسة الى مدينة تونس ثلاث مراحل ولم تكن تونس هذه في قديم الدهر على أيام الافرنج مدينة وإنما بنيت في أول الاسلام بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطجنة بينها وبين تونس نحو من

أربع فراسخ وهذه المدينة أعنى قرطجنة هي كانت حاضرة افريقية أيام الروم وهي مدينة عظيمة ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيتهم لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تأمله ويعتبر فيه من وقف عليه وذلك أنهم جابوا إليها المياه من بعد شديد ونحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أسرها جميع من في هذا العصر وكانوا يضاهاون بها مدينة القسطنطينية العظمى المنسوبة إلى قسطنطين بن هيلان ملك الافرنج ثم لما افتتح المسلمون افريقية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه خربوا هذه المدينة المذكورة واتخذوا مدينة القيروان دار ملكهم ومقر ولائهم واجتمع جندهم ومركز جيوشهم وأسسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة وكان هناك قبل ذلك دير معظم عند الروم يزورونه من أقاصى بلادهم فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً وسموا المدينة تونس باسم الراهب الذي كان في ذلك الدير فازالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا ولما خربت مدينة القيروان على ماسياني الإيلاء إليه صارت مدينة تونس حاضرة افريقية ومقر ولائها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطجنة المذكورة ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة ومعنى هذه اللفظة بلسان الافرنج جيدة ست مراحل وفيما بين تونس وبونة بليدة صغيرة تسمى بني زرت بينها وبين تونس يوم تام في البر للمجد ولبنى زرت هذه شأن غريب وذلك أنه يخرج في بحرها كلما طاع هلال نوع من السمك لم يكن في الشهر الذي قيل ذلك هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الألهة

وهذا منسوب الى الطلسسات اعتنى به من عنى بخدمة القمر ومن مدينة
بونة الى مدينة قسطنطينة التي هي أحد حدى افرقية خمس مراحل
وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا هذا
ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن افرقية وبها مماسيل
الصحراء مدن أنا ذا كرها ان شاء الله تعالى اذا فرغت مما على ساحل
البحر من بلاد المغرب ومن قسطنطينة المغرب الى بجاية خمس مراحل
على الرفق وبجاية هذه هي دار ملك بني حماد الصنهاجيين الذين تنسب
قاعة بني حماد اليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب الى موضع
يعرف بسبوسيرات وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من
تسع مراحل لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها الى أن أخرجهم
عنها في ولاية يحيى منهم أبو محمد عبد المؤمن بن علي حسب ما سبق
ومن مدينة بجاية الى مدينة صغيرة تدعى الجزائر. وتنسب الى قوم يقال
لهم بنو مزغنه قريب من أربع مراحل وهذه المدينة المعروفة بالجزائر
على ساحل البحر الرومي وكذلك مدينة بجاية ومن الجزائر هذه الى
مدينة صغيرة تسمى تنس أربع مراحل ومن مدينة تنس الى مدينة
وهران سبع مراحل ومن مدينة وهران الى مدينة سبتة على التقريب
ثمانى عشرة مرحلة وإساحل سبتة هذه يلتقي البحران بحر مانطس الذي
هو بحر الروم وبحر اقنابس الذى هو البحر الاعظم وهذا أول الخليج
المعروف بالزقاق وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ثمانية عشر ميلا
ثم لا يزال يضيق الى أن ينتهى ذلك من عبوة البربر الى موضع يدعى
قصر مصمودة بينه وبين سبتة نصف يوم ومن جزيرة الأندلس الى
موضع يدعى جزيرة طريف مقابلا لقصر مصمودة المذكور فأضيق

ما يكون البحر هنالك وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر في كل وقت من أوقات النهار وقد ذكر المؤرخون ان الروم بنت في قديم الدهر قنطرة على هذا الخليج ثم طغت المياه فغطتها فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف انهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه ومن مدينة سبتة الى مدينة طنجة يوم تام في البر وطنجة هذه آخر الخليج الذي به يلتقى البحران وهي على ساحل البحر الاعظم الذي لاعماره وراءه وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط المتصل ببحر الهند والحبشة وطنجة هذه آخر بلد بالمغرب المحقق وما بعدها من البلاد فاما هو في الجنوب كمدينة سلا ومدينة مراکش ثم لايزال دأراً في الجنوب الى أن يأتي بلاد الحبشة والهند فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة انطابلس المعروفة ببرقة وآخرها مما على ساحل البحر الاعظم مدينة طنجة ومسافة ما بين ذلك على التقريب ست وتسعون مرحلة فهذا ذكر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب

ثم نعود الى ذكر ماليس على الساحل من مدن افريقية والمغرب فنقول من مدينة قابس المتقدم ذكرها الى مدينة تسمى قفصة ثلاث مراحل ومن مدينة قفصة الى مدينة توزر أربع مراحل وتوزر هذه هي حاضرة بلاد الجريد وأم قراها وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين قسم يسمى قسيلية وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها وقسم يسمى الزاب وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها ومن مدينة توزر الى مدينة بسكرة أربع مراحل وبالقرب

من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس بينها وبينها مرحاتان فهذه المدن التي نلي الصحراء من بلاد افريقية وتخلها قري كثيرة لم نذكرها لصغرها وفيما بين مدينة تونس وتوزر مدينة القيروان المشهورة منها الى الساحل ثلاث مراحل وهي كانت أعني القيروان دار ملك المسلمين بافريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم الى أن اضطرب أمر بني العباس واستبدت الأغالبة بملك افريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن ابراهيم بن أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزلوا بها الى أن أخرجهم عنها بنو عبید وملكوها أيام كونهم بافريقية ثم ولوا عليها حين ارتحلوا الى مصر زيري بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيري وبنوه ملوكا عامها الى أن كان آخرهم الذي أخرجه العرب عنها تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد المذكور فاستبنتها الأعراب وخربتها فهي كذلك خراب الى اليوم فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح الى أن خربتها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطنبلي وغيرها من الكتب فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصي المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها الى اليوم فهذه نبذة من اخبار افريقية وفيها مدن كثيرة قد خربت

لأعرف أسماءها قلعة معرفتي بتفاصيل أحوال إفريقية لاني لم أدخل
منها الامدينة تونس خاصة آتيتها في البحر من الاندلس وذلك سنة ٦١٤
وانما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع وفي
خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن
شرف الجذامي

تري سيئات القيروان تعاظمت فحلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تك قدماً في البلاد الكبار

فقسطنطينة آخر بلاد إفريقية ما يلي البحر منها وما يلي الصحراء وما
بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية فأول ذلك بلدة صغيرة
قبلي بجاية في البر تسمي ميلا بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ومن بجاية
الى قلعة بني حماد أربع مراحل وهي أيضاً أعنى القلعة قبلي بجاية
وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية الى مراکش فمن بجاية الى مدينة
تلمسان عشرون مرحلة وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ومازونة
ووهران وقد ذكرناها في بلاد الساحل وبين مدينة تلمسان وبين
البحر أربعون ميلا وذلك يوم للمجد ومن مدينة تلمسان الى مدينة
فاس عشر مراحل سبع منها الى المدينة التي تدعي رباط تازا وثلاث الى
فاس وقبلي مدينته تلمسان في الصحراء مدينة سجلماسة منها الى تلمسان
عشر مراحل وهذه المدينة أعنى سجلماسة متوسطة في الصحراء مسافة
ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء فمن حيث قصدت
اليها من أحد هذه البلاد كان ذلك مسافة عشر مراحل ومدينة فاس
هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم
القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان

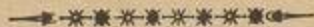
حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بيعت العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه رجل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فبقي اليوم على غاية الحاضرة وأهلها في غابة الكيس ونهاية الظرف ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى الا وهو منسوب اليها وموجود فيها وماخوذ منها ليدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ولم يتخذ لتونة والمصامدة مدينة مراکش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لتونة فلماذا السبب كانت مراکش كرسى المملكة والافدينة فاس أحق بذلك منها وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً يتغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بلماء ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها الا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فانها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعوا اليه الضرورة بل هي توسع البلاد مرافق وتملأها خيراً ومن مدينة فاس الى مدينة مكناسة الزيتون يوم تام للمجد ومن مكناسة الزيتون الى مدينة سلا أربع مراحل ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الاعظم المسمى اقنابس

وهي في الجنوب كما ذكرنا ينصب إليها نهر يسمى وادي الرمان يصب
 في البحر الاعظم المذكور وقد بني المصامدة على ساحل هذا البحر
 مما يلي مراکش مدينة عظيمة سموها رباط الفتح كان الذي اختطها
 أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأتمها ابنه يعقوب وبني فيها سجداً
 عظيماً قد تقدم ذكره وقيل أنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك
 وذلك أنه قال لهم تبثون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعني
 البحر الاعظم ثم يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى
 بأيديكم الا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم
 كما كان فانها ماسموها رباط الفتح وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة
 النهر المذكور وقد بنو عليه قنطرة من الواح وحجارة يعبر الناس
 عليها حين يجزر النهر فاذا مدعبروا في القوارب وبين مدينة سلا هذه
 ومدينة مراکش كرسى المملكة تسع مراحل فمراكش آخر المدن
 بالمغرب وكان الذي اختطها ملك لتونة تاشفين بن علي ثم زاد فيها بعده
 ابنه يوسف بن تاشفين ثم زاد فيها بعدها علي بن يوسف بن تاشفين
 ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في نهاية الكبر فهي اليوم طولا
 وعرضاً قدر أربع فراسخ هذا اذا ضمت إليها قصور بني عبد المؤمن
 وأجرى المصامدة فيها ماها كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك وبنوا فيها قصوراً
 لم يكن مثلها الملك ممن تقدمهم من الملوك فصارت بذلك في نهاية الحسن
 وغاية الكمال كما قال الاول

ليس فيها ما يقبال له كملت لو أنه كمالا

وبهذه المدينة أعنى مراكش مسقط رأسي وهي أول أرض مس جلدي
 ترابها وكان مولدي بها لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ في

أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام الى مدينة فاس فلم أزل بها الى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين في علم القرآن والنحو ثم عدت الى مراکش فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس في أول سنة ٦٠٣ فادركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله الامعرفة أسماهم وموالدهم ووفياتهم وعلومهم انفردوا دوني بكل فضيلة ولا مانع لما أعطي الله ولا معطي لما منع (يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم) فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة الابليدات صغار بسوس الأقصى فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت وهي حاضرة سوس واليها يجتمع أهله ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زجندر هي على معدن الفضة يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن وفي بلاد جزولة مدينة هي حاضرتهم تسمى الكست وفي بلاد لمطة مدينة أخرى هي حاضرتهم أيضاً تسمى نول لمطة فهذه المدن التي وراء مراكش فلما تارودانت وزجندر قد خلتها وعرفتهما ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم وخاصة الى مدينة المعدن المعروفة بزجندر وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر اليهما الا أهلها خاصة



﴿ ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد
والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك
وأسماء مواضعها ﴾

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس وأنه
بالقرب من حصن يدعي طلميثة وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب
من ساحل البحر يسمى تمسامان فيه معدن حديد وفيما بين سلا
ومراكش قريباً من ساحل البحر الاعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً
موضع يدعي إيسنتار فيه معدن حديد أيضاً وليس هذا الموضع على
طريق السفار إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه وبالقرب من مكناسة
الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وركناس فيه معدن فضة
وقد ذكرنا معدن زجندر الذي بسوس غير أن فضته ليست هناك أعني
فضة معدن زجندر وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ومعدن توتيا وهي
التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر فهذا جملة ما بالعدوة
من المعادن وبجزيرة الاندلس معادن أيضاً فمنها معدن فضة ببلاد الروم
في الجهة المغربية بموضع يدعى شنترة وعلى أربع مراحل من مدينة
قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زئبق منه يفرق الزئبق على جميع
المغرب وفي أعمال المربة وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية
فيه معدن رصاص وفي أعمال المربة أيضاً على يوم ونصف منها موضع
يسمى بكارش فيه معدن حديد أيضاً وما بين دانية وشاطبة موضع
يسمى أوربة على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد فهذا أيضاً جملة
ما بالاندلس من المعادن فاما الذهب فمستوفى اليها من بلاد السودان

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس
يسمى بجردة ينصب من جبل هنالك ينتهي إلى البحر الرومي ونهر
بجاية الذي يسمى الوادي الكبير هو منزها وعاليه بساينها وقصورها
ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباطنازا يدعى وادي ملوية يصب في البحر
الرومي أيضاً ونهر يدعى سبو هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها
ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة وهذان النهران
ينصبان إلى البحر الأعظم بحر اقنابس بعد أن يلتقيا بموضع يدعى
المعمورة وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتاً ينصب إلى البحر الأعظم
أيضاً ونهر سلا المتقدم الذكر وفيما بين سلا ومراكش وعلى ثلاث
مراحل من مراكش نهر عظيم يدعى أم ربيع ينصب من جبال
صنهاجة من موضع يدعى وانسيفن يصب في البحر الأعظم أيضاً ونهر
على أربعة أميال من مراكش عليه قنطرة عظيمة يسمى تانسيفت
ونهر سوس الأقصى ونهر ببلاد حاحة يسمى شفشاة هذه الأنهار كلها
تصب إلى البحر الأعظم فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب التي
لا يقل ماؤها ولا ينقطع ثناء ولا صيفاً ولم تتعرض لذكر الأودية
الصغار والأنهار التي تبيس في الصيف

ذكر جزيرة الاندلس وأسماء مدنها وأنهاها

فأما جزيرة الاندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم

بجزيرة أشبانية وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فانني
 ذلك عن اعادته ههنا وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصابية من
 عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب اليها بأنواع القرابين شهد
 بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ثم انتقل أهلها الى
 دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام وكانت
 هذه الجزيرة أعنى الاندلس منظمه في مملكة صاحب رومية يستعمل
 عليها من شاء من أصحابه فلم تزل كذلك والروم يملكونها وقاعدة
 ملكهم منها مدينة تسمى طائفة على فرسخين من إشبيلية وهي مدينة
 عظيمة باق أثرها الى هذا اليوم الى أن غلبهم عليها القوطا وهي قبيلة
 من قبائل الافرنج فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم
 العظمى وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة فملكوها أضخم ملك
 قريبا من ثلاثمائة سنة وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة وهي في
 قريب من وسط الجزيرة فلم يزلوا بها وطليطلة دار ملكهم كما ذكرنا
 الى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة ٩٦ من الهجرة على
 ما تقدم في صدر الكتاب فلما افتتحها المسلمون تخبروا قرطبة دار
 ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم فلم تزل قرطبة على ذلك
 الى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالاندلس بموت الحاكم
 المستنصر وتغلب أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه على هشام المؤيد
 الحاكم المستنصر حسب ما تقدم في صدر هذا الكتاب فهذا تلخيص
 أخبار جزيرة الاندلس وأنا ذاكر ان شاء الله أول ما يلقاه من يعرف
 اليها من حدودها ومدينها فأول ذلك أني أقول قد تقدم أن البحر
 بحر الروم وبحر اقنابس يلتقيان بساحل سبتة ثم يضيف الخليل

يستقارب العدوتان حتى ينهي ذلك الى قصر مصمودة من العدو
 وجزيرة طريف من الاندلس ثم يأخذ في السعة وأول هذا الخليج
 مما يلي طنجة الجبل الخارج في البحر الاعظم المعروف بطرف اشبرتال
 وآخره الجبل الذي شرقي سبتة فاذا عبرت الى جزيرة الاندلس من
 سبتة كان الذي تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء واذا عبرت
 من قصر مصمودة وقعت الى جزيرة طريف فالمدينة المعروفة بالجزيرة
 الخضراء هي في التحقيق على ساحل البحر الرومي وجزيرة طريف
 على ساحل البحر الاعظم وبين الموضعين أعنى الخضراء وطريف ثمانية
 عشر ميلا وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ويسمى
 أيضاً جبل طارق وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفتح وعنده
 يلتقي البحران بجزيرة الاندلس فهذا تلخيص التعريب بخبر مجاز الاندلس
 فاما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها
 فاما ذاكر أسماء المدن التي بأيدي النصارى في وقتنا هذا ومواضعها من
 الجزيرة من مشرق ومغرب من غير تعرض الى ما بينها من المسافات
 على اذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك فأول المدن في الحد
 الجنوبي المشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشونة ثم مدينة
 طوكونة ثم مدينة طرطوشة هذه البلاد التي على ساحل البحر الرومي
 المذكور أعادها الله للمسلمين والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد
 المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافرغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها
 صاحب برشونة لعنه الله وهي الجهة التي تسمى أرغن وفي الحد المتوسط
 ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة واقليج
 وطليطيرة ومكادة ومشريط ووبذ وأبلة وشقوبية هذه كلها يملكها

الادفنش لعنه الله وتسمى هذه الجهة قشتال وتجاور هذه المملكة في
 يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهي سمورة وشلمنكة والسبطاط
 وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبيوج لعنه الله وتسمى هذه
 الجهة ليون وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الاعظم اقنايس و
 مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنتره وشنتيافو ومدينة
 يابرة ومدن كثيرة ذهب عني أسماؤها يملكها رجل يعرف بابن الريح
 لعنه الله فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الاندلس مما يلي
 بلاد المسلمين ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة لم تشهد
 عندنا بعدها عنا وتوغلها في بلاد الروم لم يملكها المسلمون قط لانهم
 لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها واستولوا
 على أكثرها وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد
 وعدد المراحل التي بينها وقربها من البحر وبعدها حتى يبين ذلك الله
 شاء الله تعالى فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الاندلس اليوم حصرو
 صغير علي شاطيء البحر الرومي يسمى بنشكلة بينه وبين مدينة بلنسية
 ثلاث مراحل وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم بينه وبين طرطونة
 مرحلتان أو أكثر قليلاً ثم مدينة بلنسية وهي مدينة في غاية الخصب
 واعتدال الهواء كان أهل الاندلس يدعونها في ما سلف من الزمان
 مطيب الاندلس والمطيب عندهم حزمة يعملونها من أنواع الرياح
 ويجعلون فيها الزجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات من
 بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها وبين بلنسية هذا
 بين البحر الرومي قريب من أربعة أميال ثم بعدها مدينة تدعى شام
 بينها وبينها مرحلتان وبينها مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر وسميعة

في جزيرة لانها في وسط نهر عظيم قد حفر بها من جميع جهاتها فلا
 يطريق اليها الا على القنطرة ومن شاطبة هذه الى مدينة دانية التي على
 ساحل البحر الرومي يوم تام ومن شاطبة الى مدينة مرسية ثلاثة ايام
 ومن مرسية الى البحر الرومي عشرة فراسخ ومن مدينة مرسية الى
 مدينة اغرناطة سبع مراحل وبين ذلك بلاد صغار اولها نما يلي مرسية
 بوحسن لركة ثم حصن آخر يدعى بلس ثم حصن آخر يدعى قلية ثم
 ببلدة صغيرة تسمى بسطة ثم ببلدة اخرى على مسيرة يوم من غرناطة
 ثم يسمى وادي آش ويقال لها أيضاً وادي الأشي هكذا سمعت الشعراء
 لا يهتقون بها في أشعارهم فهذه البلدات التي بين اغرناطة ومرسية وفي
 وادي آش على ساحل البحر الرومي مدينة المرية مخففة الراء وهي
 بلاد مرسية مشهورة تضرب أمواج البحر في سورها بينها وبين وادي آش
 اذنه مرحلتان للمجد وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر
 حصن رومي حصن منكب وهي بلدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها
 فليتها وبين المرية أربع مراحل وبين حصن منكب هذا وبين مدينة
 طولقة ثلاث مراحل وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل
 لمجد والجزيرة الخضراء أو بحيل الفتح يلتقي البحران كما ذكرنا
 لمذى على ساحل البحر الرومي من بلاد المسلمين بالاندلس الجزيرة
 ياخضراء ومالقة ومنكب والمرية ودانية وبين المرية ودانية نحو من
 سن مراحل ووراء دانية الحصن الذي يسمى بنشكلة وقد تقدم ذكره
 هذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالاندلس أعني ما يضرب الموج
 شاء سوره فأما مدينة بلنسية فينها وبين البحر كما ذكرنا قريب من
 سبعة أميال ثم نعود الى ذكر البلاد التي ليست على الساحل فنقول

من مدينة أغرناطة الى البحر قريب من أربعين ميلا وذلك مسيرة يوم
 تام أو يومين على الرفق ومن مدينة أغرناطة الى مدينة جيان مرحلتان
 فبين جيان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل ومن مدينة جيان الى
 مدينة قرطبة مرحلتان وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وانها كانت دار ملك
 المسلمين ومقر تدبيرهم الى أن نشأت الفتنة واختل أمر بني أمية
 بالاندلس وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدهام الناس
 مبلغاً لم تبلغه بلدة حكي عن ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال
 كانت بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن
 المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع
 جهاتها وقيل انه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لا يتقلس عندهم في
 ذلك الزمان الا من صالح للفتيا وسمعت ببلاد الاندلس من غير واحد
 من مشايخها أن الماشي كان يستضيء بسرج قرطبة ثلاث فرائخ لا ينقطع
 عنه الضوء وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن
 محمد الملقب بالناصر لدين الله وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله
 فزيادة الحكم معروفة الى اليوم وحكي أبو مروان بن حبان رحمه الله
 في أخبار قرطبة أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب
 الناس الصلاة فيها أياماً فبلغ ذلك الحكم فسأل عن علته ف قيل له انهم
 يقولون ما ندرى هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها
 فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطي المتقدم
 الذكر في قضائه واستقبل القبله وحاف باليمين الشرعية التي جرت العاد
 بها انه ما أنفق فيه درهماً الا من خمس المغنم وحينئذ صلى الناس فيه

لما علموا بيئته ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناء وزاد فيه أبو عامر محمد ابن
أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة فهو مسجد لم ينفق فيه درهم
الامن خمس المغنم وهو معظم القدر عند أهل الأندلس مبارك لا يصلى
فيه أحد ويدعو ابني من أمر الدنيا والآخرة الا استجيب له قد عرف
ذلك من أمره واشتهر وحكي غير واحد ان الأندلس لعنه الله لما دخلها
في شهر سنة ٥٠٣ دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم فاقاموا به
يومين لم تبلى دوابهم ولم ترث حتى خرجوا منه وهذه الحكاية مما تواتر
عندهم واستفاض بقرطبة وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل
قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزها من الصالحين والفضلاء والعلماء
ومن مدينة قرطبة الى مدينة اشبيلية ثلاث مراحل واشبيلية هذه هي
حاضرة الأندلس في وقتنا هذا وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان
حمص سميت بذلك لنزول أجناد حمص اياها حين افتتح المسلمون
الأندلس وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف وأنى فوق
نعت كل ناعت وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة
وتنصب فيه أنهار كثيرة فلا يصل الى اشبيلية الا وهو بحر خضم تصعد
فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ترسى على باب المدينة بينها وبين
البحر الأعظم سبعون ميلاً وذلك مرحلتان وهذه المدينة كانت قاعدة
ملك بني عباد حسب ما تقدم ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم
بالأندلس منها ينفذ أمرهم وفيها يستقر ملكهم وينوونها قصوراً عظيمة
وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين فزاد ذلك في حسن هذه المدينة
أعنى اشبيلية ومن اشبيلية الى مدينة شلب التي على ساحل البحر الأعظم
خمس مراحل وبين ذلك بليدات صفار كمدينة لبلة وحصن مرتلة

ومدينة طبيرة ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنمرية هذه البلاد كلها فيما بين شلب واشبيلية من مغرب الاندلس وبين قرطبة وبين الرومي خمس مراحل وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب الى اشبيلية الا أنه عند اشبيلية يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ويخدر من أراد في القوارب من قرطبة الى اشبيلية ويصعدون من اشبيلية الى قرطبة كهئة النيل وبين مدينة اشبيلية ومدينة شريش مرحلتان وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الاندلس ومسافات الابعاد التي بين كل بلد وبلد على التقريب منها ما سافرت فيه بنفسى ومنها ما نقلته مستقيماً عن السفار المترددين

(فصل) وقد رأيت أن أذكر هنا جملة أنهار الاندلس الكبار المشهورة بها فأقول ذلك مما يلي المشرق نهر طرطوشة وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك الى مدينة طرطوشة ثم يصب في البحر الرومي وبين طرطوشة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلاً ثم مرسية وهو يصب أيضاً في البحر الرومي منبعه من جبل شقورة وهو قسم نهر اشبيلية منبعهما واحد ثم يفرقان فينصب هذا الى اشبيلية وهذا الى مرسية ثم نهر اشبيلية الاعظم وقد تقدم ذكر منبعه ثم تنصب فيه قبل وصوله الى اشبيلية أنهار كثيرة فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ثم يصب في البحر الاعظم المسمى اقنابس ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو وهو الذي عليه مدينة طليطلة وشنترين وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الاشبونة وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ثم ينصب هذا النهر الى البحر الاعظم فهذه جملة

﴿ فهرست كتاب تاريخ الاندلس ﴾

صفحة	
٢	خطبة الكتاب
٤	فصل في ذكر جزيرة الاندلس وحدودها
٦	ذكر فتح جزيرة الاندلس
٩	ذكر من دخل الاندلس من التابعين
١١	ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن مغاوية الاندلس
١٢	ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن
١٢	ولاية الحكم بن هشام
١٧	ولاية هشام المؤيد
٢٦	ولاية محمد بن هشام
٢٧	ولاية سليمان بن الحكم
٣٣	ولاية علي بن حمود الناصر
٣٣	ولاية القاسم بن حمود
٣٥	ولاية يحيى بن علي المعتلى
٣٥	ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر
٣٦	ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكنى بالله
٣٧	ولاية هشام المعتد بالله
٣٩	ذكر أخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة الاموية عنها ومن
	ملكها من الملوك الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١
٤٦	فصل يتضمن ذكر أحوال الاندلس بعد انقطاع الدعوة الاموية

أنهار الاندلس المشهورة بها وقد نجز بحمد الله جميع هذا الاملاء حسب ما
 رسمه مولانا وجريت في ذلك كله على عادتي في التلخيص وتركت أسماء
 القرى والضياع والانهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو اليه الحاجة ولا
 يخل بالتصنيف تركه فان وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأني وفق مراده
 فهي البغية الكبرى والامنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسى فيها
 وأسابق اليها وان يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فخرم الاصابة ولم
 يقع على المراد ولا وفي بالمقصود وباللّٰه اعتمد واياه استرشد وعليه اعتمد
 وهو حسبي ونعم الوكيل

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في شهر

شعبان من سنة ١٣٢٤ والحمد لله

رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

وحسبنا الله ونعم

الوكيل

تم

عنها علي الاجمال لا على التفصيل

- ٥٨ ولاية المعتضد بالله العبادي
 ٦٣ ولاية أبي القاسم بن عباد اعتمد على الله
 ١١٥ ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمي بالمهدي
 ١٢٥ ذكر ولاية عبد المؤمن
 ١٥٣ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها
 ١٧٢ ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
 ٢٠٥ ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين
 ٢١٧ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد
 ٢٢٣ جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم في طعنهم وإقامتهم
 ٢٢٥ ذكر قبائل الموحدين
 ٢٢٨ صفة أحوالهم في إقامة الجمعة
 ٢٤٣ ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب
 ٢٤٣ ذكر الاندلس وأسماء مدنها وأنهاها
 ٢٤٢ ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص
 والزبيق وغير ذلك وأسماء مواضعها
 (تمت)

Handwritten text in red ink, possibly a signature or name, with a horizontal line above it.

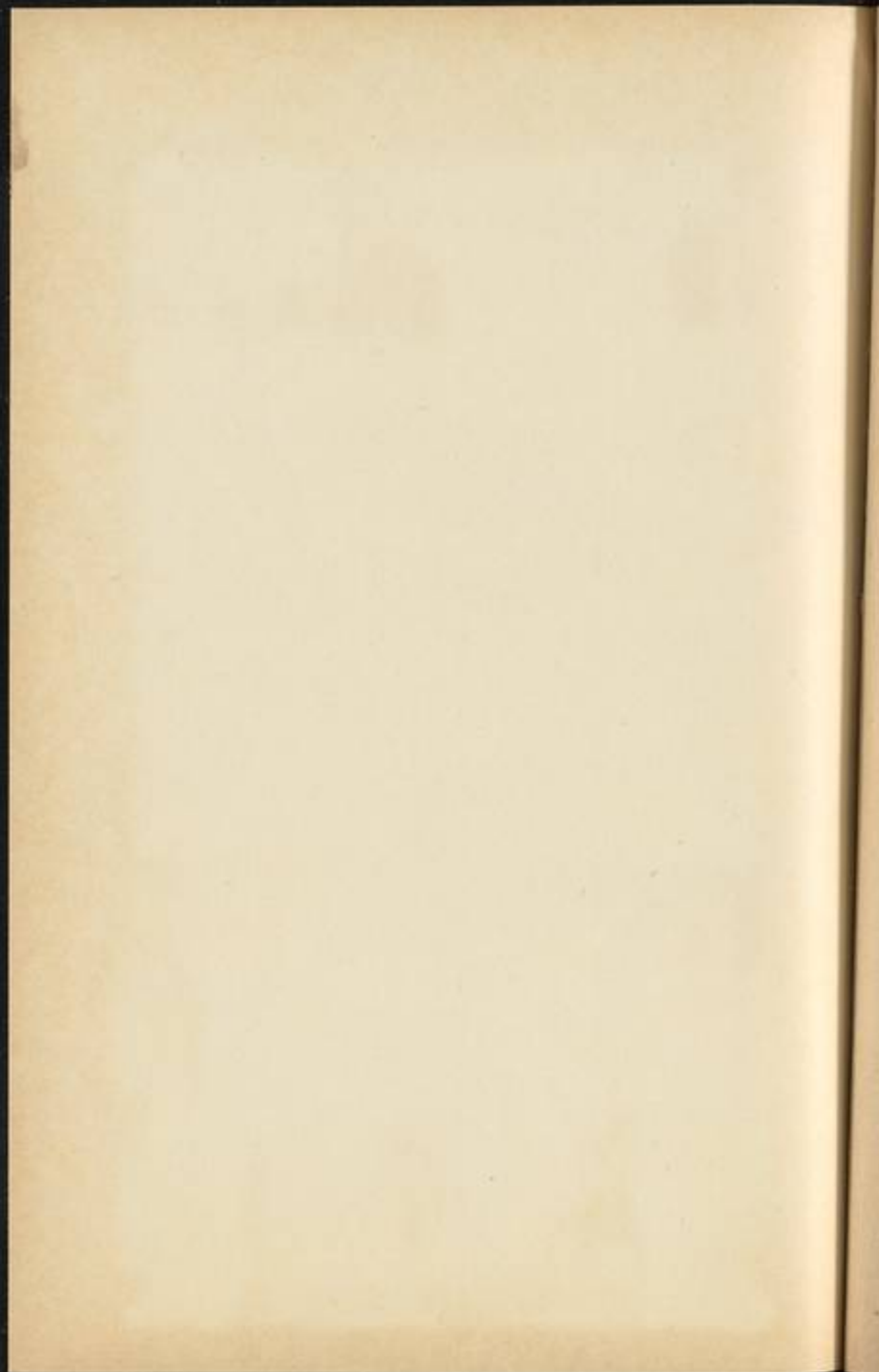
A long, diagonal red line, possibly a signature or a decorative element.

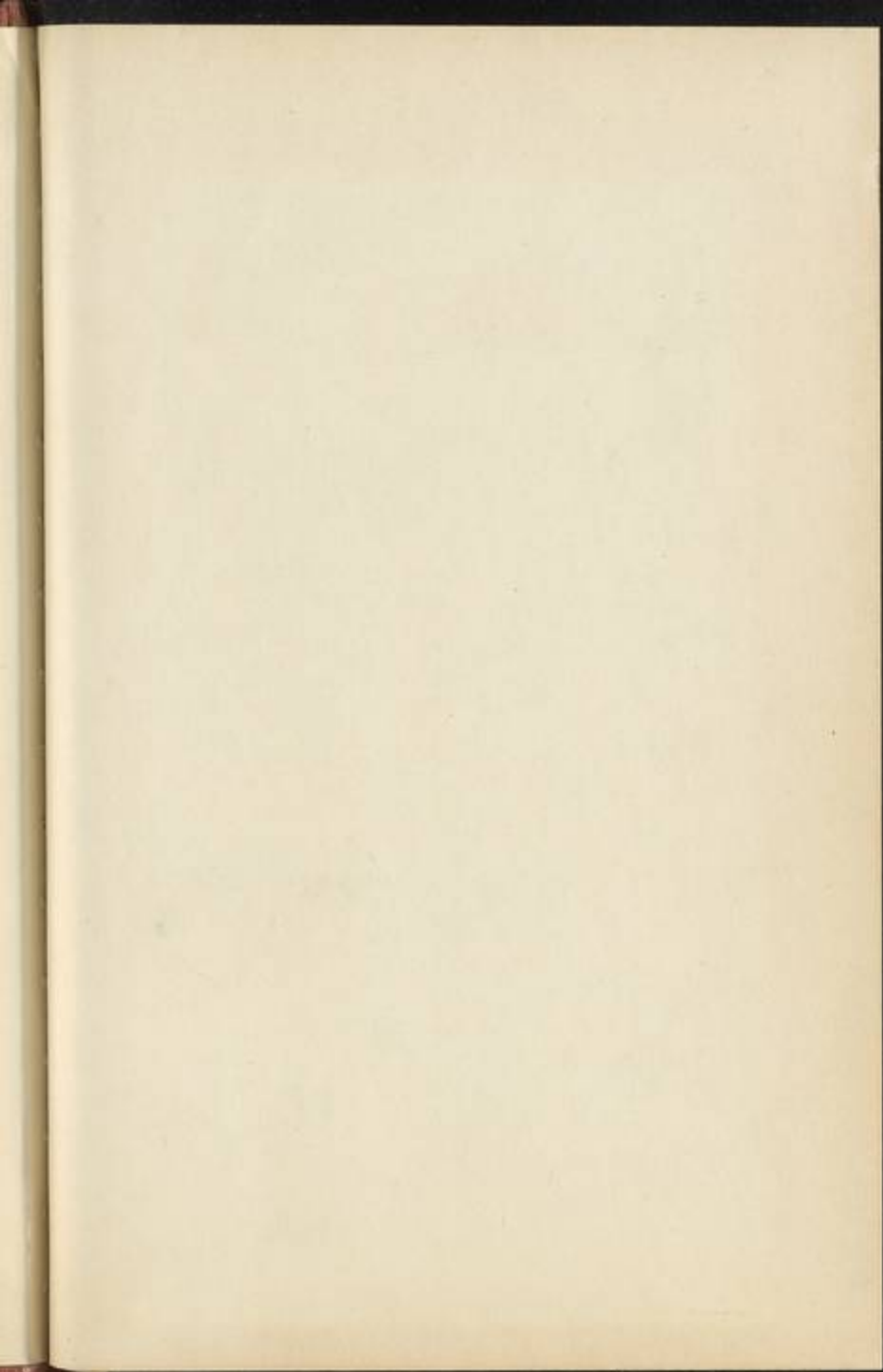
Handwritten text in red ink, possibly a signature or name, with a horizontal line above it.

Handwritten text in red ink, possibly a signature or name, with a horizontal line above it.

Handwritten text in red ink, possibly a signature or name, with a horizontal line above it.

Handwritten text in red ink, possibly a signature or name, with a horizontal line above it.





DP
114
•A6
1906

MAK 2 1144

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1002368048